الكتاب: زراد
المؤلف: باسم الخشن
تصميم الغلاف: محمود رأفت
تدقيق لغوي: عاشور عطا
إخراج: أحمد صلاح المهدي
خط العنوان: شروق أنور
رقم الإيداع: 27548 / 2019
الترقيم الدولي: 978-977-778-205-0

20 عمارات منتصر ـ الهرم ـ الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

زَرَادْ

باسم الخشن

إليك يا من آمنت بكل وعودي وإن لم أومن
كتبت تلك الرواية على وعد..
وعد منك أن أحدهم سيحب كلماتي

إلى الكراميل الدوتشي .. أحبك

شكر خاص

إلى الصديق الكاتب المخلص محمد عصمت الذي
شجعني ودعمني مع كل حرف،
لم يبخل بنصح ولا بوقت، ولولاه ما انتهت تلك الرواية
في هذا العقد من الزمان.

إلى شروق، الابنة الروحية الداعمة دائما والمبهجة أبدا.

إلى أحمد المهدي الذي يخرج من الأزمات دائما مبتسما.

الفصل الأول

١

يكتمل قمرا القرن ليغمر ضوؤهما الأحمر سماء (زَرَاد) ويحيل ضبابها قرمزيا، وفي ثنايا الضباب يتخبط الملاعين السكارى في طقس عهدت رؤيته كلما اكتمل القمران.

إنه حدث جلل، لا يحدث إلا مرة كل عام، وجده الملاعين مناسبةً طيبة ليثملوا ويتصارعوا في الطرقات، وكل المناسبات هي مناسبة رائعة للملاعين ليثملوا ويتصارعوا في الطرقات.

فقط الميناء الشمالي تلون بالأخضر القاتم، وابتعد عنه كلٌ من الضباب والملاعين، وأنوار القمرين أيضًا. لم يثمل أحدهم كفاية ليتجاهل الأعلام الخضراء الخاصة بالعزل الصحي.

تتعالى الأمواج في الميناء، بفعل مد القمرين، ومعها النسائم الكبريتية النتنة.

وحيدًا وعلى رصيف الميناء يتقدم ظلٌ أسود يثير الهلع؛ فبرأسه

منقار طويل كمنقار الغراب وبيده عكاز مدبب تتلاعب به الظلال لتظن أنه امتدادٌ ليده، ولا تساعد خطواته عالية الصوت -التي تشي بنعلٍ معدني لا يرتديه العامة - على تغيير هالة عدم الراحة المحيطة به.

يتوقف الظل عند آخر خيمة منصوبة على الميناء، يمد عكازه المدبب ليقرع على الجرس المدلى أمام الخيمة.. لحظات وتمتد رأس عجوز تسبقه يد بها مصباح غازي.

يتأمل العجوز للحظة الوجه المغطى بقناع خشبي، ثم يلتفت برأسه مناديا:

- طبيب الوباء قد وصل أرسل البائسين.

يلتفت مرة أخرى للطبيب ويقول وكأنما يحدث نفسه:

- لا أظنك تريد أن تدخل لتفحص المصابين؟

يهز الطبيب رأسه دون كلمة.

يغمغم العجوز:

- لا.. لم أظن ذلك.

ما أن تختفي رأس العجوز مرة أخرى داخل الخيمة، حتى يتحرك الطبيب إلى حافة الرصيف موليًا ظهره للخيمة. تمر دقائق ثم يخرج منها طفل.. طفلان.. ثلاثة.. ستة أطفال في ملابس رثة، وبعضهم بنصف ملابسه. ينظر كل طفل مع خروجه إلى الطبيب المتشح بالسواد برعب ويأخذ جانبًا بجانب من سبقه، يتبعهم العجوز حاملًا في يده دفترًا جلديًّا.

– تسعون، من ملابسهم حوالي عشرين طاقم السفينة، البقية مهاجرين من خلف الوادي لم ينج منهم أحد.

التفت الطبيب للأطفال متفحصًا إياهم من خلف قناعه، ثم اقترب من أحدهم ومد إليه بعكازه الخشبي اليد الأخرى.

وقف الطفل خائفًا غير مستوعب للمطلوب منه حتى وضع الطبيب العكاز في يده.

ثم أخرج من جيبه حافظة جلدية.

تعلقت عيون كل الأطفال بتلك الحافظة وهو يفتحها ويخرج منها شمعة صفراء وكريستالة لهب صغيرة.

بحركة استعراضية يقسم الكريستالة الصغيرة بإبهامه وسبابته لنصفين ليسيل اللهب الحارق على رأس الشمعة مشعلًا إياها، لأطفال ما خلف الوادي كانت تلك معجزة تصنع منه إلهًا في عيونهم.

مد العجوز بالدفتر الجلدي يده للطبيب لتسيل عليه قطرات الشمع الذائبة. يقتل الطبيب اللهب بأنفاسه، ثم يدق بخاتمه على الشمع الذائب مكونًا رأس العنقاء محاطًا بهلالي القرن صانعًا ختم (زراد) الذي يمثل ديانتي الممالك الجديدة.

يعيد الدفتر للعجوز ومعه الكريستالة الفارغة بيد، وبالأخرى يتناول عكازه من الطفل، متحركا بالفعل في اتجاه العودة لرصيف الميناء.

– هيا هيا اتبعوا راعيكم الجديد.

يقولها العجوز وهو يشيح لهم أن يلحقوا به، يظل الأطفال متسمرين

في أماكنهم حتى يتغلب أحدهم على خوفه وينطلق مهرولًا للحاق بالطبيب، ويتبعه الباقون واحدًا تلو الآخر.

يتأكد العجوز من خلو الكريستالة من أي قطرة لهب قبل أن يخبئها في ملابسه ويعود للخيمة.

ما أن يصلوا إلى أطراف المدينة حتى يتخلوا عن تشكيل الطابور الجنائزي الذي ساروا فيه طوال الرحلة، يتكتلون خلف الطبيب الذي لا يبدو عليه حتى أنه يدري بوجودهم.

كانت تلك أول خطواتهم داخل أرض الملاعين، رويدًا رويدًا تحول خوفهم إلى فضول.

طرقات حجرية لا تشبه صحراء ما خلف الوادي، وتحت تلك الطرق سيل لا يتوقف من مياه الصرف، يشعرون به بأقدامهم الحافية.

في أي ليلة أخرى كانوا سيسمعون خريره؛ لكن اليوم تدق الأجراس، وتتعالى ضحكات الثمالى.

يسيرون حتى تختفي البيوت الخشبية ويصلون إلى بوابة المدينة الداخلية.

سور شاهق حجري يفصل قلب المدينة عن أطرافها، يغير الطبيب اتجاهه بدلًا من توجهه إلى بوابة المدينة الداخلية ويمشي بمحاذاة السور.

لتظهر أمامهم شواهد قبور متناثرة، فوقها الرتوش زرقاء التي تميز قبور المدنسين الذين حرم عليهم الخلاص باللهب.

كوخ خشبي قديم يتخذ من سور المدينة حائط رابع كان البناء الوحيد في مجال البصر، يقف أمامه كهل تبدو عليه علامات سوء التغذية. يهرول ناحية الطبيب ما أن يراه قادمًا، في يده غرارة صغيرة ليقف أمامه وهو يحك ذقنه موجهًا كامل انتباهه للأطفال.

– ثلاثة.. سآخذ ثلاثة.

يهز الطبيب رأسه بأن «لا».

– سيدي الطبيب.. لقد أحضرت لك ما طلبته.

يحاول أن يفض الغرارة ليعرض على الطبيب محتواها لكن الطبيب يجذبها منه، مؤكدا على عقدها.

ثم يشير له بإصبعين بأن «اثنين»، يظهر عدم الرضا على وجه الكهل، لكنه يقول في لهفة:

– هل يمكنني على الأقل أن أختار؟

يشير له الطبيب بيده بلا اهتمام إشارة يمكن أن تعني أي شيء، لكن الكهل يقرر أن يأخذها بمعنى السماح.

يسرع الكهل ناحية الأطفال متحسسًا أجسادهم محاولا تمييز الذكور من الإناث، ينتقي اثنين من الذكور، ثم يجرهما من معصمهما وهما

ينظران برعب تجاه الطبيب نظرات استغاثة.

لا يوليهم الطبيب اهتمامًا وهو مدبرٌ نحو بوابة المدينة يتبعه بقية القطيع بلا حول ولا وقت لرثاء فقداهم ومصير مجهول.

بوابة المدينة حديدية مصمتة، خط عليها كل من رهبان القمر وكهنة اللهب تعاويذ وطلاسم بركة وحماية لـ(زراد)..

يدق الطبيب خمس دقات على البوابة ليفتح أحد الحراس، ملقيا نظرة على الطبيب ومن يتبعه، ثم يشير له متأخرا بالدخول، كان الطبيب قد مر بالفعل من البوابة.

لا مبانٍ خشبية داخل قلب المدينة.. فقط مبانٍ حجرية رمادية ضخمة، وقناة مياه تمر خلالها، من الممكن اعتبارها الجميلة لكن ليس في يوم كهذا يفرغ نصف الملاعين أمعاءهم ومثاناتهم بها.

مازالت الأجراس تعلو وتعلو حتى بدأ بعضهم بسد آذانه ليحميها من الصوت.. كانوا قد وصلوا للمبنى الذي تدق فيه الأجراس.

كاتدرائية القمر تقف شامخةً كآخر صرح تعبد فيه الأقمار.

ينتظرون مع راعيهم المؤقت على ما يبدو أمام بوابة الكاتدرائية، يدق البوابة دقتان فقط تلك المرة، وينتظر...

يفتح الباب بالكاد ليخرج عجوزٌ هزيلٌ آخر، على وجهه ابتسامة، تلتف على عينيه عصابة قماشية، ويرتدي ملابس الرهبان الفضفاضة. ينحني الطبيب احترامًا له انحناءة خفيفة، وبشكل ما.. وبالرغم من العصابة يبدو أن الراهب قد شعر بالحركة فربت على كتفه.

وحيث أن أي محادثة مع أصوات الأجراس الصاعقة دربًا من دروب

الخيال فقد تناول الطبيب كف الراهب ورسم رقم اثنين بإصبعه، هز الراهب رأسه ثم أشار للأطفال بكلتا يديه أن يتقدموا لينطلق جميعهم ناحية الراهب البشوش، لكن الطبيب بعدما مر أول طفلين من جانبه أوقف البقية بعكازه، ليلعن الأطفال المتبقين سوء حظهم عندما انحنى الراهب ليلثم رأس الطفلين محتضنا كلاهما، ثم يوجه لهما قولا ضاعت معالمه مع صوت الأجراس، يفتح بعدها الباب ليدخلهما الكاتدرائية، ويتحرك الطبيب وبقية الأطفال مبتعدين.

يلتفت أحد الأطفال ليلقي نظرة حسرة على بوابة الكاتدرائية وهي تغلق، ويهيأ له للحظة قبل أن يُقفل الباب أنه يلمح جسدًا عاريًا ملقى على المذبح مسلسل بأصفاد حديدية، كان مشهدًا غريبًا ككل شيء آخر رآه الطفل في أرض الملاعين.

لم تطل الرحلة تلك المرة، فما أن اتجهوا تحت الجسر العريض الذي يمر فوق القناة حتى وصلوا وجهتهم.

كوخ عتيق يبدو ككوخ حراسة قديم، لكن ساكنه بالتأكيد لم يكن أحد حراس المدينة، طرقات عصبية بعكازه على النافذة قبل أن يخرج شاب حليق الوجه مرتديا بنطالا فضفاضا فقط، ويبدو عليه أنه نصف نائم.

يقول وهو يتثاءب:

- تأخرت علي كثيرًا.

لا يرد الطبيب.

- حسنًا غلبني النوم.. ماذا تريدني أن أقول!

يدخل الشاب يديه في جيبه ليخرج كريستالة كانت أكثر ضخامة

مــن كريســتالات اللهــب وقلبهــا النابــض كان أزرق وليــس برتقــالي متأجــج ككريســتالات اللهــب. يمــد الطبيــب يــده ليختطفهــا سريعًــا، كأنــما يخشــى أن يراهــا أحــد.

ثم يتجه ناحية الدرج ليوقفه صوت الشاب صائحا:

- ظننتك ستعطيني اثنين فقط؟

يتوقف الطبيب في مكانه ثم يستدير متفاجئًا بوجود ثلاثة أطفال.

يقف بلا حراك معيدا الحسابات في رأسه.

يخرج الشاب كريستالتي لهب وهو يقول:

- لا خسارة في زيادة ترس آخر لتدوير الماكينة، سآخذ الثالث.

يتأمــل الطبيــب الثلاثــة أطفــال بتــأنٍ متجاهــلا يــد الشــاب قبــل أن يبســط راحتــه لواحــد مــن الأطفــال الثلاثــة، يلتقــط الطفــل المقصــود يــد الطبيــب دون اعــتراض، ويتحــرك الطبيــب بالطفــل عائــدًا باتجــاه الــدرج الحجــري الــذي يــؤدي لأعــلى الجــسر.

يصرخ وراءه الشاب:

- سعدت بالعمل معك...

ولكن لا يظهر على الطبيب أنه قد سمعه.

يطلــق زفــيرًا عاليًــا واضعًــا الكريســتالتين بجيبــه وهــو يلتفــت متفحصًــا مشــترياته الجديــدة ويقــول لهــما بلهجــة مرحــة:

- قضيتــما يومًــا حافــلًا .. أليــس كذلــك؟.. هيــا بنــا، مرحبًــا بكــما في بيتكــما الجديــد أنــا العــم (ســاليك).

٢

ضربة أخرى تطيش بعيدًا عن رقبة الدخيل، ترتطم بدوي عالٍ تهتز له أروقة جناح النوم في (قصر زراد الملكي).

«من أجل المجد» جملة واحدة تدور في ذهن الدخيل مرارًا وتكرارًا.. «من أجل المجد».

يحاول الحارس الثاني أن يوجه ضربة غادرة إلى ظهر الدخيل، لكنه يضرب الفراغ الذي كان يملأه جسد الدخيل منذ أقل من ثانية، وما أن استعاد اتزانه من قوة الدفعة حتى قابل عينيّ زميله الصارخة بالألم، وقد تخلى عن سيفه ضاغطًا بكلتا يديه على رقبته، محاولًا كبح دمائه المتفجرة.

لحظة تمُر على الحارس الثاني يعجز فيها عن اتخاذ قرار؛ هل يحاول مساعدة زميله في وقف النزيف أم ينتبه إلى الدخيل؟.. لحظة كانت تكفي لأن يغرز الخنجر المضرج بدماء زميله في قلبه.

«من أجل المجد» ثلاثة حراس آخرين يهرعون لملاقاته...

ثلاثة سيوف متمرسة توجه ضرباتها إليه، أحدها يستهدف قلبه، والثاني قدمه، والسيف الثالث يتجه مباشرة لرقبته.

يقفز للخلف متفاديًا السيف الموجه لقدمه، رافعًا يده ممسكًا بالخنجر عكسيًّا موجهًا النصل لحماية ساعده من الضربة الموجهة لقلبه، لكن السيف الثالث برغم من عدم إصابته لهدفه ظفر بضربة مباشرة في كتفه.

دماء... صرخة شنيعة يطلقها الدخيل وهو يبحث عن موطئ لقدمه دون أن يفقد توازنه، لكن الحراس يستمرون في الانقضاض عليه وقد لاحت لهم الفرصة ولن يتوانوا عن الفتك به.

«من أجل المجد» تعيد تلك الكلمات إشعال نيران روحه، ليتخلى عن الخنجر في يسراه، ويطوح بيده أحد المشاعل الحديدية المعلقة على الحائط في طريقه لملاقاة الأرض، يجفل أحد الحراس وقد تلقى المشعل الحديدي في قدمه، ويتوقف للحظة معرقلًا طريق من خلفه، ولكن لم يمنع ذلك الحارس الثالث من غرس سيفه في فخذ الدخيل الممدد على الأرض.

يمد الدخيل يده في سرعة جاذبًا يد الحارس الممسكة بالسيف المغروس في فخذه ليشق النصل طريقه أعمق في جسده. مرتكزًا على يد الحارس بيسراه؛ يدفن خنجره في خصيتيّ الحارس وتمتزج صرخاتهما معًا.

عاجزان عن اتخاذ أي قرار وقف الحارسان متسمرين في مكانهما، وقد سقط زميلهما فوق الدخيل صانعًا درعًا بشريًّا له. يلتف أحدهما ليرى مصدر خطوات تتقدم في سرعة، ليقابله وجه امرأة ورجل من كهنة النار - حراس الملك - أو بالأحرى درعيهما؛

ففارق الطول وحده دون فارق الرتبة كان مرعبًا حتى كادا أن ينسيا الدخيل تمامًا، ويركعان على أقدامهما مؤديان للتحية الرسمية.

تجاهلهما الكاهنان مقتربين من الدخيل ودرعه البشري، واللذان لم يتوقفا عن الصراخ للحظة. تهشم الكاهنة ذات الشعر الناري كريستالة اللهب الكامنة في سيفها ليضوي في لحظات بلونٍ برتقالي ينذر بإذابة أي عائق في طريقه. ودون أن تتوقف للحظة تغرس سيفها في ظهر الحارس الملتحم مع المتسلل، يخترق النصل الملتهب جسد الحارس قاتلا صرخاته ومكملًا طريقه لجسد الدخيل.

تنزع الكاهنة سيفها من الجسدين وينحني الكاهن الثاني ليزيح الجثة ليريا الدخيل للمرة الأولى.. أسمر البشرة، عاري الجذع تمامًا، حافي القدمين، متلفعًا بوشاح غارق في الدماء لا يستطيع تمييز لونه الأصلي. ترى الخنجر لا يزال في يمناه، بآلية تامة تفصل يد الدخيل اليمنى عن جسده بسيفها الذي لا يزال يضوي. تتصاعد رائحة اللحم المشوي مع صرخات الدخيل.

يتناول الكاهن الثاني قدم الدخيل جارا إياه دون أدنى مجهود في الاتجاه الذي جاءا منه تتابعه أنظار الحارسين حتى يجفلهم صوت الكاهنة:

- أكان وحيدًا؟

يلتفتا للكاهنة التي ما تزال شاهرة لسيفها الملتهب، وللمرة الأولى ينظران إلى وجهها بتمعن ليتعرفا عليه فورا، الكاهنة (ميرا) أحد الكهنة الملازمين للملك، ثم يتبادلان النظرات سريعًا في عدم تأكد.. ينطق أحدهما أخيرًا متلعثمًا:

- أظن...

تقاطعه (ميرا) غير مهتمة بما يظنه الحارس:

- لينتقل كل الحرس لبوابات المناجم، حتى حرس الشرف.

يتحرك الحارسان لتنفيذ الأوامر، لكن الكاهنة تضع راحتها على كتف واحد منهما لتوقفه.

- واحد فقط يكفي لإبلاغ التعليمات...

تنظر للرواق من حولهم وتشير لأجساد الثلاثة حراس قائلة:

- لقد سقط أولئك حاملين لواء الملك، فليتم خلاصهم باللهب على الفور.

قالتها وأخرجت من جانب درعها ثلاث كريستالات لهب أخذها الحارس هازا رأسه في امتنان لتقدير الكاهنة لإخوته في السلاح.

تتحرك (ميرا) في خطوات سريعة متخذة من دماء الدخيل دليلًا لوجهتها.

لم ينقطع سيل الدماء حتى وصولها للدرج الغربي؛ حيث لحقت بالكاهن الثاني الذي فَضَّل أن يحمل الدخيل بدلًا من جره على السلالم أيضًا في طريقهم للنزول.

تبطئ (ميرا) من خطواتها لتماثل سرعة الكاهن الثاني، يصلان لساحة القلعة والحراس يتحركون في تشكيلات نظامية ناحية بوابات المناجم تنفيذًا للأوامر، تاركين ساحة القلعة والأسوار في حراسة الفرسان.

- ليلة اكتمال القمرين، بالتأكيد يشعر الرهبان بالشجاعة الكافية لارتكاب حماقة كتلك الليلة.

تقولها (ميرا) وهي تتأمل قمري القرن المكتملين، يلقي الكاهن الثاني نظرة على وجه الدخيل فاقد الوعي الذي يحمله تحت إبطه دون أن يبطئ من خطوته، ثم يقول لـ(ميرا) في عدم اقتناع:

– لا، لا أعتقد أنه من رهبان القمر، فالليلة يغرق الرهبان في الميد، ويقرعون أجراسهم حتى يغيب القمران.

– وهل هناك أفضل من الميد ليزين لك ارتكاب الحماقات؟

– هناك الدُّخن.

يقولها الكاهن مبتسمًا، وقد وصلا للدرج المفضي للسجن ثم يكمل:

– راهب أفرط في الشراب يقتل ثلاثة من حراس القلعة في اشتباك مباشر؟

لا ينتظر إجابة (ميرا) مضيفًا:

– ثم أن لون بشرته أقرب إلى شعوب خلف الوادي عن رهبان القمر.

تتوقف (ميرا) عن نزول الدرجات مندهشة مما قاله الكاهن، ثم تلحقه قائلة:

– (جيرد)! هل أنت جاد؟

يرد (جيرد) بلامبالاة:

– كون ملامحه تشي بأصوله من خلف الوادي لا يعني بالضرورة انتماءه لهم، خاصة مع براعته في القتال.

تفكر (ميرا) في أن احتمالية أن أحدهم هاجر من خلف الوادي قبل الوباء مستبعدة جدًا،

لكن التخمين لا فائدة منه وقد وصلا إلى بوابة الزنازين.

تغرس (ميرا) سيفها الذي كان ما يزال مشتعلًا ببرميل ممتلئ بالرمال، ويلقي (جيرد) سيفه على طاولة خشبية بجانب البوابة قبل أن يفتح لهما الحارس ليدلفا داخل ممر الزنازين،

يتبعهما الحارس حتى يصلا لآخر زنزانة على اليمين لا يميزها شيء سوى وقوف كاهن نار أمامها.

- (داليف)، يمكنك الاسترخاء الآن، كان متسللا وحيدًا.

يقولها (جيرد) للكاهن المرابط أمام الزنزانة.

ينظر (داليف) بفضول للمتسلل الذي يحمله (جيرد) تحت إبطه، وفور الدماء من عدة مواضع في جسده.

- تسبب ذلك الصغير بالكثير من القلق الليلة.

يُعَلِّق (داليف)، ثم يتجه لنهاية الممر لوضع سيفه في الخارج، بينما تفتح (ميرا) باب الزنزانة. يتقدم (جيرد) لقلب الزنزانة المظلمة ويضع المتسلل أرضًا بحرص.

تتبعه (ميرا) وبعدها بلحظات يدخل (داليف).

يعلو من قلب الظلام صوت صرير معدني وخطوات ثقيلة تتجه ناحية الجسد الملقى على الأرض.

يظهر مصدر الصوت في جزء مضيء نسبياً من الزنزانة؛ رجل أسود البشرة، غليظ الشفتين، يفوق الكهنة طولًا، تحيط قدميه ومعصميه سلاسل حديدية يعلو أغلبها الصدأ.

يسأل الرجل بصوت عميق يشعر به الكهنة يبعث القشعريرة في

أجســادهم:

- أما يزال حيًّا؟

يجيب (جيرد) على الفور:

- يمكنني سماع أنفاسه.

بلهجة آمرة:

- أعتقد نال ما يكفيه من الراحة، أفقه.

يمـلأ (جـيرد) مغرفـة مـن طبـق ميـاه آسـن في أحـد الأركان، ويرشـها عـلى وجـه المتسـلل، ويتبعهـا بلطمـة عـلى وجهـه تعيـد الوعـي للمتسـلل الـذي يبـدأ في الـصراخ عـلى الفـور مـن الألم الـذي يعـتري جسـده.

تتقـدم (مـيرا) متناولـة قطعـة قـماش مـن ثيـاب المتسـلل وتحشرهـا في فمـه كاتمــة لصرخاته،

ثم تجذب رأسه في قوة هامسة في أذنه:

- عليك أن تتحلى ببعض الأدب الآن...

تقولها وترفع رأس المتسلل في ناحية الرجل المسلسل وتكمل:

- فأنت في حضرة جلالة الملك.

تتسـع عينـا المتسـلل عـلى آخرهـا وهـو يسـتوعب أنـه ماثـل أمـام الملـك السـجين، وتنطلـق مـن أعماقـه أعتـى صرخـة أطلقهـا يومًـا، وإن لم تصدر صوتًـا فقـد شـعر بهـا تحـرق صـدره.

٣

تـردد صـوت جرسـين صغيريـن عندمـا دفـع رجـل مـا البابـين الصغيرين الخاصـين بحانـة المدينة.

كان اليـوم مـن أفضـل أيـام الحانـة كعـادة ليلـة اكتـمال القمريـن، لكـن مـع اقـتراب الفجـر فقـد بـدأ العاملـون بنقـل الزبائـن إلى الخـارج في مبـادرة منهـم للإغـلاق، فيومهـم الشـاق لـن ينتهـي بعـد رحيـل آخـر السـكارى.. مـا يزالـون يتطلعـون لروتـين الإغـلاق اليومـي، يتوجـب عليهـم الغسـل، والتنظيـف، ومراجعـة المخـزون الـذي تلاشـى مـع إقبـال الأمـس، وربـما بعـد كل ذلـك يسـعدوا بسـاعات قليلـة مـن الراحـة قبـل ورديـة اليـوم الجديـد.

كان ذلـك كل مـا يأملـون بـه حتـى ظهـر أمامهـم هـذا الزبـون الجديـد الـذي يملـك جرسـين صغيريـن معلقـين فـوق كتفيـه، مـا كان ليسـمع رنينهـما منـذ قليـل وسـط لهـو الملاعـين، لكـن الآن وقـد بـات الليـل أهـدأ فقـد سُـمعا بوضـوح.

راقب الساقي الرجل المتشح بوشاح أحمر لامع، والقبعة الكبيرة المدببة، حرك الرجل وشاحه للخلف قليلًا يظهر من خلالها خنجران معلقان على كل جانب، لم يكن هناك الكثير ليتأمله الساقي، لقد غطى ظل القبعة على ملامح الرجل، رُغم ذلك لمح بوضوح عينين ملونتين.

إن لم يش زيه غير المعتاد، وأسلحته المبهرجة بكونه غريب عن (زراد)؛ فإن عينيه قد أفصحتا بلونها الرمادي الفاتح.

تابع العاملون نقل زبائنهم للخارج، بينما تأمل الزائر الطاولات الخشبية المستديرة، والكراسي التي تحطم بعضها، رفع عينيه ناحية البار، مراقبًا الساقي الذي يقوم بسكب القليل من الميد في أحد الأكواب القصيرة.

بدا عليه الانهماك في عمله، وقد تجمعت حبيبات العرق فوق جبينه. اقترب الغريب منه، متخذًا أحد الكراسي المستديرة القابعة أمام البار، ولكن قبل أن ينطق الغريب؛ شعر بيد ثقيلة على كتفه، يلتفت لصاحبها ليجده أحد الملاعين السكارى، ضخم الجثة، أشعث اللحية، مبتهج الأسارير، وكأنما التقى صديقًا قديمًا.

- أنت محظوظ أيها الغريب. فلست فقط في (زراد) ليلة اكتمال القمرين، ولكن ستحظى بـ(خاشيد) كنديمك.

يتجشأ الملعون السكير، ثم يقترب من الغريب، مفسرًا بصوتٍ خفيض:

- أنا (خاشيد).

يميل الغريب بجسده باعدًا أنفه بقدر الإمكان عن فم الملعون.

- (حيف).. فلتُقدم كوبًا من الدُخن لصديقي هُنا.

يقولها (خاشيد) للساقي بصوتٍ عالٍ، وحماسة مفرطة، رغم قربه من الساقي وهو يتخذ المقعد الملاصق للغريب.

يصب الساقي كوب الدُخن أمام الغريب، ثم يعود لتنظيف الأكواب في آلية...

ينقل الغريب نظراته المتشككة ما بين كوب الدخن الموضوع أمامه، ووجه (خاشيد) منبسط الأسارير، ثم يهز كتفيه بلامبالاة متجرعًا جرعة كبيرة من الدُخن، لكن الجرعة لا تبقى كثيرًا في فمه؛ بل تخرج سريعًا من أنفه ومن فمه، مصحوبة بسعالٍ شديد.

يربت (خاشيد) على ظهره قائلًا:

- اعذرني.. نسيت أن الدُخن مذاق مكتسب، ما أن تعتاد عليه حتى تقدره، دعني أخلصك من هذا.

يمد يده ساحبًا كوب الدخن أمامه، متجرعًا نصفه، قبل يوجه حديثه للساقي مرة أخرى:

- (حيف).. فلتضع للرجل بعضًا من الميد.

مرة أخرى يصب الساقي كوبًا جديدًا، ويضعه أمام الغريب الذي ما يزال يحاول التقاط أنفاسه دون أن يسعل. يأخذ الغريب الكوب ليتجرع جرعات سخية من السائل الكهرماني، محاولًا تطهير حواسه من طعم الدخن.

يتناول (خاشيد) طرف وشاح الغريب، متحسسًا إياه...

(خاشيد):

- إذن أنت من (الهطباء)... أم من (ثيام)؟

يجذب الغريب طرف وشاحه من يد (خاشيد) الذي كان بدأ يتشممه.

- ثيام...

يقولها الغريب بصوت متحشرج وعينين ما تزالان تدمعان من أثر الدُخن.

يتمتم (خاشيد) على أثرها:

- إذن فهي ليست زيارة دينية لرهبان القمر.

ينتفض الغريب شاعرًا بالإهانة وقد صفا صوته:

- وأنت تظن أن ثيابي تماثل خرق حجاج (الهطباء)!

- لا.. لا.. بالتأكيد أنت سائح من أهل (ثيام) الكرماء، وأنت بالتأكيد سعيد الحظ فاليوم سيكون (خاشيد) نديمك.

ثم يقترب منه هامسًا بصوتٍ خافت:

- أنا (خاشيد).

يسكت للحظة مفكرًا:

- هل قمنا بتلك المحادثة من قبل؟

يتجاهله الغريب، منهيًا كوب الميد، متهيئًا للرحيل.

في سرعة يصيح (خاشيد) في الساقي:

- ماذا تنتظر وكوب الرجل فارغ!

يمـلأ السـاقي كـوب الغريـب قبـل أن يسـتطيع الاعـتراض، ويأخـذ كـوب (خاشـيد) الفـارغ ليمـلأه بالدُخـن.

– أخـبرني يـا صديقـي، هـل جئـت لتـزور مينـاء (زراد) العظيـم؟ يؤسـفني إخبـارك بـأن الميناء الشـمالي محظـور، فالوبـاء قـد وصـل إلى شـواطئنا، الملـك السـجين أخـذ بـرأي طبيـب الوبـاء وأغلـق الميناء الشـمالي تمامًـا، والميناء الشرقـي حاليًـا يضـم الأسـطول الحـربي؛ فـلا يطـأه إلا قـادة الجيـش، وكبـار التجـار بتصريـح مـن الملـك.

يبـدو وكأن شـيئًا في حديـث (خاشـيد) قـد جـذب انتبـاه الغريـب؛ فالتفـت إليـه متسـائلًا:

– ألا يزال الطبيب حيًّا؟!

– الطبيب القديم مات منذ زمن، وذلك ابنه...

يكمل (خاشيد) محدثا نفسه بصوت مسموع:

– أتطـير مـن أطبـاء الوبـاء بمنقارهـم ورداء الشـؤم الـذي يرتدونـه.. إذا أردت الحـق.. هـم يروعوننـي أكثـر مـن كهنـة النـار ذاتهـم.

يظهـر وأن أذن الغريـب قـد تمـددت عـدة انشـات مـع ذكـر «كهنـة النار»، وعينـاه لمعـت وهـو يقـول في لهفة:

– هل من السهل مقابلة كهنة النار؟

– نعم.. بالطبع، كهنة النار...

يقولها (خاشيد) ضاربًا صدغه بكفيه:

– بالتأكيـد أنـت تريـد أن تعـرف عـن كهنـة النـار، حـراس الملـك السـجين، وحمـاة (زراد).. هـل تعلـم أن كهنـة النـار لا تفارقهـم النـيران

أبـدًا، حتـى في أحلامهـم، لا ينجـون منهـا، تـأتي النـار لتلتهـم بعضًـا مـن أرواحهـم وتسـتبدلها لهبًـا...

يقاطعه الغريب:

- نعـم.. نعـم.. هـلا أخبرتنـي إن كنـت أسـتطيع لقـاء كبيرهـم، يلقبونـه بالـ(آركـون) أليـس كذلك؟

- بالطبـع يمكنـك ذلـك لـو كنـت محظوظًـا بـما يكفـي ليكـون (خاشـيد) ند يمك .

وقبـل أن يميـل عليـه (خاشـيد) مـرة أخـرى لتوضيـح أنـه (خاشـيد) قاطعـه الغريـب:

- أخبرني إذن يا صديقي.

يرجـع (خاشـيد) للـوراء باحثًـا بأصابعـه عـن ذقنـه ليأخـذ مظهـر المُفكـر بـلا جـدوى، فـيرضى بـأن يشـير بإصبعـه في حركـة دائريـة قائـلًا:

- تلـك معلومـات ثمينـة، أسـتحق عليهـا ترضيـة مـن صديـق كريـم مثلـك.

يخـرج الغريـب دون كلمـة بعضًـا مـن العمـلات المعدنيـة، لكن (خاشـيد) يستو قفه .

- يبـدو يـا صاحبـي أن تلـك أول زيـارة لـك لـ(زراد)، قطـع المعـدن تلـك صـارت لا تسـاوي شـيئًا هُنـا، فقـط الكريسـتالات.. عـذرًا لا أسـتطيع مسـاعدتك.

يدور (خاشيد) بمقعده مستعدًا للرحيل، ليستوقفه الغريب مترجيًا:

- رُبـما أسـتطيع تقديـم شيءٍ آخـر مقابـل تلـك المعلومـات، مـا رأيـك

بهذا الوشاح الثمين؟.. أنا أعلم أن تلك الأقمشة لا تصل إلى (زراد).

- بالتأكيد لا تصل، فلا حاجة لنا بها..

يصمت لبرهة متفحصا الغريب بعين زائغة.

- أتعلم شيئًا، أنا في مزاج رائق اليوم، يعجبني الخنجرين اللذين تحملهما، ما قولك في أن تستبدلهما بما لدي؟

تمر لحظات من التردد على وجه الغريب، قبل أن يخرج الخنجرين، وينظر لهما مطولًا في وداع، ويضعهما أمام (خاشيد).

يتجاهل (خاشيد) الخنجرين مقتربًا من الغريب مجددًا، باديًا عليه أنه سيخبره بسر رهيب، ثم يبدأ في التكلم هامسًا:

- ستخرج الآن من الحانة، وتتجه ناحية الأجراس التي تُصدعنا بها الكاتدرائية، ما أن تصل إلى هناك حتى تتجه يمينًا عابرًا الجسر الذي يمر فوق القناة، ستجد الطريق متجهًا إلى أعلى، لا مجال للضياع فكل ما ستجده أمامك هو أسوار القلعة. ستتجه نحو البوابة، وتخبرهم أنك من شركاء (سليك)، وتريد أن تقابل (الآركون)، لكن احرص على التخلي عن تلك الملابس، فهي تفضح أمرك كسائح غريب.

يهز الغريب رأسه في حماسة، وهو يقول:

- أشكرك بشدة، أنا أعلم أنه لن يمثل أهمية بالنسبة لك، لكن تقبل مني هذا الوشاح هدية مع الخنجرين.

يبتسم (خاشيد) قائلًا:

- هدية مقبولة، دعني أحاسب على مشروباتك إذن؛ فنقودك لا تصلح هُنا على أي حال.

يهز الغريب رأسه بامتنان متوجهًا خارج الحانة، وجسده يهتز من فرط الحماس لترن الأجراس المعلقة على كتفه.

ما أن يخرج الغريب حتى يقترب الساقي من (خاشيد) ساحبًا الأكواب الفارغة من أمامه قائلًا:

- كانت تلك قسوة غير مبررة منك يا (خاشيد)، سيعلقون رأسه على الأبواب بمجرد ذكر اسم (ساليك).

يهز (خاشيد) كتفيه بلا مبالاة، ثم يريح رأسه على البار ويعلو شخيره بعدها بلحظات.

٤

خلت شوارع (ساهور) ومبانيها من أي أثر للحياة في تلك الليلة الصاخبة. يومًا ما كانت مقاطعة (ساهور) أكبر وأهم مقاطعة في (زراد)، وأكثرها صخبًا، ولطالما ضجت بحفلات النبلاء الراقصة.

رحل النبلاء، وخلت قصورهم، وتوقف صخب الموسيقى والحياة في (ساهور)؛ فبرغم خلو القصور لم يحاول الملاعين أبدًا الانتقال للعيش بتلك المقاطعة التي تقع في قلب المدينة، فضَّلوا أن يظلوا على ضفة النهر الأخرى، تلك حياتهم وبيوتهم التي ورثوها وألفوها حتى قبل أن يوصموا ملاعينًا، ورُبما أيضًا أرادوا أن يظلوا أكثر قربًا إلى الميناء، وأبواب المدينة...

أو لعل قلوبهم لم تزل تحمل قدرًا من الشرف لم يطمسه الميد والدُخن ينكز ضمائرهم بذكرى هوانهم وخذلانهم لمن لم يرضَ لهم بالهوان.

بيت واحد لم يهجر من (ساهور، بيت (طبيب الوباء).

ورث الطبيب المهنة والبيت من أبيه آخر طبيب وباء في عصر النبلاء، حين نفى الملك السجين النبلاء لم يطلب منه الرحيل؛ فهو لم يكن يعتبره من النبلاء، أو حتى من أوليائهم، ولم يفكر الطبيب في أن يرحل. فولائه الوحيد كان لواجبه المقدس؛ درء الوباء عن أسوار (زراد)، لا يهم إن كان ساكنوها نبلاء.. ملاعين.. أو حتى مجموعة من الكلاب الضارية؛ الوباء لن يدخل (زراد).. ذلك القسم، وذلك الهدف الذي ورِّثَ لسلالة (آنشتون).

جلس طبيب الوباء بمكتبة القصر التي يحسده عليها كل طالبي العلم في المملكة، على ضوء الشموع الخفيض كان يراجع الرسالة التي أنهى كتابتها، وحبرها لم يكن قد جف بعد...

جلالة الملك.

أخط تلك الكلمات آملًا أن تتفهم أسباب ما أنوي فعله.. أقسمت سلالة (آنشتون) منذ الوباء الأول على ألا يدخل الوباء مملكتنا مرة أخرى، لم يحنث أي من أسلافي بذلك القسم... وكوني آخر الناجين من سلالتي لن يجعلني أول الحانثين.

السفن المحملة بالوباء ترسو على شواطئنا، ومن تبقى من النبلاء في (ثيام) يتهامسون بأن تلك لعنة القمر الغائب، وأن وجودك سوف يكون سبب دخول الوباء مرة ثانية لـ(زراد).

تلك المرة مُخلصًا (زراد) من الملاعين، ومن

كهنة النار، ومؤذنًا بعودة من تبقى من النبلاء المؤمنين، ليرفعوا ذكر القمر الغائب مرة أخرى.

جلالة الملك إذا دخل الوباء ديارنا سيكون هذا عاري وحدي، ولن يتحمله غيري. ولا يوجد ما أستطيع صنعه لإيقاف ذلك... ليس وأنا هُنا في (زراد).

الوباء قادم مع قاطني ما خلف الوادي، في أرض الممالك القديمة، والمؤكد أن مصدر الوباء إما في الوادي أو في (بحر السجراء)؛ فلن يطيق مريض رحلة الوادي أو ركوب البحر ذلك مؤكد.

اليوم وبعد أن أُسلّم رسالتي سأنطلق مرتحلًا إلى أراضي الممالك القديمة باحثًا عن مصدر الوباء، ذلك الأمل الوحيد.

إما تحييد المصدر وإما تخليق علاج منه، هذا أو أن تنتهي سلالة (آنشتون) قبل أن يدخل الوباء (زراد).

طبيب الوباء.

(سيفاد آنشتون).

يضع (سيفاد) ورقة الترشيح مجففًا آخر قطرات الحبر السائلة على رسالته، قبل أن يطويها خاتمًا إياها بختم الملك، متأملًا الصبي الذي لم يتبادل معه كلمة واحدة منذ لقاءهما.

ظل الصغير يتأمل شوارع (ساهور) الخالية من نافذة المكتبة، تاركًا الطبيب ينهي رسالته.

لم يقطع الصمت سوى خادم دخل بعربة ضيافة، رشف الصبي شراب الأعشاب الدافئ الذي ناوله الخادم إياه بنهم ليبعث الدفء في أوصاله، ونقل نظره من النافذة متأملًا وجه (سيفاد) دون قناع الطبيب، كان حليق الوجه، أنفه مدبب وكأنما سينمو في يوم ليماثل منقار القناع.

– ما اسمك؟

– (عاند).

يأتي صوت الفتى.

– لم تكن من ضمن من أحضرت من الميناء، من أين أتيت؟

يطأطئ الفتى رأسه منشغلًا بخطوط الأرضية المزخرفة دون أن يجيب الطبيب.

– أظن أنني أملك فكرة عن مكان مجيئك.. أأنت هارب من الكاتدرائية؟

يرفع الفتى رأسه وتتسع عيناه في هلع وهو يقول:

– أرجوك يا سيدي سأكون خادمًا مخلصًا، لا تُعدني إلى هناك.

– لست جليس أطفال لأحضرك أو أعيدك، إذا أردت أن تصير خادمًا

فعليك أن تعرف أولًا أن خدمة طبيب الوباء ليست بالأمر اليسير.

يفتح طبيب الوباء الغرارة التي كان قد حصل عليها من اللحاد، ليتناثر فوق مكتبه ثلاثة قلوب بشرية.

يتراجع الفتى لا إراديًّا.

- تريد أن تصير خادمي؟ خذ تلك القلوب وسيدلك واحد من الخدم على المعمل. ضعها على طاولة المعمل وانتظرني.

يتردد (عاند) للحظة قبل أن يتقدم معيدًا بيده القلوب للغرارة مصطحبًا إياها خارج الغرفة، ولكن قبل أن يخطو خارجها جاء صوت الطبيب قائلًا:

- إذا وجدت أنه بإمكانك تحمل رائحة المعمل، والتجارب التي سأجريها اليوم، يمكنك أن تظل بصحبتي في الرحلة التي أنا بصددها الليلة.

٥

يترجل (سيفاد) والصبي من عربة الخيل بعد أن توقفا خارج جدران المدينة على أطراف الميناء الشرقي، يعطي الطبيب أوامره للحمالين في سرعة أن ينقلوا المتاع بحرص إلى رصيف التحميل، ويتحرك بعدها نحو الميناء يتبعه (عاند) كظله، وقد أثبت أن لديه معدة قوية بتحمله تشريح الطبيب للقلوب، بل وتنظيف ما خلفه الطبيب من فوضى.

على عكس أغلب مناطق المدينة الآن؛ كان الميناء الشرقي يضج بالحياة، ما بين الجنود والبحارة، وعاملي الميناء، الذين انهمكوا في تحميل البضائع المنطلقة إلى أنحاء المملكة، وقد بدا عليهم الإجهاد الشديد، وبدا على بعضهم آثار الخمر؛ فلم يمنعهم دوامهم الليلي من الاستمتاع ببعض الكؤوس في ليلة اكتمال القمرين على ما يبدو.

كان الدوام الليلي يقتصر في العادة على بعض أعمال الحراسة، وإنهاء الصفقات التي لا تصلح أن تنكشف تحت عين الشمس.

كل ذلك تغير مع إغلاق الميناء الشمالي؛ فسفن الصيد لا تنطلق إلا صباحًا، وسفن التُجَّار تدخل حوض الميناء فقط في المساء.

كان الميناء الشرقي أصغر حجمًا من نظيره الشمالي، ولكنه يظل ميناءً ضخمًا كان في يوم الميناء الوحيد للمملكة قبل بناء الميناء الشمالي، وموانئ (جزر السجراء) الجنوبية.

لكن نظرة واحدة عليه الآن تدرك معها أنه لا يصلح أن يكون الميناء الأوحد لتعداد سفن اليوم.

في الأفق يمكن رؤية ضوء الفنار يكشف سواري الأسطول مصطفة في عمق بحر (السجراء)، وخارج حوض الميناء على الجانبين يمكنك رؤية كتلة متلاحمة تكتشف ببعض التدقيق أنها مراكب الصيد تتراقص في عنف مع الأمواج والمد العالي، يبقى بعض الصيادين على متن تلك السفن بالليل حتى خروج السفن التجارية قبل أنوار الصباح.

يجلس مراقب الميناء على طاولة خشبية صغيرة مزينة بالخدوش والشقوق، وقد غطى وجهه بوشاح يقيه رياح (السجراء) الباردة، ورذاذ الأمواج العالية، وأمامه عددٌ من الدفاتر، أحدها مفتوح يخط به بتكاسل محاولا ألا يغفل نائمًا.

يعلو صوت الجنود الذين افترشوا الرصيف الخشبي جانبه منهمكين في حديث مشتعل عن مشاهدات لغيلان عند البوابات الشمالية.

يتوقف حديث الجنود، ثم يهبون واقفين مع اقتراب الطبيب بزيه المهيب، وقناعه المشؤوم.

يتجاهلهم (سيفاد) مواجها المراقب الذي لم يستوعب سبب سكون

الأصوات من حوله فجأة.

- أيٍ من تلك السفن يتجه لخليج (سيجول)؟

يخرج صوت (سيفاد) من تحت القناع، برنينٍ مميز، يجفل له المراقب... تمر عدة ثوانٍ، يُحاول أن يتأكد فيها المُراقب أنه لا يحلم بما يحدث الآن، وما أن يُدرك أن الطبيب أمامه بالفعل حتى يُزيح الوشاح من على وجهه، تاركًا للهواء البارد ورذاذ الماء المالح مهمة إزاحة دفء الكسل عن وجهه.

تمر عدة ثوانٍ أخرى قبل أن يبدأ في مطالعة الدفتر المفتوح أمامه؛ تاليًا في عقله كل الصلوات التي يعرفها بألا تنتهي الليلة بأمر لإغلاق هذا الميناء أيضًا، وحولهم بدأ عمال الميناء في إبطاء خطواتهم، متأملين الطبيب بشيء من الحذر؛ وقد بدا أنهم يشاركون مراقب الميناء الصلوات نفسها.

يرفع المراقب وجهه من الدفتر أخيرًا، وقد أزاح البرد من وجنتيه كل آثار الدم:

- يوجد سفينتا ركاب سوف يمران بخليج «سِيجُول» في طريقهم لـ(تشو)، وغليون تجاري سوف يرسو في (ثول).

- متى سينطلق الغليون؟

نظرة أخرى على الدفتر، قبل أن يجيب المراقب:

- ساعتين على الأكثر.

- ومن صاحب الغليون؟

- (هِيْشَا دِيلِرَث).

- خذني إليه.

يهب المراقب واقفًا في سرعة، مغلقًا دفاتره، متقدمًا الطريق، وقبل أن يتبعه يُخرج (سيفاد) الرسالة المختومة ليناولها لأحد الجنود المتابعين، قائلًا بلهجة آمرة:

- تُسلم إلى يد واحد من كهنة النار، ولا أحد سواهم.

يتحرك الجندي في سرعة منفذًا أوامر الطبيب، بينما تابع (سيفاد) طريقه خلف مراقب الميناء، وفي أثره الصبي الصغير.

وصل المراقب إلى منتصف رصيف الميناء أمام غليون ضخم، مشيرًا إلى رجل شائب الرأس، يرتدي معطفًا جلديًّا طويلًا بني اللون، زينت أكمامه بأزرار ذهبية، وحذاءً عال الرقبة يماثله في اللون، وقد زين نعله ومقدمته بالفضة، بينما وجهه غُطي بوشاح من الصوف يقيه البرد.

- ها هو...

تقدم الطبيب منه، فالتفت (هِيشا) نحو الطبيب متسائلًا وقد اتسعت حدقتا عينيه:

- أوصل الوباء إلى هنا أيضًا؟

يتساءل في فزع واضعًا كلتا يديه فوق وشاحه، وكأن ذلك سيقيه الوباء.

أجاب الطبيب في لهجة آمرة:

- لا.. أرغب بأن تقلني إلى (ثول).

أزاح مالك الغليون الوشاح عن وجهه كاشفا عن شارب كث،

قائـلًا بلهجـة حـذرة محـاولا ألا يتفـوه بـما يسـبب غضـب الطبيـب والملـك بالتبعيـة:

- سـيدي الطبيـب تلـك مركـب تجاريـة، لا يوجـد بهـا مـكان يليـق بمسـافر عظيـم الشـأن مثلـك.

يشـيح الطبيـب بيـده لمراقـب الميناء أن يرحـل، فيهـرع عائـدًا لطاولتـه بينـما يتأمـل (سـيفاد) ملابـس التاجـر مليـا مـن وراء القنـاع ثـم يقـول:

- ما يليق بك يا سيد (هيشا) سيكون مناسبا لي.

قبـل أن يفهـم (هيشـا) مقصـد الطبيـب، أخـرج مـن جيبـه كريسـتالة لهـب متوسـطة مكمـلًا:

- سآخذ قمرتك مقابل كريستالة اللهب هذه.

مـا أن رأى «هيشـا» كريسـتالة اللهـب حتـى انتفـض كالملـدوغ واضعًـا يـده عـلى يـد الطبيـب ليخفـي الكريسـتالة، وهـو ينظـر حولـه في توجـس قائـلًا:

- لا.. لا.. لا... لا يمكنك ركوب البحر بتلك الكريستالة الملعونة.

ثـم يسـتوعب مـع مـن يتحـدث؛ فيبتلـع لسـانه عـلى الفـور، سـاحبًا يـده، ولكـن واضعًـا جسـده كحاجـز يمنـع البحـارة مـن رؤيـة مـا في يـد الطبيـب، قائـلًا بصـوتٍ مرتجـف وحلـقٍ جـاف:

- سـيدي الطبيـب إن لأهـل البحـر .... آآ ... آآآ ... خرافاتهـم؛ فمنـذ أن عرفـت (زراد) كريسـتالات اللهـب ولم تصـل أي سـفينة حملت كريسـتالة لهـب لوجهتها.

ينظر (سيفاد) لكريستالة اللهب في يده في عدم تصديق قائلًا:

- يقضي البعض سنواتٍ من عمره من أجل كريستالة كتلك.

- صدقني أنا أعلم هذا يا سيدي، وإن قلبي لينفطر وأنا أرد تلك الكريستالة، لكن حتى أنا لا أجرؤ أن أطأ غليوني وفي جيبي كريستالة لهب. سيفتك بي البحَّارة في الحال لو شكّوا بوجودها معي.

يضع الطبيب الكريستالة في جيبه مخرجًا حافظتي كريستالات متخمة، يفتح واحدة ليُرِي التاجر ما بداخلها.

كاد الطبيب أن يرى لعاب التاجر يسيل، وقد راح عن باله كل خوف، وبقي فقط بريق الكريستالات في عينيه.

- مئتا كريستالة فارغة، من أجل قمرتك إذن.

يختطف (هيشا) الحافظتين، واضعًا إياهما في جيب معطفه الداخلي، قبل أن يقول:

- بالتأكيد، سوف أفرغ القمرة من كل أشيائي في الحال.

يستدير الطبيب متجهًا للغليون، لكن «هيشا» يستوقفه قائلًا بحرج:

- آاااه.. سيدي الطبيب.. ما تزال تحمل كريستالة لهب.

يخرج الطبيب كريستالة اللهب التي وضعها بجيبه في نفاذ صبر، ثم يلقيها ما بين فراغات خشب رصيف الميناء لتغطس في الماء وتختفي.

تتعلق نظرات (هيشا) بالكريستالة الثمينة التي ابتلعتها الماء، غير مصدق ما فعله الطبيب، حتى يأتي صوت الطبيب قائلًا:

- أمتعتي عند مدخل الميناء.

ينـادي (هيشـا) عـلى بعـض عمالـه كـي ينقلـوا حقائـب الطبيـب، ثـم ينظـر إلى الصبـي الصغـير الـذي وقـف خلـف الطبيـب ينظـر إلى الميـاه بتوتـر شـديد.

- أهو خادمك؟ بإمكانه البقاء في الطابق الأول مع العمال، و...

يقاطعه الطبيب:

- لا حاجة لذلك.. سوف يبقى معي.

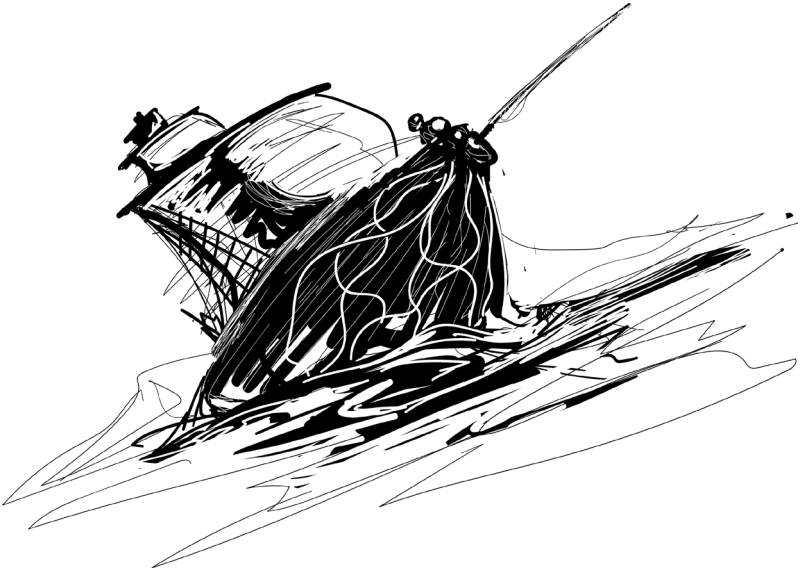

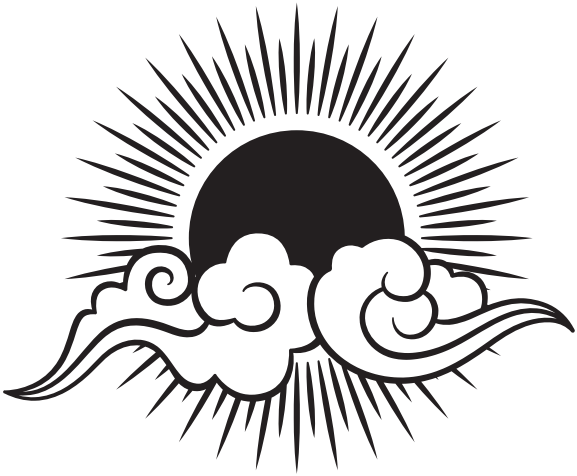

الفصل الثاني

١

– فيدا (هينادا)، لورد (آروين) نيزاد) في انتظارك.

أشارت الفيدا بيدها للوصيفة التي أبلغتها بوصول اللورد لترحل دون أن تستدير من أمام المرآة.

أومأت الوصيفة برأسها وخرجت في الحال، تاركة الفيدا وحدها مرة أخرى في بهو القصر.

للحظات ظلت (هينادا) تتأمل بعينيها المدهامتان بشرتها الشاحبة، وشعرها البني المجعد المعقوف في كعكة كبيرة فوق رأسها وقد زُين بدبوس شعر ذهبي بهت عليه شعار عائلة (بونيوم) البارز.

نظر أخيرة على فستانها الذي يماثل لون عينيها، ثم توجهت لغرفة الاستقبال ليقف ضيفها على الفور مصافحا إياها بحرارة بكلتا يديه قائلًا:

– تعازي الحارة (هيـــ...) آآآ أقصد فيدا (بونيوم)، انفطرت أفئدة أهل (ثيام) حزنًا على رحيل اللورد (بونيوم).

هـزت الفيـدا رأسـها امتنانـا، وأشـارت للـورد بالجلـوس لكنـه انتظـر حتـى تجلـس هـي أولًا قبـل أن يتخـذ مقعـده أمامهـا.

- لا حاجـة للألقـاب يـا (آرويـن) ونحـن لحالنـا، إلا إذا كنـت تحبـذ أن أخاطبـك بلـورد (نيـزاد)؟

قالتهـا (هينـادا) بصوتهـا الدافـئ موجهـة لـه بسـمة تـودد قلـة حظـوا بهـا مـن قبلـه.

أضاعـت عيناهـا وبسـمتها حضـور ذهنـه. للحظـة صمـت، قبـل أن يـدرك أنهـا تنتظـر ردًا منـه فـيرد في سرعـة مرتبـكًا:

- نعم بالتأكيد... أقصد لا... لا حاجة للألقاب بيننا.

لحظـات صمـت مربكـة لـ(آرويـن) لا ترفـع فيهـا (هينـادا) عينيهـا مـن عليـه ولا تختلـج ملامحهـا.

يفكـر (آرويـن) بسـؤال (هينـادا) مبـاشرة عـن سـبب طلبهـا لـه، لكـن لمـاذا يفعـل ذلـك؟

لمـا يختـزل لحظـات الصمـت وإن كانـت مربكـة، وخلجاتـه تشـتاق لحـضرة جوهـرة (ثيـام) ذات العيـون الزمرديـة؟

ليصمت إذن، فالصمت خيرا لقلبه.

إلا أن اللحظـات طالـت، ونسـائم صبـاح (ثيـام) قـد صدهـا ثقـل الصمـت؛ لا فـرار مـن إلقـاء طـرف الحديـث.

- علام نويتِ بعد انتهاء الحداد؟

تلاشت البسمة التي على وجه (هينادا) وهي تجيب:

- نويت العودة.

في عدم فهم تساءل:

- العودة إلى أين؟

- العودة إلى موطننا.

طالت أمارات عدم الاستيعاب على وجه (آروين) فتقدمت (هينادا) بجذعها للأمام قائلة وكأنما تلقنه:

- (زراد).

مأخوذًا وهو يحاول رسم بسمة على شفتيه غير متأكدًا من جدية الفيدا:

- أترغبين بزيارة (زراد)؟

- لم أقل ذلك.. أريد العودة.

- العودة إلى أين؟

يقولها هذه المرة بشيء من العصبية، ثم يكمل مقاطعًا إجابة قد همت بقولها (هينادا):

- أعني العودة لماذا بالضبط؟.. دعكِ من إمكانية حدوث ذلك، ترغبين في العيش وسط الملاعين؟!

انتظرت (هينادا) للحظة لتتأكد من عدم مقاطعته لها مرة أخرى قبل أن تقول: لم يكونوا ملاعينًا حين حكمنا (زراد)...

- حين حكم النبلاء (زراد) كنا أطفالًا، (ثيام) هي وطننا الآن، وطن النبلاء حيث أموالهم وخدمهم.

ردت في تهكم:

– تتحدث بكلمات سمعتها من أبي من قبل، أهناك كُتيب يوزع على النبلاء به تلك القوانين؟!

تجاهل (آرويـن) تهكمها متناولًا كوبًا من الماء البارد الذي وُضِعَ أمامه متجرعًا إياه، مبتلعًا كلمات تسوء الفيدا كادت تفلت منه.

– (هينادا) إنَّ وفاة والدك لا تعني نهاية عائلة (بونيوم) في (ثيام). الأيام الماضية فضلنا أن نعطيكِ مساحة للحداد، لكننا هنا من أجلك.

– أنت تسيئ فهم الوضع؛ قراري ليس عاطفيًّا بأي شكل. النبلاء يحتاجون إلى أن يعودوا إلى (زراد).

وأشارت له بيدها قبل أن يقاطعها، ثم أخذت نفسًا طويلًا، أعقبته بقول: أموال النبلاء التي تتحدث عنها هي نقطة في بحر أخلفناه وراءنا في (زراد)، ويقتلني غيظًا أن تلك الثروات لم يحاول الملاعين حتى استخدامها؛ بل صك لهم كهنة النار عملة جديدة.

رغمًا عنه يقاطعها: ذلك شيء جيد، فذلك رفع من قيمة الثروات التي خرجنا بها.

– صحيح، في العشرين سنة التي مضت، لكن هل فكر أحدكم في المستقبل؟ نحن لم نترك ثرواتنا؛ لقد تركنا إلهنا أيضًا.. كاتدرائية القمر التي بذل النبلاء قرونًا لتكون مقصدًا دون سواها لكل المؤمنين في قبضة الملاعين. يأتيها الحجاج من كل صوب.

– لم أكن أظنك بذلك التدين يا فيدا.

– أنت لا تسمعني.. في البدء كان فقراء (الطهباء) هم من يذهبون للتبرك في الكاتدرائية، لكن الأمر اختلف؛ مع تشتت النبلاء في البلاد

انتشرت عبادة القمر في الممالك الجديدة، الآلاف.. بل مئات الآلاف الآن يقصدون (زراد) للحج، وليس الفقراء فقط، وحين يصلون إلى هناك فنقودهم بلا قيمة؛ فيغرقون الملاعين بالبضائع أو يستخدمون تلك الكريستالات.. الكريستالات أصبحت في كل بقعة يتواجد بها المؤمنون، حتى وصيفتي صارت تسألني إن كانت تستطيع الحصول على أجرها كريستالات لأنها تنوي زيارة الكاتدرائية.

أتبعت ذلك بنظرة لـ(آروين) لتتأكد من أنه فهم ما تريد إيضاحه.

احتاج اللورد إلى عدة ثوانٍ قبل أن يهبط عليه الفهم فجأة:

– اللعنة.. أولئك الأوغاد سيقتلون قيمة الليرات.

تسلم ظهرها للأريكة المخملية، وهي تؤمن على كلماته:

– كبداية نعم.. إن وجود (زراد) بجيشها تحت إمرة الملك السجين قد قتل تجارتنا بشكل كبير في كل الجزر الشمالية، وتوسُعنا فيما خلف الوادي. إن عودتنا إلى (زراد) هي استمرارية لوجود النبلاء.

ساد الصمت مرة أخرى قبل أن يسأل اللورد:

– هل ناقشتِ أباك في ذلك الأمر من قبل؟

– بالتأكيد.

أجابت باقتضاب، لم تكن إجابة كافية كما ظهر من تعابير (آروين)، لتُطلق زفيرًا قصيرًا قبل أن توضح:

– أبي كان يعتقد أن زواجي من عائلة ملكية سواء في (ثيام) أو أي مملكة أخرى سيضمن لعائلتنا البقاء في وضع مالي مناسب؛ أن أحيا وأموت كـ(فيدا)، الأوضاع السياسية واستمرارية النبلاء أو اندثارهم

لم يكــن مــن اهتماماتــه؛ فأنــا آخــر فيــدا في العائلــة ولا أملــك أخــوة يورثــون اســم (بونيــوم).

بدت لمحة من الامتعاض على وجه اللورد لكنه سرعان ما أخفاها.

– حديثك به الكثير من المنطق، لكن ما الذي يمكننا القيام به؟

اتسـعت بسـمة الفيـدا مـع سـؤال (آرويـن) وقـد وضـع كليهـما في جانـب واحد في سـؤاله:

– يمكننا عمل الكثير...

٢

أفـرغ التاجـر صرتـين مـن الكريسـتالات عـلى منضـدة الصفريـات أمـام زبونـه، وبسرعـة خبـير يمـرر الكريسـتالات عـلى الدوائـر الثـلاث المحفـورة عليهـا مُحَـدِّدًا قيمـة كل واحـدة حسـب أي مـن الدوائر تناسـب حجمهـا، ومزيحًـا مـن عـلى المنضـدة لدلـو خشـبي كل جـزء قـل حجمـه عـن الدائـرة الصغـرى.

كانـت تلـك المناضـد ضروريـة لتحديـد قيمـة كل قطعـة كريسـتال متداولـة طالمـا خلـت مـن قلبهـا النـاري أو أي قلـب آخـر. فكريسـتالات اللهـب يوجـد مثلهـا كريسـتالات أخـرى يختلـف لـون قلبهـا، وبنـاءً عـلى الأسـاطير القادمـة مـن الممالـك القديمـة؛ فـإن مـا يوجـد بقلـب تلـك الكريسـتالات كلهـب أو غـيره مـا هـو إلا دمـاء قـد نزفتهـا الآلهـة المتصارعـة بعـد أن حطـت في الممالـك الجديـدة هاربـة مـن الممالـك القديمـة لسـبب مـا. فبحسـب أسـاطيرهم أنـه حـين ينـزف الإلـه تتكـون تلـك الكريسـتالات حـول دمائـه.

يهز الزبون رأسه في رضا على تقييم التاجر لكريستالاته، ويتحرك من أمام منضدة التاجر ليبدأ في اختيار احتياجه من البضائع المرصوصة، ليظهر (خاشيد) واقفًا في صبر خلفه بلحيته الشعثاء، ومقلتيه الحمراوين. ما إن ينتبه التاجر له حتى يقف سريعًا متوجهًا للزبون دون أن يهمل حفنة الكريستالات التي أعاد رصها بعد تحديد قيمتها في جراب جلدي خاص بها.

يهمس التاجر للزبون بصوت خفيض:

- ربما يمكنك أن تجد مجموعة أكبر من البضائع بالمخزن. مدخل المخزن من الحانوت المجاور.

يخبره بذلك وهو يوجهه للباب، وداسًا في يده الجراب الجلدي. وما أن يخطو خارج الحانوت حتى يسكر وراءه ضلفتي الباب، ويعود لـ(خاشيد) الذي لم يلتفت حتى من موقعه أمام المنضدة.

يعود التاجر للجلوس خلف المنضدة شابكًا أصابعه وهو يتكئ فوقها.

- ما الذي يحدث يا (خاشيد)؟

تأتي كلمات (خاشيد) محملة برياح من الدُخن، وثِقَل لسان من أثَره:

- الذي يحدث هو أنك تتحدث، ولا أرى كريستالاتي تملأ الدوائر التي أمامك.

في عصبية يرد التاجر:

- عن أي كريستالات تتحدث وأنت لم تنفذ مهمتك بالأمس!

- رأس ذلك المغبون معلقة على بوابة القصر الخارجية.

- وماذا؟ هل تعتقد أنني سأصدق أنك قطعت رأسه ووضعتها هناك؟!

ينظر (خاشيد) حوله للحظة، ثم ينظر للتاجر، ثم يسأله بحيرة:

- لحظة! ما الذي نفعله الآن؟ اتفاقنا كان على ثمن الروح، والآن لديك مشكلة في طريقة تخليصي لتلك الروح! إذا أردت أن يتم الأمر بطريقة محددة كان عليك أن تكون واضحًا منذ البداية، ولكن يمكننا الوصول إلى تسوية.

ينظر له التاجر في دهشة منتظرًا منه التوضيح؛ ليُكمل (خاشيد) وقد اختفى أي أثر من ثِقَل اللسان في كلماته وهو يقول:

- يمكننا نسيان ثمن تلك الروح، وكهدية مني لن أحاسب الورثة على ثمن الروح الثانية.

- أي روح ثانية وأي ور ...

يستوعب في لحظتها التاجر ما قصده (خاشيد) ليحتقن وجهه، ويخرج حافظتين من الجلد المزخرف ليضعهما أمامه على المائدة.

- بحق الخسوف يا (خاشيد).. لست أحاول الحنث بالعقد.

يتناول (خاشيد) الحافظتين الجلديتين ليشعر مطمئنًا بثقلهما ويقول:

- أنا متأكد من ذلك يا (حارد) بالرغم من أن ذلك تعاملنا الأول إلا أن هناك شيء بشأنك يعطيني الشعور بالثقة.

يتأمل التاجر وجهه للحظة، متفحصًا إياه محاولًا أن يستشف إذا كان يمزح قبل أن يقول:

– (حارد) من؟ أنا (صاريف)، ونحن نعمل سويًّا منذ سنوات! لم أكن أعرف أنك تنفذ عقودًا لشخص آخر!

يسكت للحظة والاندهاش ما يزال جليا على وجهه ثم يكرر:

– (حارد) من؟

يلقي (خاشيد) نظرة سريعة داخل الحافظتين متجاهلا كلمات التاجر، قبل أن يعود لينظر للتاجر متفرسا في ملامحه وكأنما يريد التأكد من صدق كلماته، يطلق (صاريف) تنهيدة فقدان أمل قبل أن يقول:

– حسنًا.. هذا ليس مهمًا الآن، المشكلة ليست في أنك لم تقتله بنفسك، الآن صاحب العقد الأصلي يريد لقاءك.

– ذلك ليس جزءًا من الاتفاق. ولا أعتقد أن شيئًا كذلك يناسبك، ففي النهاية مكسبك بالكامل من كونك وسيط، إذا بدأت في التعامل مباشرةً مع أصحاب العقود؛ اشرح لي ماذا سيكون دورك بالضبط؟

– (خاشيد) أريدك أن تفهم أننا نواجه عددًا من التعقيدات، وأحتاج مساعدتك حتى ننهي أي أمور عالقة تخص ذلك العقد.

متململا وهو يعبث في لحيته يقول (خاشيد):

– ذلك أول تعاقد بيننا، وتتحدث عن حالة خاصة.. ليست بداية جيدة.

يكاد (صاريف) أن يقول شيئًا ما، لكنه يهز رأسه في استسلام مبتلعا صرخة حنق، ليخرج حافظتي جلد مماثلتين لما قدمه لـ(خاشيد) منذ قليل، ويضعهما فوق المنضدة.

– في تلك الحافظتين أجر يماثل ثمن الروح، كل ما أطلبه منك الآن هو لقاء مع صاحب العقد فقط أرجوك.

لا يأخذ (خاشيد) أكثر من لحظات قبل أن يحسم أمره داسًا الحافظتين في ثنايا ملابسه.

– متى وأين سيكون ذلك اللقاء.

– هو ينتظر بالفعل في الغرفة الخلفية.

بدهشة:

– وماذا لو لم أوافق؟

يرد (صاريف):

– كنت على ثقة أننا سنتوصل إلى حلٍ يرضيك.

قالها وهو يخرج أربع حافظات مماثلات من خلف الطاولة ليدسها في جيبه متجهًا للباب الخلفي للحانوت.

يبتسم (خاشيد) وهو يتمتم:

– يبدو أنني سهل الإرضاء.

يدلف (صاريف) وفي أثره (خاشيد) الذي لا يزال مبتسمًا إلى الغرفة الخلفية للحانوت. ورغم الباب الخشبي المتواضع المتهالك الذي عبرا من خلاله، والرواق القصير ذي الأرض الحجرية المبللة بالقليل من المياه، المتعفن من الرطوبة؛ إلا أن هذا لا يشي بالباب الحديدي المصفح الموجود في نهايته.

يدفع (صاريف) الباب لينفرج سامحًا له بالكاد بالولوج، بينما في أعقابه يتبعه (خاشيد) للغرفة الخلفية.

يمسح (خاشيد) الغرفة بنظره، الفتحات المحفورة في الجدران، التي عُلقت فيها المصابيح الزيتية وأركان الغرفة التي وضعت فيها قوالب من الفحم.

كانت الحجرة متوسطة الحجم، ممتلئة بالخِزانات الخشبية، وتتوسطها منضدة محاطة بعدد من المقاعد الخشبية على واحد منها جلس صاحب العقد.

احتاج (خاشيد) للحظة كي يستوعب هوية الشاب الجالس أمامه.

- بحق الخسوف! (ساليك)! أأنت صاحب العقد؟

بابتسامة واسعة على وجه (ساليك)، وذراعين مفتوحين قال:

- يمكنك أن تتفهم توتري أيها القائد من أن آخر كلمات على لسان «نبيل ثيام» قبل أن يصطحبوه لقطع رأسه كانت ادعاءه أنه يعرفني!

رعشة ظاهرة اجتاحت جسد (خاشيد) عند مناداة (ساليك) له بالقائد، ولكنها انجلت سريعًا وهو يتخذ مقعدًا خشبيًا مواجها لـ(ساليك)، ثم قال بصوت لا يخلو من المرح لـ(صاريف):

- أرجو أن يكون لديك بعضٌ من الشراب.

هز (صاريف) رأسه وهو متجهٌ نحو الخارج، وهو يقول :

- سأحضره على الفور.

وقد ظهرت على وجهه علامات الارتياح كونه لن يصير جزءًا من ذلك الحوار.

ما إن خرج (صاريف) من الغرفة حتى قال (ساليك):

- لا أمانع حقًا في أسلوبك الفريد في تنفيذ عقودك، من الجيد أن تأتي

نهايتهم على شكل حوادث مؤسفة، ولكن المشكلة تلك المرة...

يقاطعه (خاشيد) قائلًا:

- أنني دون علم أعطيت اسم صاحب العقد للضحية.

قالها ثم صمت للحظات قبل أن ينفجر ضاحكًا ضحكة مجلجلة شاركه فيها (ساليك)، واستمرت الضحكات حتى دمعت عيونهما.

بعد أن هدأت الضحكات تساءل (ساليك) محاولًا استجماع أنفاسه من الضحك:

- هل كانت حقًا دون علم يا قائد؟

ومضة غضب سريعة أخفاها (خاشيد) جيدًا تلك المرة مع سماعه لقب «قائد» مرة أخرى.

- وكيف لي أن أعرف أنه كان عقدك؟!

- كل ما أقوله يا ... (خاشيد) أنك كنت مهتمًا كثيرًا بسبب زيارة ذلك النبيل، ومن أين أتى. شخص في حصافتك وفراستك ربما استطاع ربط أن العقد كان لي.

- لا، كما سيقول لك (حيف).. فأنا أفترض أن (حيف) هو من أخبرك بذلك، فلم يكن هناك غيرنا في الحانة في ذلك الوقت.

لم يظهر على وجه (ساليك) أي نية للرد على سؤال (خاشيد) فأكمل:

- كنت أحاول كسب ثقته، ثم لو أردت توجيه أي سؤال لك فإني أعرف أين أجدك على عكس جنود الملك.

رفع (ساليك) يده متسائلًا:

– الآن لا أستطيع تحديد إذا كنت تحاول تهديدي أم طمأنتي أنك تعرف مخابئي وجنود الملك مازالوا لا يعرفون.

– لا هذا ولا ذاك. ما أقوله هو ما حدث.. سوء حظ أصابك أو سوء تقدير أصابني، لكن في النهاية؛ فأنا أدين لك باعتذار.

– أنت تدين لي بأكثر من ذلك.

صدرت تلك الكلمات وكأنها بلسان آخر، غير ذلك الشاب المرح ذي الملابس الفضفاضة المهترئة الجالس أمام (خاشيد). جاءت كحقيقة وقدر لا مفر منه، جاءت كوعد حق، وساد الصمت بعدها لم يحطمه سوى دخول (صاريف) بكوبين من «الميد»، وضعهما أمامهما، ليرفع (ساليك) كوبه أولًا محييًا (خاشيد) وتبعه (خاشيد) بأن تجرع كوبه في رشفة واحدة.

سأل (صاريف) وعيناه حائرتان بينهما:

– أيها السادة.. هل توصلنا لأي اتفاق؟

نظر (خاشيد) لـ(ساليك) قائلًا:

– هل توصلنا لأي شيء؟

هز (ساليك) رأسه قائلًا وقد عادت لهجة المرح إلى صوته:

– نعم يا عزيزي (صاريف) لقد توصلنا إلى أن (خاشيد) يدين لي بعقد جديد، ولكنه سيكون مختلفًا بعض الشيء عن العقد السابق، ويحتاج إلى سرعة في التنفيذ.

٣

التف الكهنة راكعين حول دائرة من الرماد مصلين مبتهلين لهيكل النار في وسط ساحة القلعة الملكية بـ(زراد).

تشق (ميرا) طريقًا وسط الراكعين حتى تصل إلى دائرة الرماد؛ لتقبض على حفنة من الرماد الملتهب بيمناها، وتعود لتأخذ مكانها راكعة وسط الصفوف، واضعة يدها المضمومة قبالة فؤادها.

يدور كاهنان حول دائرة الصلاة يتلوان صلوات النار بصوتٍ عالٍ:

- «تطهر جروحنا وتحرق الأعداء، تضيء طريق العارفين، وتغشي بصيرة المنكرين»...

بجوار (ميرا) يركع كاهن صغير السن على وجهه تظهر علامات الألم، وقبضته ترتجف من التهاب الرماد فيها، مع ارتجافاته تتساقط حبات الرماد من قبضته المرتعشة.

- «فإن ربنا نارٌ مستعرة»...

تمـد (مـيرا) يسراهـا دون أن تلتفـت لتقبـض عـلى يـد الكاهـن الصغـير لتحكـم قبضتـه عـلى الرمـاد

وتضغطهـا عـلى صـدره، ينتفـض الكاهـن الصغـير متفاجئًـا بفعـل (ميرا) لكنـه لا يجـرؤ عـلى الاعـتراض، ولا يملـك سـوى أن تسـيل دمـوع ألم صامتـة عـلى جانبـي وجهـه، والكاهنـان مسـتمران بالصلـوات.

- «وإن انتهينا رمادًا؛ فمن الرماد نولد من جديد».

يقولهـا الكاهنـان معًـا ويلقيـان في اللحظـة نفسـها بكريسـتالتي لهـب في دائـرة الرمـاد تعيـد الرمـاد نـارًا، ومعهـا يبسـط الكهنـة قبضاتهـم تاركـين الرمـاد، ويرفعـون كفوفهـم الموشـومة عاليًـا طالبـين بركـة النـيران.

تبسـط معهـم (مـيرا) يمناهـا، وتُحـرر يسراهـا يـد الكاهـن بجوارهـا ليتخلـص أخـيرًا مـن الرمـاد الحـارق، ويرفـع يـده المرتعشـة التـي لم توشـم بعـد مـع المتباركـين.

تنهـي (مـيرا) صلاتهـا، وتلمـح بطـرف عينيهـا الكاهـن الصغير يتحاشـى النظـر ناحيتهـا خجـلًا، لا تلقـي لـه بـالًا، وتهـم بالخـروج من السـاحة.

- (ميرا)..

صـوت أجـش يسـتوقفها مناديًـا، تلتفـت لتجـد المنـادي واحـد مـن الكاهنـين الذيـن قـادا الصـلاة.

- (الآركون) يطلب حضورك يا بنيتي.

تقف متسمرة للحظات غير واثقة أن الكاهن العجوز يقصدها هي.

- ستجدينه بالمنجم الآن.

يقولهـا الكاهـن ولا يتوقـف ليتلقـى تسـاؤلا لم يصـل لشـفتيها متجهًـا

نحـو الهيـكل.

لا تـتردد (مـيرا) أكثـر مـن ذلـك متجهـة لبوابـة المنجـم، ومـع كل خطـوة تـزداد ثقـة أن الكاهـن العجـوز لم يسـمع الاسـم جيـدًا، وأن (الآركـون) لم يطلبهـا بالتأكيـد.

منجـم الكهنـة كان جـزءًا مـن سلسـلة كهـوف متشـعبة تحـت أرض (زراد)، أُطلـق عليهـا قديـما «متاهـات الحمـم».

يُمكـن لـ(مـيرا) أن تفهـم سـبب تلـك التسـمية وهـي في طريقهـا لغرفـة ا(لآركـون) وضي الكريسـتالات يشـع مـن كل شـقوق جـدران الكهـف كنهـر مـن الحمـم الملتهبـة، لـو صدقـت الأسـاطير فـإن الآلاف مـن تلـك الكريسـتالات تعنـي أن إلـه النـار قـد نـزف هنـا كـما لم ينـزف مـن قبـل.

في الغرفـة التـي حُفـرت كتجويـف بجانـب هـوة كبـيرة هـي منطقـة التنجيـم الأساسـية في الوقـت الحـالي، جلـس (الآركـون) بردائـه الشـعائري الذهبـي منهمـكًا في مراجعـة دفـترٍ عتيـقٍ.

تـرددت (مـيرا)؛ فهـل مـن المناسـب قطـع أفـكار (الآركـون)؟ أم عليهـا الانتظـار حتـى يلحـظ وجودهـا؟

جـاء صـوت (الآركـون) دون أن يرفـع عينيـه عـن الدفـتر الـذي أمامـه مزيـلًا حيرتهـا:

- (ميرا).. فلتجلسي للحظات حتى أنهي مراجعتي.

يبـدو أنـه يريدهـا هـي بالفعـل. تطلعـت للغرفـة مـن حولهـا باحثـة عـن مـكان للجلـوس. الغرفـة كانـت عبـارة عـن أكـوام مـن الدفاتـر المتراصـة وبعـض الكتـب، والمقعـد الوحيـد الـذي تسـتطيع أن تـراه كان يشـغله (الآركـون) بالفعـل!

محاولــة ألا تُســبب إزعاجًــا لــه، تصنعــت الاهتــمام بأحــد الكُتــب الموجــودة بأحــد أركان الغرفــة. وبالطبــع كان الكتــاب الوحيــد الــذي اختارتــه مكتوبًــا برمــوز لا تســتطيع فهمهــا.

- ذلك الكتاب كُتب بالـ(رلاشيان القديمة).

رفعــت (مــيرا) عينيهــا مــن عــلى الكتــاب لتواجــه عينــا (الآركــون) الــذي يبــدو أنــه قــد أنهــى مراجعتــه للدفاتــر، واســترخى عــلى مقعــده، شــابكًا أصابعــه ناظــرًا لهــا وعلــت وجهــه بســمة خفيفــة.

أعــادت (مــيرا) الكتــاب في سرعــة لمكانــه أعــلى كومــة الكتــب، ووقفــت منتبهــة في مواجهــة (الآركــون) محاولــة ألا تُظهــر توترهــا.

- هل تعرفين أي ألسنة غير (الداز)؟

- لا...آه... لسان النار فقط للصلاة.

هز رأسه في تفهم قائلًا:

- بالتأكيــد.. فقــط حامــلي الرســالة مــن الكهــان يتوجــب عليهــم إتقــان أكثــر مــن لســان تلــك الأيــام.

لم تجــد (مــيرا) أي كلــمات تعقــب بهــا عــلى حديثــه فأومــأت برأســها في صمــت مصدقــة عــلى قولــه.

أكمل (الآركون) حديثه بعد لحظات:

- تلــك أكــبر مشــاكل جيلكــم الــذي ولــد وعــاش داخــل أســوار (زراد)، تســتخدمون لســان النــار في الصلــوات فقــط، ودون ذلــك تتحدثــون فيــما بينكــم وتفكــرون بلســان (الــداز)، وتبهــت عليكــم طبــاع المنكريــن.

قالها ويهز رأسه ثانية وكأنما يتفق مع قوله.

ازداد توتر (ميرا) مع تلك الكلمات، فلا يستدعيك (الآركون) ويتهمك بالتمثل بالمنكرين إلا إذا قمت بكارثة دون أن تدري.

نظر بعينيها مباشرة وسأل في حزم مفاجئ:

- هل تعرفين ما واجبك بالضبط أيتها الكاهنة؟

دون تردد:

- حماية الملك.

فك (الآركون) أصابعه المتشابكة وأشار لها بإصبعه:

- أترين المشكلة الآن؟ أترين كيف تلوثت أفكارك؟

لم ترَ أي شيء بالطبع؛ فقط شعرت بأحماض معدتها تتصاعد سريعًا مع شعورها أنها تزيد وضعها سوءًا دون أن تدري في الأصل صنيعتها.

- أنت لست من الملاعين، وليس لذلك العبد السجين سلطان عليك، واجبك هو حراسة سجين وليس حماية ملك.

جاءت كلمات (الآركون) حادة ومؤلمة لـ(ميرا)، لم تكن (ميرا) تطيق أن يدعو أحدهم الملك بأنه عبد.

فهو حاكم تلك المملكة وكل ما كان قبل ثورة النور هو ماضٍ لا مكان له في هذا الحاضر، هو ملك (زراد) وشعبه الملاعين، وانتزاعه العرش من النبلاء هو أفضل ما حدث لـ(زراد) ولكهنة النار ذاتهم.

ذلك المنجم الذي تُحاضر فيه الآن من قبل (الآركون) لم يكن للكهنة أن يخطوه يومًا لولا الملك.

لطالما تشاءم النبلاء من تلك الكهوف؛ فهي كانت المصدر الوحيد المعروف لكريستالات اللهب. ونصوص رهبان القمر تحكي أن ذلك اللهب كان سبب رحيل الآلهة؛ ولكن تشاؤم أم لا، فذلك لم يمنع النبلاء من بيع ما كانوا يتمكنون من إخراجه من كريستالات لكهنة النار.

المشكلة كانت دائمًا أن أقل من خمسة في المائة من الكريستالات يتمكن العمال من استخراجها سليمة والأغلبية تكون مسحوق كريستال!

حاول الكهنة مرارًا أن يسمح لهم النبلاء مالكي الأراضي التي تقع تحتها الكهوف أن يقوموا باستخراج الكريستالات المقدسة بأنفسهم، مقابل آلاف الليرات، ولكن عندما حاول بعض الوسطاء تمرير ذلك الطلب للملك، رَفْضُ الملك كان قاطعًا وشديدًا، فالملك (فارين) لم يكن ليخاطر بغضب الآلهة الغائبة المتمثل في غضب كنيسة القمر لو وافق على إدخال الكهنة لأرض (زراد). وظل الكهنة تحت رحمة النبلاء وأسعارهم التي لا تتوقف عن التضخم

حتى سقطت مملكة النبلاء على يد رجلٍ واحد، أقل من رجل في عيون النبلاء وفي عيون الكهان، عبدٌ أسقط النبلاء وقتل (فارين) آخر ملوكهم.

كان صوت (الآركون) مستمرًا في تأنيبها وقد صار أقرب للصراخ:

- ذلك العبد السجين - وإن كان ملكًا على (زراد) - ما هو إلا سجين كهنة النار، وجودكم يهدف لمنعه من الهرب.

مبارزة قاتل أو عشرة، تلك أشياء لا تحرك في (ميرا) شعرة بل تشعرها بالراحة ورُبما بعض الألفة وهي تمارسها، ولكن محادثات

كتلك تُفقد (ميرا) توازنها، وتُشعرها بالتوتر.. تلك مواقف تحتاج لـ(داليف) زلق اللسان، بالتأكيد ليست لها.

لا تقفي صامتة هكذا.

– أكنت تفضل أن نسمح للمتسلل بقتله؟ آملين أن يسمح لنا النبلاء – حين يعودون – أن نحمل ولو كريستالة واحدة في طريقنا للخروج من (زراد)؟

قالتها (ميرا) بلهجة حادة وصوت حانق، قبل أن تدرك مع من تتحدث.

– ... آه... يا غبطة (الآركون).

قالت مُحاولة إضافة أي جانب من الاحترام على ما نطقته.

يرى (الآركون) متسع العينين نظرة الهلع في عيني (ميرا)، فيأخذ نفسًا عميقًا كاتمًا غضبٍ يحاول السيطرة عليه، طارقًا بأظافره على المائدة الخشبية التي أمامه بعصبية.

– (ميرا) يبدو أنك ابتعدت كثيرا ..... سأعزو طريقة حديثك معي للضربات المتكررة التي يتلقاها رأسك أثناء تدريباتك وحادث اليوم الماضي.

محدجًا إياها بنظرة نارية لتخفض (ميرا) رأسها فورًا كاتمة اعتذارًا صادقًا كادت تنطق به ليُكمل (الآركون) قائلًا:

– نحن هُنا لأنها مشيئة النار، وليس بفضل ذلك العبد.. لو مات ذلك العبد اليوم أو غدًا فذلك لن يغير شيئا من وجود كهنة النار في (زراد)؛ نحن هنا إلى أن ينتهي الوجود، تلك الكهوف، وتلك الكريستالات هو واجب مقدس تصديقًا لنبوءة محققة.

زفرة طويلة ثم يُكمل:

- يـا بنيتـي أنـا أقـدر تفانيـكِ أنـتِ وإخوتـك في السـلاح في القيـام بواجبكـم، ولكـم منـي الكثـير مـن التقديـر؛ ولكـن إحضـار المتسـلل لزنزانـة السـجين، ومسـاعدته في التحقيـق معـه ليـس جـزءًا مـن واجباتكـم. هـزي رأسـك إن كنـتِ تفهمـين ذلـك.

تتصلـب رأس (مـيرا) للحظـات، ثـم تومـئ للـ(آركـون) الـذي يستشـعر الـصراع الـذي يـدور بداخلهـا.

- لتذهبـي الآن.. حديثنـا لم ينتـهِ، ولكـن لـن يكـون عـدلًا أن نُكمـل هـذا النقـاش وكل مـا أفكـر فيـه هـو طـرُقُ تحطيـم رأسـك الصلـب.. انـصرفي الآن.

إيـماءة أخـرى سريعـة مـن (مـيرا) قبـل أن تنطلـق مهرولـة لاعنـة حماقتها، وناويـة عـلى قتـل أول شـخص يعـترض طريقهـا للفراش.

فقد آن لذلك اليوم أن ينتهي.

٤

- لورد (نيزاد)، وفيدا (بونيوم).

جاء صوتٌ منادٍ كدعوة لـ(هينادا) و(آرويـن) لدخول مجلس (غنتاق السعدبي) حاكم (الرحى).

لم تكن (الرحى) مدينة، بل عدة طرق تمتد من (ثيام) للموانئ والممالك الأخرى. فيما مضى كان تأمين جميع الطرق من واجبات ملك (زراد)، وكل الملوك منذ أن سُجِّل تاريخ (زراد) قد عهدوا بتلك المسؤولية للنبلاء الحديديين. ولكن أحدًا لم يرَ الحديديين منذ أن سقطت (زراد). فآن لنوع آخر من المرتزقة أن يظهر، وقد كان (غنتاق السعدبي).

قاطع طريق رأى أنه اكتفى من العيش في الصحراء؛ فجمع كل قطاع الطرق والهاربين من جيوش الممالك المجاورة، ونصب نفسه متحدثًا باسمهم.

وبدلًا من أن يقطعوا الطريق؛ استقروا في (ثيام)، وعقدوا العهد مع الملك على أن يسمى (غنتاق) كحاكم على الطرق المحيطة بالمملكة ويأخذ من ضرائب المدينة ما يقدره كتعريفة مرور على أرضه.

تلاشت بسمة جاهدت (هينادا) لرسمها على وجهها بمجرد دخولها المجلس؛ فهناك بجانب (غنتاق) الجالس على أريكة مُذهبة؛ غائصًا بجسده في بحر من الوسائد الوثيرة جلست وجوه تمقتها.

ثلاثة من كبار نبلاء (زراد)... شعرت بتوقف (آروين) بجانبها متفاجئًا هو الآخر بوجودهم.

رائع لم نبدأ بعد، وتلقينا أول طعنة.

حائرة من بين إعطاء ردة فعل، أو تُظهر أنها لا تُبالي، جاء صوت أكبر النبلاء الثلاثة (هاجن):

- ليس من المعتاد أن تقدم فيدا ولورد من نبلاء (زراد) على طلب مجلس خاص دون وجودنا، ولكننا نعلم أن واجبات وتقاليد منصبك الجديد كفيدا ما تزال غير واضحة لكِ؛ فقررنا أن نأتي ونعطيك كامل دعمنا في أي كانت طلباتك من حاكم (الرحى).

أنهى كلامه بنظرة لـ(آروين) تشف بوضوح أن لا نية له في دعم أي شيء.

تنهدت (هينادا) وشعرت أنها قد أضاعت الكثير من الوقت في تحضير لعبة الشطرنج الكلامي التي ستدور بينها وبين (غنتاق)، هل بالغت في تقدير طموحه الذي أوصله إلى وضعه الحالي بين الممالك؟ هل انطفأت رغبته في المزيد؟

لا... نظرة الجوع في عينيه ماتزال جلية، لقاءٌ سري بينهما سيزعج

نبـلاء (زراد)، وهـو لا يثـق بهـا أن تبقـي اللقـاء سرًا، ولا يعتقـد أن أي كان مـا سـتعرضه عليـه يسـتحق المخاطـرة.

أيا كان السبب فلا مجال للتراجع الآن.

– أريد لوائين عسكريين من رجالك.

قالتهـا ثـم سـاد الصمـت. ابتسـم أحـد النبـلاء مجاملًا ظانًـا أنهـا تمـزح، بينـما وقـف (هاجـن) في مكانـه غـير مصـدق، وبجانبهـا كانـت تشـعر أن (آرويـن) يتصبـب عرقًـا.

لم يكسر السكوت سوى صوت (غنتاق) وهو يقول:

– في البـدء هـل تتخذيـن مجلسـك يـا فيـدا.. وأنـت أيضًـا يـا لـورد؛ فذلـك ليـس مجلـس حاكـم حقيقـي.

في سرعة وثبات قالت الفيدا:

– لا.. فأنـت لسـت بحاكـم، أنـت مرتزقـة؛ وجئـت أشـتري منـك بعـض الرجـال.

كان ذلـك كفيـلًا بـأن يمـد (آرويـن) يـده ممسـكًا بيـد الفيـدا، هامسًـا في أذنهـا:

– ليـس هكـذا تُـدار الأمـور، أنـتِ لا تثيريـن غضـب النبـلاء وحدهـم الآن.

أطلق (غنتاق) زفيرًا عاليًا ثم قال:

– لا أعـرف بالضبـط مـا الـذي همـس بـه في أذنـك لـورد (نيـزاد) لكنـي أنصحـك بشـدة بـأن تسـتمعي إلى نصيحتـه.

دون أن تهتـز خلجـة مـن خلجاتهـا تقدمـت الفيـدا لتأخـذ مقعـدًا في المجلـس وتبعهـا (آرويـن)، ومـا كادت أن تتكلـم حتـى أشـار لهـا (آرويـن) أن تـترك لـه الحديـث.

بعبـارات قصـيرة نقـل (آرويـن) مخـاوف (هينـادا) للنبـلاء، الخاصـة بوضـع (زراد) الحـالي ووضـع النبـلاء المهاجريـن.

كان يتحـدث في سرعـة، وعينـاه تنتقـل بـين النبـلاء بحثـا في عيونهـم عـن تفهـم يبرئـه مـن تهمـة قـد التصقـت بـه منـذ أن تبعـت قدمـاه الفيـدا لهـذا المجلس.

- ذلك جنون.

كانـت تلـك أول جملـة تخـرج مـن فـم (هاجـن) بعـد أن أنهـى (آرويـن) حديثـه.

- فيـدا (بونيـوم)، نحـن نقـدر قلقـك عـلى مصالـح نبـلاء (زراد) ومـا ذكرتيـه بالتأكيـد يحمـل قـدرا مـن الخطـورة، لكـن دعينـي أؤكـد لـك أننـا عـلى كامـل درايـة بـ...

توقفـت عـن سـماع مـا يقـال، بالنسـبة لـ(هينـادا) لم يكـن هـذا صـوت (هاجـن)، كان ذلـك صـوت المـاضي، صـوت الضعـف.. صـوت فئـران خرجـت مذعـورة مـع أول هزيمـة، كان صـوت يجعـل شـفتيها تلتويـان اشـمئزازًا أن يكنـى مثـل هـذا نبيـلًا.

عيناهـا تلتقـي بعـين (غنتـاق) الـذي تعلقـت عيناه بهـا غـير عابـئ بحديـث (هاجـن») تـدور بنظراتهـا في المجلـس لتجـد أن لا أحـد يعبـأ بـما يقولـه النبيـل. الـكل يتطلـع إليهـا في ترقـب بانتظـار مـا سـتقوله مـا أن ينتـهِ هـذا الكهـل مـن حديثـه.

تعود لتنتبه إلى كلماته وهو ينهي حديثه قائلًا:

– ولـذا فـإن مجلسـا مـن حكـماء (زراد) وحكـماء (ثيـام) سـيكون لهـم القـول الفصـل في ذلـك الأمـر، وبالتأكيـد لـن يكـون إعـلان حـرب.

يسكت أخيرًا ولا تتعجل (هينادا) بالتعقيب على قوله.

تسـحب نفسًـا عميقًـا هادئًـا، وتربـت خفيـة عـلى طـرف (آرويـن) الـذي تـكاد تقسـم أن ضربـات قلبـه المتسـارعة هـي الصـوت الوحيـد الـذي يشـق صمـت الترقـب.

متجاهلة النبلاء تمامًا تُركز بصرها على (غنتاق):

– نشـكرك عـلى اسـتقبالك الكريـم، ولكـن موقفـك الواضـح يوجـب علينـا إنهـاء تلـك الزيـارة. ربـما أجـد خزانـات أكثـر ترحيبًـا بلـيراتي في (الطهبـاء)، وربـما أيضًـا رجـالا أكثـر حكمـة.

تلقي بآخر كلماتها وتنطلق ساحبة (آروين) متجهة للخروج.

يأتي صوت (غنتاق) من خلفها قائلًا:

– تشرفت بلقائك حقًا.

لكنهـا لا تتوقـف حتـى للـرد مقـررة أنـه منـذ تلـك اللحظـة أنهـا لـن يوقفهـا أي شيء تجـاه هدفهـا.

٥

مع غروب الشمس بدأت ليلة (سيفاد) الثالثة على متن غليون (ديلرث)، فضل الطبيب منذ الليلة الأولى أن يقلب ليله نهارًا تاركًا زحام سطح المركب في الفترة الصباحية وأن يتواجد في المساء حينما تخف الأقدام من السطح، وتتكوم الأجساد في بطن الغليون ما بين نائم ومقامر أو سكير.

ولليلة الثالثة يصحو ليجد (عاند) قد سبقه إلى السطح رابطًا نفسه بحبل التأمين - الذي يستخدمه البحارة أثناء التبول - متدليًا من جانب السفينة الشرقي مفرغًا ما في أحشائه.

يستمر (عاند) في ذلك الطقس اليومي أغلب ساعات الليل، وذلك بالرغم من أن غذاءهم منذ أن صعدا متن السفينة يتكون من البسكوت البحري اليابس، والقليل من الفاكهة المجففة.

مـرت دقائـق عـلى (سـيفاد) متأمـلا زبـد البحـر عـلى ضـوء القمـران شـبه المكتملـين الناتـج مـن تصـارع الأمـواج الهائجـة، لم يـرأف البحـر بغليـون (ديلـرث) للحظـة منـذ الإقـلاع وهـو مـا عكـر مـزاج البحـارة؛ ولكـن أكثـر مـزاج عكـر كان بالتأكيـد مـزاج (هيشـا)، فالطبيـب وتابعـه اسـتوليا عـلى غرفتـه وصـار يقـضي وقـت راحتـه وسـط البضائـع أو وسـط البحـارة.

لـذا فحـين لمـح (سـيفاد) (هيشـا) عـلى سـطح السـفينة وعـلى وجهـه علامـات التعاسـة، فضـل أن يعـود للغرفـة متجنبـا إيـاه.

بالرغـم ممـا أغـدق عليـه بـه مـن كريسـتالات، لم يـرد الطبيـب أن يختـبر حظـه مـع سـوء مـزاج التاجـر واحتياجـه الحـالي لفـراش - شـبه مريـح - يهـون ظـروف الإبحـار القاسـية التـي يمـرون بهـا ربـما تفـوق حاجتـه لـكل مـا مـع (سـيفاد) مـن كريسـتالات.

مترنحـا دخـل قمرتـه متوجهـا للمائـدة المثبتـة في منتصـف القمرة ليتشـبث بأطرافهـا بكلتـا يديه.

تقلبات البحر تزداد وطأتها على معدته وهو بالداخل.

ولم يسـاعد اعتمادهـم في البحـر عـلى الميـد والنبيـذ بـدلًا مـن المـاء العـذب الـذي يشـح وجـوده عـلى السـفينة.

لا ... لن يستطيع التحامل على نفسه حتى يعود إلى السطح.

يـترك المائـدة مُلقيًـا بجسـده ناحيـة الفـراش مخرجًـا كيسًـا جلديًّـا مـن سُـترته، يُفـرغ محتوياتـه فـوق الفـراش، ويبـدأ في التقيـؤ محـاولًا ألا تنسـكب محتوياتـه.

بعـد دقيقـة، وبعـد أن أفـرغ كل مـا في معدتـه ثـم أكثـر انهـار أرضًـا

محتضنًا واحدًا من عواميد الفراش المثبتة في الأرض.

يجفل لصوت باب القمرة ليجد أن (عاند) قد عاد ويقف متسمرًا أمامه.

يغلق الكيس الجلدي جيدًا، ثم يمد يده به لـ(عاند) ليتخلص منه قائلًا: ظننتني أشد منك، ولكن يبدو أني ما أزال من أبناء البر.

لم يتقدم (عاند) ليأخذ الكيس، بل ظل في مكانه، تتبع (سيفاد) مرمى نظر (عاند)؛ ليجده يُحدق إلى كريستالات اللهب المتناثرة على الفراش، والتي كان يحتفظ بها في الكيس الجلدي.

تصلبت يده الممتدة واختلجت عضلات وجهه للحظة قبل أن يستعيد رباط جأشه وينتصب قائمًا.

-لا تظن أنني سألقي بكل تلك الثروة لإرضاء خُرافات البحارة.

قالها في حدة وهو يمد الكيس الجلدي لصدر (عاند) بعنف. تأوه (عاند) وهو يضم يديه ممسكًا بالكيس، وقد تناثرت بعض محتوياته على قميصه، لكن لم يهمه ذلك كثيرًا؛ فقميصه لم يخلُ من القيء منذ يومه الأول على الغليون.

دوي مخيف هز أرجاء السفينة، ألقى بكليهما أرضًا.

بالتأكيد ذلك الدوي لم يصدر نتيجة أمواج، في الأغلب اصطدم الغليون بشيء ما.

ما بين زاحفين وراكضين انطلق الطبيب و(عاند) لسطح السفينة، ليتخبطا في بعضهما البعض. وقبل أن يصلا إلى السطح كانت قد وصلت إليهما الصيحات بالفعل مع ارتجاجة أخرى أكثر قوة «قراصنـــاااااااة»...

أول ما رآه الطبيب كانت سحابة غبار تلاشت في لحظتها؛ مُكَوَّنة من اختلاط شظايا حطام الصاري الأوسط بشظايا النشاب العملاق الذي انغرس فيه.

تحرك الطبيب بسرعة لميمنة الغليون خشية سقوط الصاري جاذبًا (عاند) - الذي كان قد تسمر في مكانه - من ياقته.

لم يذهب أي منهما بعيدا فمع جذب الطبيب لـ(عاند) فقد كلاهما توازنهما مع هزة أخرى تُنبئ بنشاب جديد، ولم تساعد الدماء المتناثرة تحت الأقدام على حفظ توازنهما ليسقطا بجانب مصدر تلك الدماء - جسد أحد البحارة التعساء أطار أحد حبال الصاري الهاربة نصف رأسه.

من موقعهما مستلقيين أرضًا في بركة من الدماء استطاع (سيفاد) أن يرى أن نشابا آخر - خمن أنه أول واحد - مخترقًا أرضية سطح الغليون، ثم رأى الحبل الغليظ المربوط في نهايته يمتد للأفق، وقد التف بعض من البحارة موجهين ضربات محمومة للحبل.

احتاج لوهلة بعد أن استطاع الوقوف على قدميه ليستوعب الكيان المظلم الذي ينتهي إليه ذلك الحبل، فما ظنه لأول وهلة جانبا جبليا كان كابوسًا عائمًا. فلا يمكن إطلاق وصف سفينة على ما ألقى بظلاله على غليونهم.

مقدمة السفينة المتجهة ناحيتهم كانت بالغة الارتفاع؛ فارتفاعها يقارب نصف واحدة من الفنارات الموجودة بالميناء، بعُلُوِّها تحجب جزءًا كبيرًا من ضوء القمر. نُحِتَ على المُقدمة أشكالا بشرية لأجساد مُعَذَّبة، وقد توسط تلك المنحوتات منحوتة لما يبدو وجه كائن بحري بشع، من فاهه يمتد الحبل الغليظ المنتهي في سفينتهم.

دقائق كانت تفصل ذلك الكابوس عن السفينة. ألقى نظرة على الرجال الذين يحاولون فصل الحبل وإلى عشرات البحارة المستعدين لفرد الأشرعة وتسليمها لرحمة الريح كي تُنجيهم من القادم. انطلق (سيفاد) في اتجاه قمرته لا يلوي على أحد. لم يكن في طريقه أي شخص تلك المرة، وقد خلت مؤخرة السفينة.

وصل إلى قمرته جاريًا إلى الفراش، باغيًا ضالته. كانت ما تزال الكريستالات منثورة فوق الفراش. قبس ثلاثة منهم، وعاد من توه راكضًا للسطح. على سلم القمرة كان (عاند) قادمًا في وجهه؛ وما أن رأى الطبيب صاعدًا حتى أفسح له الطريق سريعًا ليمر من جانبه غير مبالٍ بوجوده؛ فتبعه للسطح مرة أخرى. كان الكابوس قد اقتربت أكثر و«هيشا» يقف موزعًا صرخاته محثًا من يحاولون قطع الحبل مطالبًا إياهم أن يكفوا عن ضرب الحبل بقوة عاهرة مصابة بالوباء، ويظهروا بعض الرجولة، وما بين صراخه في البحارة الآخرين بألا يفردوا شراع الصاري الرئيسي بعد.

انطلق (سيفاد) من جانب (هيشا) متجهًا ناحية الحبل، نظرة واحدة وتأكدت ظنونه أن الحبل كان مخلوطًا بألياف معدنية، لو استمروا في توزيع الضربات عليه حتى فجر الغد بتلك السيوف الرديئة فلن يُفتل سوى سيوفهم. أول ما جال بباله كان أن يتناول سيفًا ويحاول ما رأى واحدا من كهنة النار يفعل يومًا؛ بأن يكسر كريستالة لهب عليه ولكنه الآن يخشى أن يذوب السيف ذاته، ولا وقت للتجارب الآن.

أخرج كريستالة مهشمًا إياها في سرعة ليسيل اللهب الحارق منها مذيبًا الحبل في التو.

احتاج البحارة لعدة لحظات لاستيعاب ما حدث ومازال الكابوس يسير على دربه ناحيتهم حتى أفاقتهم صرخات (هيشا) بفتح الأشرعة واتخاذ أماكنهم.

كانت السفينة الأخرى قد اقتربت بشكل كبير، وأدرك الطبيب حينها أن ما ظنه نحتًا لأجساد بشر معذبين لم تكن حجار، فالحجارة لا تتلوى مثل هذا.

عشرات الأيدي الممتدة والصرخات الضائعة بين هدير الأمواج لم تصل لهم بعد، ولكنها اقتربت جدًا.

مصدومًا نظر الطبيب من حوله للبحارة المنهمكين في محاولة النجاة بالسفينة «هل رأوا ما رأيت؟ أولئك ليسوا بقراصنة.. هل يعلمون خبر ما هو قادم؟» متقهقرًا نظر تحت قدميه للحظة ليجد أن الحمم الملتهبة قد أكملت طريقها بعد أن فتكت بالحبل صانعة ثقبًا في سطح السفينة ورُبما وصلت لقاع الغليون تلتهمه.

تملكه الذعر فجأة وقد كانت تلك قشته الأخيرة، راكضا كالملسوع محاولا جذب انتباه البحارة حوله بلا جدوى حتى وجد من يجذبه من سترته مثبتًا إياه في مكانه.

كان (هيشا) أحمر العينين أزرق الوجنتين يصرخ به في غضب:

- تمالك نفسك أيها اللعين، واترك الرجال لأمرهم الآن.

أشار (سيفاد) بهلع للثقب الذي أحدثه اللهب شارحًا بكلمات غير مترابطة أن السفينة ستغرق لو ثقب اللهب القاع ليرجه (هيشا) قائلًا:

- ثقب كهذا لن يغرق السفينة حتى لو وصل للقاع. تلك

الكريستالات الملعونة أنزلت بنا سوء الطالع وهي ما جاءت بتلك اللعنة في أعقابنا في الأساس.

قالها مشيرًا بإصبعه ناحية مؤخرة السفينة، حينها انتبه الطبيب أخيرًا أن مركبهم قد تحرك من موقعه، وصارت السفينة الأخرى خلفهم لا تزال تحاول ضبط دفتها لملاحقتهم.

قال الطبيب مضطربًا - فهو لم يكن يومًا في موضع دفاع - وشعر أنه يفتقد قناعه في تلك اللحظة:

- أنا لم أعتقد...

لم يحاول حتى (هيشا) الاستماع إليه بل دفعه في عنف ليسقط أرضًا وأكمل (هيشا) إصدار تعليماته موليا إياه ظهره.

الكل يعمل محمومًا من حوله ويبدو أن أفضل ما يمكنه فعله هو أن يبقى بعيدًا عن طريقهم.

لمح (عاند) متكومًا على نفسه في أحد الأركان مخفيًا وجهه فذهب إليه مترنحًا ليجلس بجانبه متكومًا هو الآخر، متمنيًا بشدة لو كان يؤمن بأي من الآلهة ليدعو له الآن.

الفصل الثالث

١

إن كانت قبلة حجيج (زراد) كاتدرائية القمر، فلو كان لـ(ثيام) حجاج لكانت وجهتهم مكتبة (ثيام) العظمى. على مساحة مقاطعة كاملة تتخذ مكتبة ثيام موقعها في وسط عاصمة المملكة. لا يصدق البعض حين يُرْوَى تاريخها حيث بدأت كقلعة حصينة في أوائل أيام المملكة؛ منذ ما يزيد عن ألف عام.

بدأ الأمر في استخدامها كمكان لحفظ السجلات الحربية، والأوامر الملكية القادمة من أنحاء المملكة. وعلى مر الأعوام أصدر أحد الملوك أمرًا أن يُحتفظ بنسخة من أي كتاب أو مخطوطة داخل ذلك الحصن، وحين بدأت أجزاء من تلك القلعة تتهدم بفعل الزمن كان المبنى قد توقف عن كونه قلعة، وأصبح أرشيفًا يحمل التاريخ المكتوب ليس لمملكة (ثيام) فقط؛ ولكن لكل ما حولها.

قـرر مهنـدس الترميـم أن يعطـي لمسـة جماليـة غـير معهـودة صانعًـا الواجهـة الزجاجيـة المميـزة التـي تنافـس بهـا أعظـم القصـور. ويؤكـد المؤرخـون أن لمسـة المهنـدس الجماليـة في تصميـم مـا أصبـح مكتبـة (ثيـام) العظمـى هـو مـا أثـر عـلى شـكل وتخطيـط (ثيـام) فيـما بعـد. مملكـة الفنـون والجـمال قلبهـا هنـا في مكتبـة (ثيـام) العظمـى، واليـوم تجـد (هينـادا) نفسـها غارقـة في مخطوطـات حربيـة وخرائـط بالإضافـة إلى كتـب فنـون الحـرب. لا تتمكـن مـن إنهـاء صفحتـين قبـل أن تأخذهـا جملـة عارضـة عـن حادثـة مـا، أو موقعـة مـا لمخطوطـة أخـرى.

أصبـح روتينهـا اليومـي هـو المجـيء مـع أول أضـواء الفجـر والرحيـل في المسـاء، فقـط ليمكنهـا النـوم باكـرًا لتصحـو مـرة أخـرى مـع ضـوء النهـار وتـأتي لتسـتمر في دراسـاتها. كانـت منكفئـة عـلى أحـد الكتـب غارقـة في أفكارهـا حـين جـاء صـوت مـن خلفهـا:

- لا تُسـلب الممالـك بمخطوطـات عـن نظريـات الحـرب كتبهـا شـيوخ لم يطـأوا يومًـا أرض المعركـة.

تنتفـض (هينـادا) مـن مجلسـها، وتلتفـت لتجـد (غنتـاق) السـعدبي يقـف خلفهـا عابثًـا بشـاربه الكـث.

-لا أنتـوي سـلب أي ممالـك، فقـط أسـتعيد مـا سُـلب منـي. لكـن قـل لي؛ كيـف إذن تُسـترد الممالـك؟

غير مدعوًا يسحب مقعدًا ليجلس أمامها منتفخ الأوداج:

- بالرجال، يقودهم من تمرس في الحرب منذ نعومة أظافره.

- تأتيني الآن لتعرض علي في الخفاء ما طلبته منك علنًا؟!

- (غنتـاق السـعدبي) لا يفعـل أي شيء في الخفـاء. بالتأكيـد كل نبـلاء

(زراد) يعلمون الآن أني أجلس معكِ في تلك اللحظة في مكتبة (ثيام).

تقول في سخرية:

– بالتأكيد، فسيكون من الصعب أن تأتي هنا لأي سبب آخر.

لم يبد على (غتاق) أنه فهم إهانتها له. أو على الأقل لم يُبد اهتمامًا إن فعل.

– أخبريني هل راسلتِ مرتزقة (الطهباء) بعد؟

– لا، ليس بعد.

– دعي لي التواصل معهم؛ فنحتاج إلى أكثر من لوائين لاحتلال.. المعذرة.. لاسترداد (زراد). نحتاج على الأقل لفيلق أو اثنين مكونين جيشًا.

– وأنت ستوفر لي ذلك.

– ليس ذلك فقط؛ بس سأعطيك أيضًا ما هو أكثر من ذلك. سيحظى جيشك الصغير بقيادة (غتاق السعدبي) بنفسه.

قاومت (هينادا) بصعوبة إطلاق زفرة ضجر من اعتداد ذلك الرجل بنفسه.

– عظيم جدًا.

قالتها راسمة أكثر ابتسامة زائفة تستطيع أن تقوم بها.

– فقط اعلمي، أنا لست هنا من أجل أموال عائلة (بونيوم). فأموال عائلة واحدة لا يمكنها أن تمول حربًا.

كادت أن تقاطعه قائلة «أنت لا تعرف قدر أموال (بونيوم)». ولكنها

أطبقت على شفتيها وهو يكمل:

- ولكني جئتُ مؤمنًا بحقك أنت وكل النبلاء في العودة، ولأن هناك لحظات في التاريخ تُنادي على الفارس المُخلص الذي سيأتي بالنصر. وأنا أعلم أن تلك هي لحظتي.

اعتصرت (هينادا) رأسها بحثًا عن أي ردٍ مناسب لهذا الهراء، ولكنها لم تجد سوى بسمة أكثر اصفرارا من الأولى تكشف بها عن أسنانها، وجعلته يتابع حديثه.

- واطمئني يا سمو الفيدا فإن كل من سنستقدمهم من (الطهباء) سيكونون تحت قيادة نخبة من قوادي المتمرسين.

- عظيم، للتأكيد أنت تتعهد بقيادة الجيش بأكمله وليس مجرد ألويتك وتكون أنت أمير حربي؟

لم تظن أن ذلك ممكنًا ولكن انتفخت أوداجه أكثر مع سماعه لها تناديه بالأمير.

- حسنًا ذلك بالضبط ما أتعهد به، وسأقوم بدوري كقائد من قيادة الجيوش في الميدان إلى تنسيق قوافل الغذاء. ولكن قبل الدخول في تلك التفاصيل التي ستكون بلا شك مثيرة للضجر بالنسبة لك. وقبل أن نُقرر البدء في الزحف على (زراد).

يصمت للحظة وهو يحك ذقنه ثم يكمل متسائلًا:

- أخرج الملك السجين كل النبلاء وأنزل الملك من على عرشه وأنتم في أوج قوتكم وفي حماية النبلاء الحديديين. ما الذي تغير الآن؟ ما الذي تملكينه الآن يجعلك واثقة من استعادة عرش (زراد) من الملك السجين؟ وهو بجواره كل كهنة النار؟

أشاحت بيدها لتقول في سرعة:

– كهنة النار لن يحركوا طرفًا دفاعًا عن (زراد) أو عن الملك، كل ما يريده كهنة النار هو ضمانًا لمصالحهم، وأؤكد لك أن ذلك سيكون في الحسبان. أما عن ماذا سيكون مختلفًا؟ فربما أهم شيء أنه سيكون لدينا القائد (غنتاق السعدبي) على رأس جيوشنا.

يقهقه (غنتاق) قائلًا:

– حسنًا أنت تعلمين بالتأكيد أنني لست بأحمق، لطيف أن يتم تقديري لكني لست من الغباء بأن ألقي بنفسي ورجالي في معركة لا أعلم معطياتها.

مستسلمة تهز كتفيها قائلة:

– حسنًا، يبدو ذلك عادلًا.

تقوم واقفة وتمشي بتؤدة ناحية (غنتاق) وهي تقول:

– يوم ثورة النار استطاع الملك السجين الاستيلاء على خاتم الملك الذي كان يتحكم به في النبلاء الحديديين. ما لا يعرفه أحد أن ذلك الخاتم بالذات كان وسيلة التحكم الوحيدة في النبلاء الحديديين.

جاءت كذبة (هينادا) بخصوص الخاتم والنبلاء الحديديين طبيعية دون أن يظهر على وجهها أو جسدها أي علامة من علامات الخداع يمكن لـ(غنتاق) الأريب أن يستشف منها الكذبة الملفقة التي تدربت (هينادا) عليها عدة مرات؛ فتلك القصة الأسطورية التي تشاركه إياها الآن كانت بديلًا عن الحقيقة حول النبلاء الحديديين، وعما حدث يوم الخذلان العظيم، فحتى النبلاء ذاتهم لا يعرف منهم حقيقة ما حدث إلا أقل من القليل، فلم يكن مناسبًا أن تسلم

(غنتـاق) معلومـة ككيفيـة التواصـل والتحكـم في النبـلاء الحديديـين.

تكمل حكايتها قائلة:

– لـذا حـين اسـتولى عـلى هـذا الخاتـم، كان بإمكانـه القضـاء عـلى كل النبـلاء وجيـش (زراد) أيضًـا لـو شـاء.

يسأل (غنتاق) السؤال المنطقي:

– وما الذي سيمنعه من استخدام ذلك الخاتم مجددًا؟

خفضت (هينادا) صوتها واقتربت منه أكثر وهي تقول شبه هامسة:

– لا يعـرف الكثـيرون ذلـك، وحتـى مـن يعرفـون ربـما يكونـوا قـد نسـوا مـع مـرور السـنوات، ولكـن النبـلاء الحديديـين لا يتغـذون عـلى طعامنـا، بـل كان يحتفـظ بـسر غذائهـم الـذي بدونـه يبلـون ويموتـون داخـل دروعهـم قريبًـا مـن قلبـه، ولـذا حـين طردهـم الملـك السـجين مـن (زراد) اختفـوا واندثـروا، فحتـى وإن حـاول – وهـو مـا لـن يحـدث – الاسـتعانة بهـم فلـن يعـودوا دون غـذاء.

يهز رأسه (غنتاق) رأسه متفكرًا فيما تقوله الفيدا.

– كل مـا نحتاجـه هـو دخـول (زراد) أيهـا القائـد.. بحصولنـا عـلى خاتـم النبـلاء الحديديـن، ومعرفتـي بـسر غذائهـم؛ سـنعيد الممالـك الجديـدة لوحدتهـا ولعـصر ذهبـي جديـد.

٢

تابعت (ميرا) الملك وهو يرفع الحجارة الثقيلة ناقلًا إياها من أول الزنزانة إلى آخرها في صمت، ذلك الطقس اليومي الذي لا تزال لا تعلم إن كان مجرد تمرينات يحتاج لتكرارها في معزله هذا، أم هي طقوس تأمل، أم صلوات.

فكرت (ميرا) وهي تُشعل آخر مشاعل الزنزانة بجانب فراش الملك الخشبي. أليس من الغريب أن يُطلق على هذا الفراش فراشًا ملكيًا، وهو خالٍ من الحرير والوسادات المخملية؟

كان خشبيا وبدلًا من الوسادة قطعة من الحجر.

فقط حجمه كان كبيرًا يليق بالملوك ليسع حجم الملك السجين.

الزنزانة ذاتها كانت زنزانتين جماعيتين، يتشاركها في العادة ما لا يقل عن عشرة مساجين هدم الحائط الفاصل بينهما. زنزانة ملكية بحق؛ أم يجب أن يطلق عليها غرفة العرش بما أنها المكان الذي يحكم منه الملك ؟

وإن كانت لا عرش بها؛ إلا إذا اعتبرنا المرحاض الخشبي في الركن الأبعد عرشًا يصلح لحُكم (زراد).

ضحكت (ميرا) لتلك الفكرة وحاولت التغطية على الضحكة بادعاء السعال.

نظر لها (داليف) المستند على القضبان - منتظرًا الملك أن ينتهي من طقسه هو الآخر - متعجبًا، ولكن الملك لم يُلق لها بالًا وكأنما لا يشعر بوجودهما من حوله من الأساس متابعًا ما يفعله.

عضت (ميرا) شفتها آملة ألا تكون قد أزعجته محاولة التفكير بأي شيء آخر غير السخف الذي يدور برأسها.

تأملت (ميرا) الملك عاري الجذع، وجلده الذي كان بلون الفحم الأسود إن اختلط يومًا بسماء منتصف ليلة الخسوف. وانقلب مزاجها في لحظة متذكرة تعليق (الآركون) ونعته للملك بالعبد. كيف ينم لون الليل عن أي شيء سوى النُبل!

- حسنًا لقد أثرتِ فضولي.

تلتفت (ميرا) لـ(داليف) الذي همس تلك الكلمات في أذنها قائلة:

- ماذا؟

- توشكين على الانفجار ضحكًا في ثانية والأخرى ينقلب وجهك تمامًا.. أثرت فضولي.. ما الذي يدور في رأسك؟

تعود (ميرا) بنظرها للملك الذي يبدو أنه قد أنهى طقسه اليومي وتقول لـ(داليف):

- ربما لاحقًا.

يقترب كلٌ منهما من الملك وقد تربع أرضًا منتصب الظهر دون أن يريح ظهره على الحائط. بجلوسه قد صار على نفس مستوى نظر الكاهنين ويمكنهما الحديث معه دون أن يشرئبا بعنقيهما.

- لا أخبار عن طبيب الوباء بعد؟

يرد (داليف) على تساؤل الملك:

- لا يا سيدي. أرسلنا سفينة في أثر الغليون الذي أبحر به، ولكن من المرجح أنهم لن يلحقوا بالغليون حتى يصل إلى وجهته الأولى على الأقل.

سكت للحظة قبل أن يكمل:

- ولا أزال أرى ضرورة لإبلاغ الكتبة بسبب سفر الطبيب. الشائعات تنتشر بين الحشود أن (زراد) قد فُقدت أمام الوباء الجديد وأن الطبيب فر بجلده هاربًا.

تدخلت (ميرا) في الحديث قائلة: بل من الأفضل أن تبلغهم أنك أرسلت الطبيب في مهمة.

هز الملك رأسه رافضًا وقال بنبرة هادئة، وصوت رخيم:

- لا.. أنا لا أكذب ولا أخادع، وربما كانوا على حق، ربما كان رحيل الطبيب هربًا وما بعثه لي في كتابه هراء. دعنا إذن من أمر الطبيب، وأخبروني عن الملاعين.

يتلقى الملك تقارير يومية عن أحوال (زراد) من كتبته، لكنها دائمًا تأتي كأرقام متبوعة بتوصيات من الكتبة يوافق عليها الملك على مضض؛ فالكتبة هم بقايا حكم النبلاء الذين يزدريهم الجميع بدءًا من الملك وحتى أكثر الملاعين حنينا لحكم النبلاء، لكنهم من

كانـوا يديـرون الشـؤون اليوميـة وقـت النبـلاء، ولا غنـى عنهـم الآن مهـما كرههـم.

لـذا فسـؤاله اليومـي عـن أحـوال الملاعـين يحـاول أن يعـرف منـه إذا كانـت شـورى الكتبـة صائبـة أم لا.

وكل يـوم يحـاول (داليـف) أن يـسرد عليـه ويسـتفيض ممـا جمعـه مـن أخبـار الملاعـين، وكل يـوم لا تجـد (مـيرا) مـا تقولـه سـوى أن «الملاعـين بخـير»، فهـي تراهـم يسـكرون ويتعاركـون ويتناكحـون. بعضهـم يلعـن الملـك والبعـض الآخـر يلعـن النبـلاء، وبالتأكيـد يلعنـوا كهنـة النـار كذلـك مـن خلـف ظهورهـم. لا يختلـف الحـال مـن يـوم ليـوم.. ربـما في مواسـم الحـج؛ فالحجيـج يملئـون الطرقـات فيحتفـي بهـم أهـل (زراد)، ويتكسـبون منهـم، ومـا أن يتمـوا الـشراء، ويخرجـون مـن متاجرهـم؛ يصـير لعنهـم حـلالًا ويودعونهـم بدعـاء أن تـأتي شـهبٌ مـن السـماء تخسـف بكاتدرائيـة القمـر الأرض ولا يـرون حجـاج القمـر مـرة أخـرى.

تخرج (ميرا) من أفكارها منتبهة لنهاية حديث (داليف):

- وكل مـا تبقـى مجـرد شـائعات متناثـرة، مشـاهدات للغيـلان عنـد البوابـات الشـمالية.

حـك الملـك ذقنـه مفكـرًا - بعـد أن انتهـى (داليـف) مـن أخبـاره - في صمـتٍ طـال، وعينـاه تشـيان بـأن عقلـه ليـس معهـما.

صـوت خطـوات تقـترب تنبـئ بقـدوم الكتبـة، أعـاد الوعـي لعينـيّ الملـك ليقـول موجهـا حديثـه لـ(مـيرا):

- أريدك أن تتحققي أنت و(جيرد) من أمر تلك الغيلان.

قالها وأشار بيده سامحًا لهما بالانصراف.

أحنى كلاهما رأسه في تحية رسمية ستثير حنق (الآركون) لو رآهما يقدمانها للملك السجين، بعد مرورهما بالكتبة في طريقهما للخارج تمتمت (ميرا) جازة على أسنانها:

- أنا أكره الغيلان.

٣

على الأقل لم يأخذ (هيشا) منهما القمرة، ولكن صارت إقامتهما على الغليون أشبه بالسجن. نظرات البحارة الذين يحضرون لهما الطعام كانت تخبرهما بكل شيء. بالنسبة لهم فكل ما تعرضت له السفينة منذ انطلاقها كانت بسبب إحضار (سيفاد) لتلك الكريستالات حتى وإن كانت تلك الكريستالات السبب في إنقاذهم في النهاية.

كان يعلم (سيفاد) أنهم ليسوا في الطريق إلى (ثول)، ولكنهم في طريقهم إلى أبراج الصمت ليودع البحارة موتاهم.

طقس قديم يسبق حتى عبادة القمر لم يتخل عنه البحارة أبدًا، للموت في البحر ألف سبب لكن لو كان السبب يَبْقَى على الجثمان، فواجب طاقم السفينة أن يصطحب الجثمان لواحد من أبراج الصمت، والمشاركة في طقوس مطولة عتيقة تختلف كثيرًا عن طقوس خلاص كهنة النار أو الدفن كأبناء القمر.

كان (سيفاد) ليلقى بالجثث في البحر لو تُرك له القرار، ولكن بعد رؤيته للهول الذي كان يحاول اللحاق بهم؛ ربما.. فقط ربما ليس كل ما يُؤمن به البحارة هراء.

لم يمنع ذلك شعور الحنق الشديد الذي اعتراه، فرحلته المعطلة تلك كانت لإنقاذ شعب (زراد) بأكمله.

نظر الطبيب لـ(عاند) الذي بدا مسترخيًا غير عابئ بأي جهة يتخذون طالما كل ميل يقطع يبعدهم عن (زراد).

مع اقترابهم من جزيرة أبراج الصمت وتوقف الغليون، جاء (هيشا) مطالبًا الطبيب بأن يصحبهما في مراسم تكريم البحارة. لم يكن (سيفاد) متحمسًا بالتأكيد لذلك.

– حضرة الطبيب أرجو أن تسامحني ولكن فلننتهز فرصة وجودنا في ذلك المكان المقدس، ودعنا نتأكد أننا تخلصنا من أي شيء قد يثير ثائرة البحر مرة أخرى.

بالرغم من عودة لهجة الاحترام والتبجيل في حديث (هيشا) له، إلا أنه كان يعلم جيدًا أن عليه توخي الحذر؛ فهو في حضرة بركان موشك على الانفجار في حال إن نبس بكلمة خاطئة.

هز (سيفاد) رأسه في فهم، وسعل مستعيدًا رباط جأشه وهو يقول لـ(هيشا): بالتأكيد سأفعل ذلك؛ هذا واجبي كمندوب شخصي من الملك أن أتأكد من سلامة الجميع وأشارك في المراسم نيابة عنه.

اتسعت عينا (هيشا) قليلًا مع ذكر اسم الملك، وصار مفهومًا لكلٍ منهما صيغة التهديد المتبادلة.

الطبيب سوف يذعن لما يراه حماقة، ولكنه أيضا يذكر (هيشا) أن بمجرد أن يرسو الغليون فله اليد العليا.

أربعة مراكب صغيرة تحركت من السفينة لتجتاز المياه الضحلة، وترسو على شاطئ أبراج الصمت. ترجل البحارة، أقدامهم تنغرس

في الرمال البيضاء الخشنة التي تغطي الجزيرة بأكملها، حاملين الجثامين على أكتافهم في اتجاه الأبراج، يتبعهم (عاند) والطبيب، وقد ارتدى قناعه.

وقف (عاند) مأخوذًا بالأبراج الحجرية المقبضة التي ملأت تلك الجزيرة الصغيرة، ما لا يقل عن مائة برجًا.

بنيت الأبراج على شكل دائرة ولم تكن عالية الارتفاع، ولكنها كانت مُقامة على هضاب عالية.

مع وصولهم لأول برج على أطراف الجزيرة التقط (هيشا) مجلدًا عتيقًا - يبدو أنه مصنوع من الجلد - محفوظ على مذبح حجري بجانب بوابة البرج، بعد مطالعته لعدة لحظات هز رأسه في أسف وأشار إلى حملة الجثامين أن يتبعوه إلى البرج التالي، ليراجع عند وصوله المجلد الموضوع بجانب ذلك البرج أيضًا ويتنهد بعدها في خيبة أمل، مُشيرًا إلى قافلة الموت لتتبعه إلى البرج الذي يليه.

تكرر الأمر ثلاث مرات أخرى؛ (هيشا) مراجعًا للدفتر الخاص بالبرج في كل مرة؛ ثم يشير لهم بالذهاب إلى البرج التالي، حتى وصلوا للبرج السادس.

تلك المرة هز رأسه في رضا بعد أن راجع المجلد مشيرًا لهم أن يصعدوا البرج.

هال (عاند) اتساع مساحة قمة البرج؛ التي تراصت بداخلها مئات الأجساد في مراحل مختلفة من الفناء. وكلما اقترب من أطراف البرج وجد تلالا من الأتربة، بالمزيد من التدقيق اكتشف أنها مساحيق عظام، ومع دنوه من مركز الدائرة وجد أن الهياكل صارت أكثر تماسكا، بينما في منتصف البرج توجد هوة تتراص حولها الأجساد

الأقل تحللًا.

بدأ البحارة في نقل الأجساد المتحللة التي تحيط بالهوة لأطراف الدائرة ليضعوا جثث زملائهم مكانها، حريصين أن يحاذوا الرسغ والفخذ الخاص بكل جثة مع النقوش الزخرفية المحفورة على الأرض.

كان (عاند) ينظر إلى كل هذا بخوف وذهول، غير مستوعب لما يحدث، وغير قادر حتى أن يسأل واحد من ألف سؤال تتصارع في ذهنه.

ولكنه فكر أن اللعنة على الفهم الآن.. دعهم ينتهون مما يصنعونه ويعودون إلى السفينة التي صارت تقلباتها ورائحة القيء التي لم تفارقه منذ ارتقاها جنة يتمنى العودة إليها.

ولكن لم يكن مجرد تجريدهم من ملابسهم ووضعهم بالقرب من الفوهة نهاية الطقس.

اقترب (هيشا) من الطبيب ودس في يده محقنًا وست قنينات بعدد الأجساد.

رغم كون ذلك أول قداس أموات بحر يحضره (سيفاد)، إلا أن أبيه قد حرص على أن يعلمه كل طقوس الموت التي يمارسها أهل (زراد) حتى العتيق منها وتحضيره لتنفيذ واجباته خلال تلك الطقوس.

الدور الذي يقوم به اليوم عادة يقوم به القبطان لكن مع وجود طبيب الوباء في القداس لا يسمح لآخر بالقيام به.

ملأ الطبيب المحقن الأول وركع بجانب الجسد الأول ليغرسه في شريان العنق مفرغا إياه ثم عاود ملئه مرة أخرى متجهًا للجسد

الثاني. يتبعه القبطان بمشرط ليصنع جرحًا عرضيًا في رسغ وفخذ كل جثة ينتهي الطبيب من حقنها.

بمرور الوقت ومع وصول الطبيب للجثة الرابعة بدأت الدماء التي كانت متخثرة في جثة ماتت منذ أيام تسيل من الجروح المشقوقة في الجثة الأولى لتسلك تلك الدماء السوداء طريقها بين النقوش المرسومة باتجاه الهوة، يتابع أحد البحارة خط سير الدماء ليتأكد أنها تسلك طريقها للهاوية، مزيلًا أي عائق أو دماء قديمة متخثرة قد تخرجها عن مسارها، تتابع سيل دماء الجثث وقد أنهى الطبيب دوره، ومع وصول دماء الجثة الأخيرة للفوهة أشار القبطان للبحارة ليتجمعوا بجانب الأجساد ويشق كل منهم كفه ويمدها لتسيل دماء الأحياء ممتزجة بدماء من ستجف عظامهم في وداع أخير لإخوة بحر. واحد تلو الآخر قدم احترامه، وفي النهاية ناول (هيشا) خنجرا للطبيب.

شق الطبيب يده في سرعة ومد يده بالخنجر لـ(عاند) الذي نظر له مترددًا، فأنهى الطبيب تردده بسرعة جاذبًا يده ليصنع شقًا صغيرًا بها ثم شدد من قبضته على يده لتنز الدماء من جرحه وتنضم دماؤه لنهر الدم الصغير الذي يجري تحتهم.

وما أن استدار الطبيب ليعودوا أدراجهم حتى قابلته نظرات البحارة المترقبة ومن قبلهم نظرة (هيشا).

جز (سيفاد) على أسنانه وإن لم يظهر هذا من خلف القناع؛ مخرجًا حافظته الجلدية ليلقي بالكريستالات في الفوهة واحدة تلو الأخرى، داعبته فكرة أن يخفي الكريستالة الزرقاء متذكرًا أنه اضطر للتعامل مع (ساليك) ليحصل عليها، لكنه عدل عن تلك الفكرة سريعًا

مـع نظـرات البحـارة التـي يشـعر بهـا تخـترق ظهـره ليهشـمها في يـده تـاركًا فتاتهـا تلحـق ببقيـة الكريسـتالات، ثـم اسـتدار متجهًـا إلى سـلالم الـبرج غـير عابـئٍ بالبحـارة و(هيشـا) الذيـن وقفـوا يتلـون صلواتهـم الأخـيرة عـلى أرواح مـن فقدوهـم.

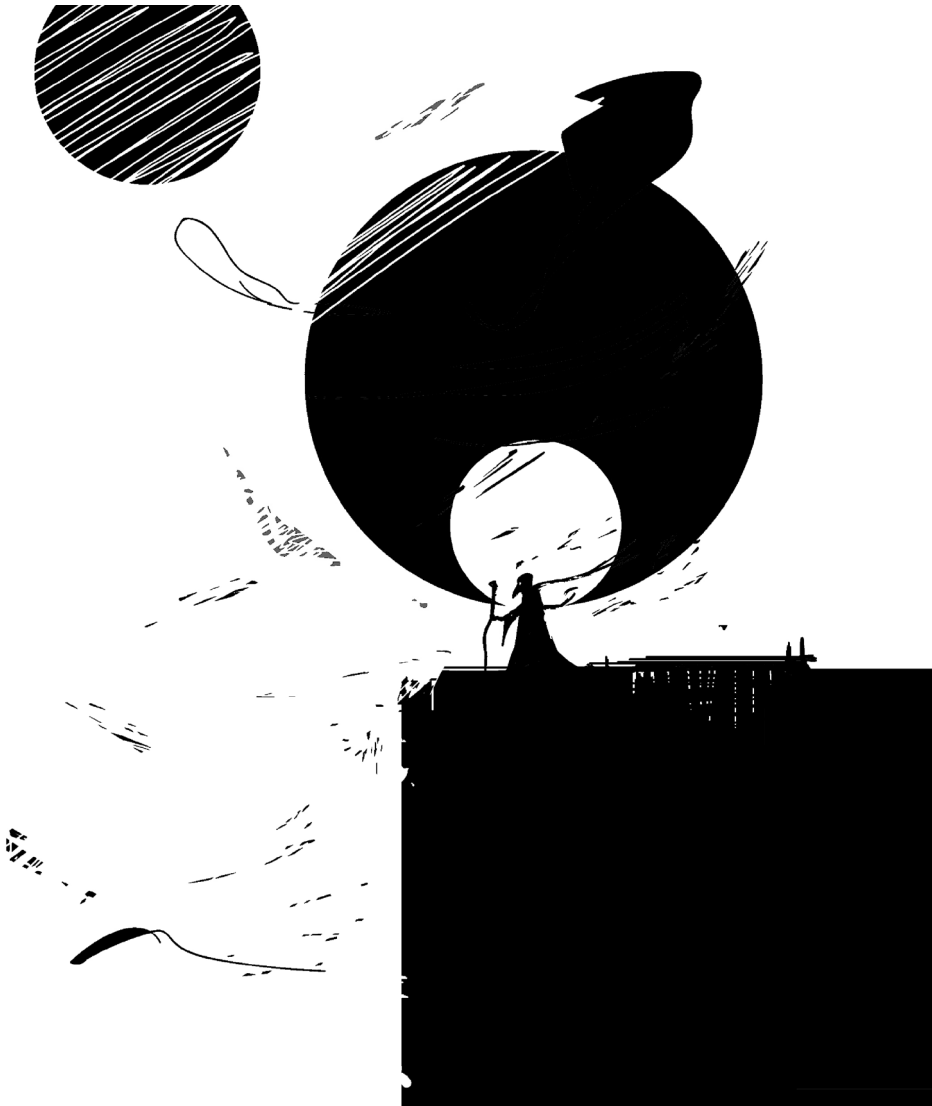

٤

احتاج (غنتاق) إلى ثلاثين نهارًا بلياليه ليعد العدة، ويجمع ما وعد من جيش. استطاع أن يجمع ما يزيد عن ثمانين ألفا مكونين فيلقًا، أو جيش صغير. قلب الجيش والقادة كانوا من رجاله بالطبع، ولكنه احتاج للاستعانة بالكثير والكثير من المرتزقة، وكان السواد الأعظم من أولئك المرتزقة القادمين من مملكة (الطهباء) البائسة.

استمر النبلاء في موقفهم المناهض لتلك التحركات؛ وإن كانوا أكثر حذرًا الآن و(غنتاق) قد صار داعمًا وعلى رأس تلك الحرب المقبلة، حتى أن بعض أولئك النبلاء المناهضون من الأساس قد اضطروا لإمداد (غنتاق) بأسلحة حربية ثقيلة من أجل قواته. فبرغم كل شيء هم ليسوا في موقف يستطيعون الوقوف أمام ملك الرُحى فيه؛ فأقوى النبلاء لديه من الرجال ما يقل عن لواء. رأت (هينادا) في ذلك بالطبع عدالة ما؛ فعدم قدرتهم منع جيشها الصغير من التحرك كان نتيجة لانبطاحهم الذي استمر لسنوات، واعتمادهم على أمراء (ثيام) و(غنتاق) في حفظ مصالحهم.

تناطح كل من (غنتاق) والفيدا في عدة أمور أثناء إعداد العدة للانطلاق، في البداية على توفير دروع مناسبة وزي موحد لكل أفراد الجيش، وهو الذي لم يعتده (غنتاق) بالطبع حين يتقاتل بجيش من المرتزقة، ورأى فيها إسرافا وتبذيرا لأموال يمكنها أن تذهب لمكان آخر أكثر أهمية، كأعماق جيوبه الفضفاضة مثلًا. ثم تطورت الاختلافات مع قضاء الفيدا جل وقتها في دراسات الحرب؛ لتصير اعتراضًا على تدخلات منها في تشكيلات الزحف، ونقط استراحات الجيش في طريقهم لـ(زراد). وكان (آروين) دائمًا هو الموفق بين الاثنين حين تحتد الأمور، ومع الوصول ليوم خروج الجيش من ثيام كانت الخلافات قد خبت كثيرًا، مع رؤية (هينادا) لقدرة (غنتاق) في جمع وإعداد عشرة أضعاف ما حلمت به من رجال للزحف، وبالنسبة لـ(غنتاق) وقد رأى جيشه بالزي الموحد الجديد؛ فقد اجتاحه شعور لم يعرف من قبل أنه يحتاجه، شعر أنه قائد لجيش حقًا، وليس مجرد جامع لقطاع طرق منصبًا نفسه رئيسًا عليهم، حتى أن ذلك انعكس على التزام وتصرفات الأفراد مقتربين جدًا من أداء جيش نظامي مدرب، أو على الأقل يظهرون كذلك، وهو يكفي ليعطيهم ولو قدرًا صغيرًا من التفوق في بدايات الاشتباك.

بالرغم من ذلك لم يكن هناك شعب يقف بالزهور والطبول مودعًا ذلك الجيش، أقصى ما حصلوا عليه هو بعض الصبية الراكضين بجوارهم حتى عبروا الأسوار الخارجية لـ(ثيام)، وحينها أيضًا تنفس أمراء (ثيام) الصعداء؛ فلم يكن من المريح وجود جيش مقاتل بهذا الحجم داخل حدود مملكتهم، وأما النبلاء فكانوا في حيرة من أمرهم؛ فبنصف قلب يتمنون هزيمة شنعاء لهذا الجيش نكاية في الفيدا لتحديها حكماء النبلاء، وبالنصف الآخر يتمنون

أن يُنـزل هـذا الجيـش أقـصى أنـواع التنكيـل بالملـك السـجين وكهنـة النـار، ويعـودوا إليهـم بــ(زراد). لكـن في كل الأحـوال فـإن كل الغـذاء والسـلاح والملابـس والـدواء قـادم مـن مخازنهـم، مدفـوع ثمنـه مـن إرث (آل بونيـوم) الـذي نالتـه الفيـدا (هينـادا)، لا يوجـد إلا مجنـون مـن لا يـرى أن الحـرب مربحـة دائـمًا.

الفصل الرابع

١

رغـم أن ضـوء قمـرا القـرن في طـور (الأحـدب المتناقـص) قـد أنـارا الطريـق نسـبيًّا إلا أن الظـلال الممتـدة بمحـاذات أسـوار (زراد) الحجريـة جعلـت الطريـق مقبضًـا.

لا يتجـول الملاعـين خـارج الأسـوار كثـيرًا بعـد الظـلام لحسـن الحـظ، لـو رأى ملعـون عثـر الحـظ (مـيرا) و(جـيرد) وسـط تلـك الليلـة بثيابهـما التـي تخفـي ملابـس الكهنـة والوشـاح الـذي يغطـي وجهيهـما لظـن أنهـما مـن شـياطين الصمـت جـاءا بخـلاص الـروح.

قطع (جيرد) الصمت قائلًا:

- أما زلتِ تفكرين في الغيلان؟

هزت (ميرا) رأسها مجيبة دون أن تبطئ من خطواتها:

- نلاحـق أخبارهـا منـذ أكثـر مـن خمسـة وعشريـن يومًـا، لم لم نؤجـل زيـارة اليـوم للصبـاح؟

أجابها (جيرد):

- كل من ذكر رؤية الغيلان داخل المدينة ادعى رؤيتها ليلًا، من الأفضل لنا أن نستجوب اللحاد أولًا، ثم نفتش المنطقة بعدها على الفور.

قال النصف الثاني من جملته وقد ركز نظراته فوق وجهها.

هزت رأسها موافقة، محاولة تجنب النظر إليه:

- إنها المقابر.. يبدو أننا وصلنا!

وقف اللحاد أمام كوخه يراقبهما في ذعر يقتربان منه، بجوار الكوخ كان هناك طفل صغير لا يتعدى العشر سنوات يقوم بنشاط غير مفهوم ببعض الأواني الصدئة والأخشاب المتكسرة، إما أنه يحاول تنظيفها أو أنه في حاجة للتخلص منها.

يتعرف عليهما اللحاد مع اقترابهما من الكوخ

بصوت متحشرج يشي بحلق جاف تساءل اللحاد:

- كيف أستطيع خدمة الكهنة المهابين؟

قالت (ميرا):

- أتينا باسم الملك وبأمر منه.

وكأن قدوم كهنة نار من أجله لا يرعبه بما يكفي فيجيء ذكر الملك السجين ليود اللحاد أن يرتمي على ركبتيه باكيًا متوسلًا للغفران عن خطيئة كونه موجودا.

يرى (جيرد) هذا الهلع في كل خلجة من جسده فيبدأ مباشرة في السؤال:

- يتناقل البعض أخبارا حول رؤية بعض الغيلان بجوار السور، ونريد التحقق من ذلك.

قبل أن يتمالك زمام كلماته ويهم بالحديث سألت (ميرا) مشيرة للطفل:

- من أين أتيت بهذا الطفل؟ ملامحه وملابسه ليست لمحليين.

توقف الطفل عمَّا كان يفعله ووقف ينظر لهم باهتمام وإن بدا لا يفهم ما يقال ولكنه يفهم على الأقل أن حديثها عنه.

أصاب اللحاد الخرس لوهلة وعقله في صراع بين خوفه من الطبيب وخوفه من الكاهنين الذين أتيا باسم الملك، ولكنه حسم أمره مقررًا أن ينجو بنفسه الآن وهو يقول:

- الطبيب.. الطبيب.. طبيب الوباء.. أولئك أطفال ما خلف الوادي من نجوا من الوباء، آخذهم من الطبيب موفرًا لهم مسكن وعمل مؤقت، ثم أبيعهم.. أعني أجد لهم عملا في المدينة مع واحد من التجار.

- طبيب الوباء؟!

تقولها بصوت عالٍ غير مصدقة. تأتي يد (جيرد) الضخمة على كتف اللحاد:

- تحتاج أن تهدأ ونحتاج تفاصيل أكثر، تعال معي.

يصطحب (جيرد) اللحاد الذي يظهر أن قدميه سوف تكفان عن حمله في أي لحظة إلى كوخه، بينما تتجه (ميرا) إلى الطفل الصغير الذي لا يتحرك من مكانه. ترى (ميرا) حين اقتربت جرحا ملوثا لم يلتئم على كتف الطفل.

تقول له بغلظة مشيرة للجرح:

- اللحاد فعل بك هذا؟

يهز الطفل رأسه نافيًا.

تسكت للحظة لتنظر حولها مفكرة ثم تسأل مرة أخرى:

- أكان الطبيب من صنعه بك إذن؟

ينظر لها الطفل دون فهم ثم يشير باتجاه الغابة قائلًا بصوت خفيض:

- سقطت من فوق الشجرة داخل الغابة ونحن نبحث عن أخي.

- أخيك؟.. أين هو؟

- ليس أخي.. جاء معي.. على السفينة نفسها ولكن أتى بنا وجه الغراب معًا هنا، فاعتبرته أخي.

- وجه الغراب هه.. وأين أخيك ذاك الآن؟

- كنا مع اللحاد في الغابة وتاه منا. بحثنا عنه عدة أيام دون جدوى.

قالها وهو مطأطئ الرأس شاعرًا بخذلانه لأخيه.

تدور برأسها لترى (جيرد) ما زال يحقق مع اللحاد المرتعش.

تجثو (ميرا) على قدميها وترفع بيدها ذقن الطفل بلطف قائلة له:

- أخبرني بالضبط أين كنتم حين اختفى أخوك؟

٢

انتفض (آروين) من مجلسه منتبهًا مع صراخ الجندي الذي اقتحم خيمة الحرب، كان النعاس قد غلب (آروين) أثناء جلوسه في الخيمة، بعد أن أصابه الضجر من حديث الفيدا و(غنتاق) حول تشكيل الزحف الأمثل، وبدا له أن الفيدا أصبحت خبيرة في تشكيلات الحروب من كل المصطلحات التي تتساقط من فمها، بينما يتعامل معها (غنتاق) باستخفاف حَذِر، وهو ما يزال يصر على أن الخبرة النظرية التي جمعتها الفيدا في الأشهر الماضية لا تعني شيئًا على أرض الواقع. ولكن كونه يلين في كثير من الأحيان ويوافقها رأيا كان يرفضه أول ما طُرح أشعر (آروين) بالثقة برجاحة رأيها.

لم يمنعه كل ذلك من أن يشعر بالملل حيث أنه لا يملك ما يستطيع أن يشارك به في هذا الحديث. في الأسابيع الأولى كان يخجل من غفواته المتكررة أثناء تلك الاجتماعات، لكن بمرور الأيام لم يعد يقلقه ذلك، وشجعه أكثر أن أحدهم لم يُعلق على نومه.

جاء دخول الجندي وصراخه في الخيمة خارج وتيرة عراك (هينادا) و(غنتاق) الذي تعود عليه حتى أصبح جزءًا من أحلامه.

– سيادة القائد.. سمو الفيدا.. نواجه كارثة.

تعرف (غنتاق) على الفور على زي الجندي بالشعارات المميزة التي أصرت الفيدا على وضعها، وفكر للحظة أن بالفعل تلك الأزياء لم تكن بفكرة سيئة.

– أنت من السرية الثالثة؟.. فصيلة الاستطلاع.. أليس كذلك؟

سأل (غنتاق) مؤكدًا لما يعرفه بالفعل.

– نعم يا سيادة القائد. أنا وفرقتي على بُعد يومين غربًا من المخيم.

ود (آروين) أن يسأل عن سبب إرسال فصيلة استطلاع في اتجاه الغرب على غير وجهتهم، ولكنه فكر أن الإجابة بالتأكيد ستكون بديهية لكل من (غنتاق) و(هينادا) وهذا ليس وقتا للمقاطعة. خصوصًا أن كامل انتباه القائد والفيدا كان مع الجندي في انتظار سماع المزيد.

أكمل الجندي الذي ما يزال يلهث بشدة:

– يوم أمس وصلنا لواحة في الجهة الغربية، ولاحظنا جسمًا غريبًا لامعًا على ضفة البحيرة الصغيرة التي تقع في منتصف الواحة، انطلقنا بحذر لاستكشافها ظنًا أنه سقريًا نائمًا.

لم يتمالك (آروين) لسانه مقاطعًا:

– ما الذي سيأتي بحيوانٍ سقري هنا؟.. ألا يفصل بيننا وبينهم بحر بلاد ما خلف الوادي حيث يسكنون؟

إشارة من يد (غنتاق) أسكتته، وإيماءة من رأسه للجندي جعلته يستمر في سرد حكايته.

– حين اقتربنا اكتشفنا أنه ليس بحيوان. بل كان...

تحشرج صوت الجندي وكأن حلقه الجاف يزداد جفافًا في تلك اللحظة بالذات:

– نبيلٌ حديدي.

تناولت الفيدا قربة ماء ودفعتها في صدر الجندي قائلة:

– ارو ظمأك وأكمل حكايتك.

نظرة خاطفة من عين الجندي لـ(غنتاق) وكأنما يطلب الإذن ألا يموت ظمئًا؛ وحين لم يجد أي اعتراض على وجهه تجرع سريعًا جرعتيّ ماء شعر معها أن قلبه كاد يتوقف.

لم يكن للجمهور الذي ينتظر سماع المزيد أن يتحلى بالصبر من أجل جرعة ماء ثالثة؛ فأكمل على الفور قائلًا:

– أغلبنا يا سيدي القائد لم يكن قد رأى نبيلًا حديديًّا من قبل، ولكن قائد فصيلة أكد لنا أنه واحد من النبلاء الحديديين، وإن كان قد انطفأ لمعان درعه بشكل كبير، وبدا أنه ميت. نصبنا خيمنا بالقرب منه على ضفة البحيرة، وقررنا أن نُرسل مرسالًا في الصباح لتقرروا ما الذي سنصنعه بجسد النبيل الحديدي، ولكن في منتصف الليل استيقظنا لنجد خمسة من الرجال قد سفك بهم النبيل الحديدي. الثلاثة حراس من النوبة الليلية واثنين آخرين. اكتشفنا أنه لم يكن ميتًا، ولسبب ما قد بدأ في الهجوم علينا. طلب مني الرقيب أن أهرع للسرية لأخبرهم بإرسال الدعم، وحين وصلت إلى السرية أمرني الرائد أن آتي لأُبلغك أنهم سوف يتقدمون لموقع الاشتباك، وينتظروا الدعم في حالة وجود أكثر من نبيل حديدي

هنـاك.

بغضب شديد دفع (غنتاق) بالجندي أرضًا وهو يصرخ:

- ذلـك الغبـي. كيـف لـه أن يتقـدم للاشـتباك دون أمـر مـن القيـادات، أو أمـر مبـاشر منـي؟!

والتفت بسرعة للفيدا قائلًا:

- مـا الـذي يحـدث؟ ولمـاذا هنـاك نبـلاء حديديـون هنـا؟ ألم تخبرينـي أن النبـلاء لا يتحركـون دون أمـر؟

ثـم اسـتوعب لحظتهـا أنـه عـلى وشـك أن يذكـر الخاتـم الـذي وعدتـه بـه (هينـادا) أمـام (آرويـن) والجندي.

فابتلـع لسـانه، وبصـق أرضًـا، ثـم حـاول مـرة أخـرى مسـيطرًا عـلى أعصابـه:

- لماذا يوجد نبلاء حديديون هنا؟ ولماذا يهاجمون رجالي؟

دون أن يطرف لها جفن أجابت الفيدا:

- رجالنـا يـا سـيادة القائـد. وأنـا لا أملـك إجابـة عـلى ذلـك السـؤال الآن.. أحتـاج إلى أن أذهـب لهنـاك فـورًا.

وقبل اعتراض (غنتاق) أكملت:

- أعدك أنني سأعود بذلك النبيل الحديدي معي.

صمـت (غنتـاق) للحظـات، و(هينـادا) بالفعـل تتنـاول أشـياءها مـن فـوق الطاولـة قبـل أن يقـول:

- سـأحضر لـكِ كتيبـة لتتحـرك معـك عـلى الفـور. مـا إن تصلـوا إلى

موقع الاشتباك أريد من قائد الكتيبة أن يتولى القيادة، وعزل الرائد الأحمق الذي بدأ الاشتباك.

كانت (هينادا) قد لفت خرائطها، وارتدت حزام الركوب الخاص بها، وقالت قبل أن تخرج من الخيمة:

- أوافقك الرأي تمامًا.

وفي ذيلها (آروين) الذي افترض أن يجب عليه اتباعها.

تحركت الكتيبة من فورها، و(هينادا) و(آروين) خلف الصفوف الأولى مباشرة. لم يقفوا سوى مرة واحدة للراحة، وحتى تلك المرة كانت الراحة قصيرة.

مع بدايات الفجر كانوا قد وصلوا لأطراف الواحة المقصودة. لم يكن هناك صوت يشير لمعركة ما تدور.

تساءلت (هينادا) إن كان النبلاء الموجودون قد رحلوا.

-اللعنة! شياطين الصمت قضوا ليلة حافلة.

تناولت منظارها من فوق سرج الحصان، ونظرت من خلاله لترى نصف دائرة من الدماء حول نقطة بعينها على ضفة البحيرة بها جثث ما لا يقل عن مئة جندي من جنودها، وفي منتصف تلك المذبحة ترى بوضوح نبيلًا حديديًّا يجلس فوق صخرة متكئًا على سيفه الأسطوري المغمد.

لتُكرر كصدى صوت ما قاله قائد الكتيبة:

- اللعنة.

توقفت الكتيبة لعدة ساعات عند أطراف الواحة، وقد زال سبب

التعجل ليأخذوا وقتهم في مسح المنطقة للتأكد من عدم وجود نبيل حديدي آخر، وقد تساءل قائد الكتيبة إذا كان من الضروري الاشتباك مرة أخرى مع ذلك النبيل الحديدي الذي قد محى سرية بأكملها لتوه.

كان رد الفيدا قاطعًا بأنه لا مجال للتراجع؛ فقد وعدت (غنتاق) بالعودة بهذا النبيل، ولكن كان لديها بعض الأفكار المختلفة في خطة الهجوم.

– الهجوم بعدة فصائل في نفس الوقت لن تنتج سوى مذبحة أخرى حتى وإن كان الناتج في صالحنا هذه المرة.

لم يكن لقائد الكتيبة أن يعصي أمر الفيدا، وإن كان يظهر عليه عدم الارتياح لما تطلبه منه.

فأولا هي تطلب منه أن يعاود الاشتباك بالنبيل الحديدي وهو القادم بأمر عزل للرائد الذي بدأ اشتباكًا لا طائل له. وانتهى به الأمر بمصير أسوأ من العزل.

وثانيًا أنها تطلب فقط عشرة رجال ليصحبوها للقاء النبيل الحديدي.

ولا يستطيع حتى أن يتخيل كيف يمكنه أن يعود إلى (غنتاق) دون الفيدا بعد أن يفتك بها ذلك النبيل.. ولكن ما الذي يستطيع فعله سوى الامتثال لأوامرها.

ترجل العشرة فرسان الذين ستصطحبهم الفيدا من على سروجهم. كل شاهرًا السيف استعدادًا لمواجهة ذلك الفارس الذي تغلب على كل من تتناثر دماؤهم تحت الأقدام الآن.

في توتر ينظرون لبعضهم البعض مستلهمين الشجاعة من بعضهم. وخلفهم واثقة الخطوة تأتي الفيدا حتى تأمرهم بالتوقف.

ثابتًا على صخرته لا دليل على أنه مسئول عن كل أولئك القتلى سوى قطرات الدم التي جفت على درعه، وعلى الأجزاء الظاهرة من سيفه المغمد.

في ثقة تقدمت الفيدا من النبيل الحديدي لتتحسس درعه، مستعيدة ذكريات ضبابية بعيدة، عن قصر في (زراد) كان يمتلئ بمثل هذا النبيل.

واحد مثل هذا كان يتبعها في الأسواق، ولا يفارق باب غرفتها حين تنام.. تتذكر أيضًا يوم رحيلها عن (زراد) كان آخر يوم ترى فيه حارسها الحديدي.

– سيدي الحديدي.. أأنت هنا؟

نكزة خفيفة في كتفه الصلب.

لا شيء...

دفعة خفيفة مُكررة النداء.

لا شيء أيضًا...

فقط اتسخت يدها ببعض الدماء.

في حرص أخرجت من حزامها حصوات ذهبية، ومدتها في اتجاهه، وظلت ثابتة على هذا الوضع لدقيقة كاملة دون أي تغيير. ضمت قبضتها في قوة على الحصوات حتى آلمتها، شاعرة بالإحباط وسط نظرات تعجب من مرافقيها. أغمضت عينيها متفكرة ثم فتحت

عينيها فجأة موجهة حديثها لأقرب الفرسان إليها:

- اطعني بسيفك.

نظر الفارس المعنيّ لمن حوله غير واثقٍ مما تطلبه منه؛ لتُعيد تكرار طلبها بشدة وحزم أكبر:

- اطعني بسيفك الآن.

- سمو الفيدا، لا يمكن..

قاطعته:

- نفذ ما آمرك به، فأنا أرتدي رداء الحرب.

بالطبع لم يكن لرداء حرب مهما كانت جودته أن يوقف طعنة مباشرة من سيف. فقد صُنع ليحمي مرتديه من الأسهم، وليس من قطع السيوف، ولكن مع لهجتها الآمرة وتوتر الأجواء بالفعل شهر سيفه، موجهًا طعنة متخاذلة للجانب الذي تشير إليه الفيدا بيدها.

مع اقتراب نصل السيف من جسدها أحست الفيدا أنها قد أخطأت، في توقعاتها وأغمضت عينيها وجزت على أسنانها استعدادًا للألم القادم. حينها جاء الصوت كآخر ألحان جرس الكاتدرائية يخبو في رياح (زراد).

جاء الصوت الذي لا يُنسى، صوت سيف نبيل حديدي يقطع الهواء من أمامها.

لترتسم بسمة على وجهها، الذي أغرقته دماء الفارس الذي فقد رأسه الآن.

٣

«مـا الـذي جعلـه يتعجـل بالعـودة للسـفينة؟» تسـاءل الطبيـب وهـو يشـعر بـدوار البحـر يتملكـه مجـددًا بعـد عودتـه مـن أبـراج الصمـت.

هـل يكـره طقـوس الصمـت الآن أقـل إذا مـا قُورنـت برغبتـه في إفـراغ مـا في أحشـائه والـدوار المسـتمر؟

لم يكـن يكـره الطقـوس بقـدر مـا كان يسـتغربها، يتعـوذ الملاعـين مـن شـياطين الصمـت ويفضلـون المـوت مذبوحـين عـلى لقائهـم، لكـن حـين يـأتي خـلاص الـروح مـن دونهـم يتضرعـون لهـم بالأبـراج أن يقبلـوا موتاهـم!

لـو كان هنـاك شيء واحـد يقـدره مـن دخـول كهنـة النـار لـ(زراد) فسـيكون طقـوس خلاصهـم بالنـار. بعيـدًا عـن أي الطقـوس يحقـق خـلاص الـروح؛ فالنـار فعالـة جـدًا في الحـد مـن انتشـار الوبـاء.

بعـد عودتهـم إلى متـن السـفينة دار نقـاش سريـع حـول تغيـير دفـة السـفينة في اتجـاه مينـاء (سـيجول) للتـزود، لكـن سرعـان مـا أغلـق (هيشـا) هـذا الحديـث مـع التأخـير المتوقـع في تسـليم البضائـع، وعلمـه جيـدا أن البحـارة تفضـل الذهـاب لمينـاء الخليـج للتنطـع والعربـدة.

انطلق الغليون في تجاه (ثول) مع هدوء ملاحظ لأحوال البحر زاد من توتر الطبيب؛ لأنه ترجم لنظرات غل وكراهية من البحارة تقول له «أرأيت أن كريستالاتك الملعونة كانت السبب فيما عانيناه؟».

ويكظم الطبيب غيظه مفكرًا...

بالتأكيد لم تكن الكريستالات أيها الخرفين، إنه فقط حظي النحس. الحظ نفسه الذي أتى بي للحياة بقَدَر أن أكون طبيبًا في (زراد) محتلًا طبقة لا يسكنها سواي؛ فلست نبيلًا ولست ملعونًا. والحظ نفسه الذي جاء بي في آخر أيام النبلاء، والمجيء الثاني للوباء. هو الحظ الذي جعلني أتخلى عن الكريستالة الزرقاء من أجلكم يا حمقى.

يجلس (عانـد) بجانب قدمه مسندا ظهره على جانب السفينة يتأمل الحركة على سطح المركبة. لا يعرف الطبيب إذا كان عليه أن يُقدر ولاء (عانـد) والتصاقه الدائم به، أم يلعنه حيث أنه لا يستطيع أن يختلي بذاته لحظة دون أن يجد ذلك الجرو في أعقابه.

لا يريد بالضبط الاختلاء بذاته، بل أراد أن يختلي بثقل في قلبه لم يفارقه من أن رحلوا عن الأبراج، وهمسات تحملها الريح تأتي موسوسة له، بكلمات لا يفهمها، ولكنه يعي أنها تحضه على شيء شرير يفرغ به غضبه.

نظرة أخرى على (عانـد) ليجد أنه غفا تحت قدمه، متريلًا على حذائه. في اشمئزاز يركله في كتفه موقظًا إياه، وركلة أخرى فقط لأنه شعر أنه يحتاجها.

– اذهب لترى إذا كان هناك أي لحم قد تبقى في المطبخ، وأحضر لي بعضًا منه.

محمر العينين من الاستيقاظ فجأة يقول (عاند) ماسحًا لعابه:

- لم يتبق يا سيدي سوى اللحم المُملح. أحتفظ ببعض منه في الكابينة، تريد أن أحضر لك منه؟

لا، لم يرد الطبيب أي أملاح في جسده الآن. فالماء أوشك على النفاذ، والنبيذ والميد يزيدا من معاناته مع دوار البحر. لكنه يقبل بأي شيء يبعد (عاند) عنه الآن، في تلك الحظة ولسبب ما يشعر أن ذلك الفتى هو سبب كل بؤسه ومعاناته.

- نعم، فلتحضر لي بعضًا منه، هيا اذهب.

مترنحًا انطلق الفتى في مهمته، وعاد الطبيب لتأمل صفحة المياه من أمامه. لقد شعر أن ابتعاد الفتى قد جاء ببعض السكينة والهدوء. خفتت الهمسات أو تلاشت وبدا أن الأمواج قد هدأت أيضًا وحتى أصوات البحارة بدا وأنها قد صمتت!

مرت لحظتان قبل أن يشعر (سيفاد) بأن هناك شيء غير طبيعي. فبالفعل لم يعد يسمع صوت البحارة.. بالفعل أحاط به السكون، وركدت المياه وتوقفت الرياح وكأن الغليون توقف فجأة.

لحظة ثقيلة تمر الآن و(سيفاد) يود بكل جوارحه أن يلتفت لينظر خلفه، ولكنه يود أيضًا وبكل جوارحه ألا يحتاج أن يستدير أبدًا. رغم توقف الرياح يرى أن الضباب صار يحيط بهم، حاجبًا ضوء الغروب، محيلًا ما حوله لظلام مقبض. كم من اللحظات يمر و(سيفاد) ما يزال مثبتًا نظره على الأفق تجاه صفحة المياه التي تختفي تدريجيًا، وتتحول بفعل الضباب من الأزرق المشوب بالأحمر الناري إلى الرمادي. ما أجبن قطرات العرق وهي تسارع هاربة من فوق وجنتيه قافزة لظلام البحر!

يمد يديه قاطعًا رحلة الهروب مجففًا تلك القطرات، ويخرج قناعه واضعًا إياه على وجهه قبل أن يقوم بما كان محتومًا ويلتفت ليلاقي الهول.. وقد كان الهول بانتظاره.

ما رآه منذ أيام على بعد مئات الأمتار كان في مواجهته بالضبط. فأمامه مقدمة سفينة الهول. عشرات الأيدي والصرخات التي ما تزال مكتومة تأتي من مقدمة ذلك الكابوس وقد وجد الطبيب نفسه أسفل ظل مقدمة تلك السفينة الكابوسية.

انتزع عينيه انتزاعا ليبحث عن رفاق سفينته ليجد أن كل من على السفينة قد اجتمع في كتلة واحدة في كاثول الغليون مشدوهين بنظراتهم لجزءٍ آخر من الكابوس، مادين أياديهم، وفاتحين أفواههم في صراخ صامت كمثل من علقوا في مقدمة الكابوس.

تابع نظراتهم ليجد أنهم متعلقين بثلاثة أجسام تتحرك على الجانب الخارجي لسفينة الهول، كان يبدو أن تلك الأجسام المتقدمة ناحيتهم وكأنها تزحف.

يدقق النظر دون أن يأخذ نظرة للأمام أو للخلف محاولًا أن يجبر عينيه أن تعتادا ذلك الظلام المفاجئ لتفسير ما يراه. ورغم رفضه للتصديق في البداية ولكنه عرف ما الذي الآتي إليهم بالضبط.

ثلاث (حبارم)، لا مجال للخطأ. لسن أسطورة يحكيها البحارة السكارى، هن أمامه الآن، سمع كثيرًا عن (الحبارم) التي تغوي البحارة نصفها إنسان ونصفها سمكة، ينادين عليهم ويجذبنهم للأعماق. يتحاكى البحارة عن جمالهن، وصوتهن الذي لا يقاوم.

ولكن الآن وهو يراهن فهو لا يسمع لهن صوتا، فقط تعابير الصرخات المكتومة، وكأن الجميع من حوله يجرون محادثة لا يمكنه

سماعها، ويشك بلحظة أنه فقد القدرة على السمع، فَيَدُق بعصاه على الأرض دون أن يرفع عينيه عن (الحبارم) ليتأكد أنه ما يزال يملك القدرة على السمع. يستطيع سماع دقات عصاه، وسماع صوت المياه الراكدة من حول السفينتين. ما الذي يحدث إذن؟

تقترب (الحبارم) أكثر، وتقفز إحداهن منفصلة عن جانب الهول هابطة بنعومة وبلا صوت أيضًا على سطح الغليون. تتبعها أخرى فأخرى.. ثلاث (حبارم) يزحفن بنعومة الأفاعي ناحية البحارة المشدوهين.

عاجزًا عن اتخاذ أي قرار يقف الطبيب حائرًا فيما عليه فعله، ويده لا تزال تدق العصا في آلية.

وفجأة تلتفت واحدة منهن ناحيته. يتساءل إن كانت تلك الدقات التي يصدرها بعصاه ما جذب انتباهها، ولكن حتى في تساؤله لا يتوقف عن الدق. وكأنما الأمر خارج عن إرادته. وكأنه في مشهد مرسوم يقوم فيه بدوره لا يسعه أن يخرج عن النص.

يرتسم على ملامحها غضب وهي تنظر إليه؛ ثم تلقي نظرة أخرى على أختيها وعلى الجوقة الصامتة التي في الأغلب تمثل وجبة شهية لهن. تكاد أن تتبع أختيها، ولكن مرة أخرى وكأن هناك طوق خفي في يد أحدهم، تلتفت بغضب أشد ناحية الطبيب. يستطيع أن يرى ما يفسره كألم على وجهها يختلط بغضب وهي تتجه زاحفة ناحيته.

لا تتسارع الدقات ولا تُبطئ.. على الوتيرة نفسها.. لا يجفل الطبيب ولا يتقهقر وهو في انتظار ما سيحدث. تقف أمامه على بعد قدم، وبكل غضب تطلق في وجهه صرخة صامتة ثم يختفي الألم، والغضب من فوق وجهها في لحظة ويتحول وجهها لآية من السكينة وتنفرج شفتاها أخيرًا عن صوت يمكنه سماعه.

-(سيفاد)... لماذا أحوم في هذا العالم من جديد؟

ذلك الصوت الناطق باسمه.. كم يشبه همسات الريح.

-(سيفاد).. أأنت حامل المجد؟

لا يرد الطبيب غير عالم إن كان المفترض به الرد من الأساس.

-أأُبعث على يد آخر سلالة (آنشتون)؟

مع كلماتها تلك تتوقف الدقات وقد احتاج لعصاه الآن ليدعم ثقل جسده المرتجف، ولكن قبل أن يأخذ أي ردة فعل يقفز على الحبارية ظلٌ من خارج إطار رؤيته طارحًا إياها أرضًا.

(عاند) لسبب ما لم يكن ضمن البحارة المسجونين في تعويذة (الحبارم)، كان يغرس أسنانه الحادة التي تتلألأ كضوء القمر في عنق محدثته التي تحولت ملامحها من السكينة للغضب مرة أخرى، وأخرجت صرخة مسموعة تلك المرة وهي تصارع الفتى المتشبث

بظهرها، ولكن سرعان ما توقفت صرخاتها بعد أن نحر (عاند) عنقها بالخنجر الطقسي الذي تركه معه في أبراج الصمت.

تأتي صرخات أختيها مماثلة لصرخاتها، أقرب في الصوت لصيحات الطيور البحرية منها إلى الأصوات البشرية.

ومع صرخاتهما تأتي صرخات أخرى..

البحارة.. وقد تشتت انتباه (الحبارم) تحرروا من تعويذتهن، وبدأ أسرعهم تفكيرًا في تناول كل ما يصلح لأن يكون سلاحًا وانهالوا بالضربات على الأختين المفجوعتين.

كان الجنون يسيطر عليهم فلم يتوقفوا عن الصراخ وهم يركلون ويبصقون على جثث الكائنات الرهيبة.

لم يخرجهم من جنونهم سوى صيحات (هيشا) فيهم ليتخذوا مواقعهم على السفينة كي تبدأ في الحركة.

وحتى حينها ظل بعضهم يصرخ ويستمر في ركل الأجساد غير قادر على تجاوز الصدمة

سحب الطبيب (عاند) الذي كاد البحارة أن يقتلوه وهم يمثلون بجثة (الحبارية) التي ذبحها.

كان الفتى يرتجف وسيول تنهمر من عينيه في بكاء صامت.

وضعه الطبيب أرضًا متفحصًا جسده من أي جروح.

كل الدماء تخص (الحبارية).. الفتى بخير.

ببطء يتحرك الغليون، يخرج من تحت ظل الهول وأنوار القمرين والنجوم تضيء موقع (عاند) والطبيب الذي كان على وشك أن

يسـل الخنجـر مـن يـد الفتـى.

لكنـه يتراجـع فجـأة حـين يـرى أن يـدي الفتـى مغطـاة بشـعر كثيـف وأظافـر حـادة.. لا ليسـت أظافـر.. تلـك مخالـب حيوانيـة!

ينظـر في سرعـة حولـه ليتأكـد أن البحـارة لا يزالـون غارقـين في الفـوضى قبـل أن ينـزع عباءتـه سريعـا ليغطـي جسـد (عانـد) المرتجـف.

٤

لم يعتد (خاشيد) منذ تركه للجيش أن يتلقى مهامًا تصدر له كأمر لا مجال فيه للنقاش؛ فلديه من العمر والخبرة ما هو كافٍ لأن تؤدي به اختياراته الحمقاء لميتة شنيعة، عوضًا أن تأتي نهايته بسبب مهمة كلفه بها (ساليك).

اتجاهه الآن لمنطقة موبوءة بالغيلان لم يكن يقلقه، فقد شاهد وتعامل مع الغيلان من قبل، ودائمًا كان يفكر فيها كفئران كبيرة الحجم بشعة المظهر.

فهي في تكوينها أقرب للذئاب، وإن كانت أكبر حجمًا ورؤوسها مفلطحة، يتساقط جلدٌ مهترئ من عليها، وتفوح منها دائمًا رائحة نتنة.

استغرب أول ما سمع تناثر أحاديث عن تواجدها قرب أسوار (زراد)؛ فعشش الغيلان دائمًا لا تظهر إلا في المواقع الحربية، تتغذى دائمًا على الجثث التي تُركت في أرض المعركة، وعلى الجثث المتعفنة؛ الدماء الساخنة والأجساد الطازجة لا تثير شهيتها.

ولكـن بعدمـا أخـبره (سـاليك) بهدفـه حينهـا أصبـح مـن الواضـح سـبب تواجـد الغيـلان الآن؛ ذلـك الـ..الـ... الـشيء الـذي طلـب منـه (سـاليك) أن يصطـاده كان مـن البشـاعة بحيـث أن مجـرد التفكـير بـه جعـل معدتـه تتقلـب، رغـم أنـه ليـس سريـع الاشـمئزاز.

فكـر (خاشـيد) أنـه يجـب أن يكـون حـذرًا، فمـرة أخـرى هـو غـير قلـق مـن الغيـلان، الغيـلان لا تهاجـم إلا إذا اقـترب أحدهـم مـن عشـها أو صيدهـا. وإن هاجمـت فأهـم شيء يجـب عليـه أن يتذكـره هـو ألا يعطـي الغـول ظهـره. فهـي كالسـنوريات تهاجـم مـن الخلـف.

أحدهـم قـال لـه منـذ زمـن أن أفضـل طريقـة لقتـل الغيـلان كانـت الأسـهم ذات الـرؤوس الفضيـة. ربـما كانـت تلـك أفضـل طريقـة لاصطيـاد الغيـلان بالنسـبة للنبـلاء؛ لكـن مـن أيـن لـ(خاشـيد) بكريسـتالات يمـلأ بهـا كنانتـه بأسـهم ذات رؤوس مـن فضـة؟!

عـلى كل حـال إنـه لا يؤمـن بفضـل الفضـة في قتـل الوحـوش؛ فلسـبب مـا أيًّـا كان مـا يخيفـك في الظـلام فسـيأتي مـن يقـول لـك اقتلـه بسـيف فـضي أو سـهم فـضي. في ظـن (خاشـيد) أن بائـع فضـة هـو أول مـن أطلـق تلـك الأسـطورة.

كان (خاشـيد) قـد تـرك الطريـق الرئيـسي المـوازي لأسـوار (زراد)، وتوغـل قليـلًا في الغابـة.

ألقـى نظـرة أخـيرة عـلى الطريـق الـذي تركـه مودعًـا إيـاه وهـو يـراه مـن بعيـد محمـل بوعـود الأمـان والسـلامة عـلى عكـس قلـب الظـلام الـذي يغـوص فيـه الآن.

عـلى الجانـب الجيـد فإنـه لـن يحتـاج لضـوء لإعـلان وصـول الغيـلان؛ فدائـمًا مـا يمكنـه شـم رائحتهـا مـن عـلى بُعـد عـشرات الأمتـار.

تمر الساعات وتزداد الخطوات ويتوقف (خاشيد) عن حساب الوقت الذي سيحتاجه للرجوع من ذلك الطريق. يتمنى الآن لو استطاع أن يجترع بعضًا من الدُخن لكنه يحتاج إلى كامل حواسه. وقد وصل لقلب الغابة. يخلع حذاءه ويبدأ في تسلق الأشجار واضعًا الفخاخ على الأغصان. متوقفًا كل دقيقة مع كل حفيف يعلو ومع كل نسمة محملة بعطن. «أكانت تلك رائحة الغيلان أم رائحة روث أحد الحيوانات؟» يتساءل (خاشيد) كاتمًا أنفاسه، وحين يتأكد أنه لا خطر؛ يُكمل مهمته. ببعض الأشجار يغرس الفخاخ الحادة التي يستخدمها الرعاة عادة في حماية ماشيتهم من الذئاب، ثم يأتي الجزء الأصعب وهو الانتظار، وحين تحاول صيد كائن قادم من كوابيسك فمن الجيد دائمًا ألا تظل في موقع واحد لأنه بالتأكيد سيكون في طريقه.. قادم مباشرة من خلفك.

بقدميه الحافيتين يتسلل وعينيه التي اعتادتا الظلام تبحثان عن صيده، الذي يجده ألف مرة مع كل حركة ظل وهزة غصن.

ساعات تمر ويجد (خاشيد) نفسه مفكرًا أنه قد عاش حياة جيدة وقد تجاوز الخمسين من العمر، إنه الرقم الذي لم ينجح أي رجال عائلته في الوصول إليه. ربما كان من الأفضل أن يستسلم للنوم الذي يصارعه منذ ساعات، ويموت ميتة هادئة. ربما لن تكون هادئة تمامًا لكنه يحتاج إلى أن ينام الآن وإن كان الثمن حياته.

حينها يكتشف شيئًا مهمًا، رائحة الغيلان لا تُنسى؛ فقط يكبحها العقل من الذاكرة، ولكن ما أن تأتي كما أتت الآن فأنت تعرف أن غولًا أو بتدقيق السمع مجموعة من الغيلان تقترب.

في خفة يزحف على جانب صف من الأشجار مقتربًا من مصدر

العفـن، وآمـلًا أن تكـون حسـاباته سـليمة، وأنـه الآن يـدور حـول مجموعـة الغيـلان، ولا يتجـه مبـاشرة لبراثنهـا.

ثم يراها أربعة.. لا.. خمسة غيلان.

يشـعر (خاشـيد) بصعوبـة في تتبـع خطواتهـا وقـد أصبـح خلفهـا واتجـاه الريـح مبـاشرة في وجهـه، ومعـه تتزايـد رائحـة العفـن حتـى تحـرق عينيـه.

يتفهـم حينهـا مـا كان يتداولـه الجنـود أن الغيـلان ترتـدي جلـود الجثث وهـي في الحقيقـة مجـرد هيـاكل لا يغطيهـا شيء. لكـن تلـك الرائحـة أسـوأ مـن رائحـة المـوت بكثـير.

يرفـع قميصـه ليغطـي وجهـه وأنفـه ويتابـع حركـة الغيـلان وهـو يأمـل أن يكـون ميـزان الفخـاخ التـي نصبهـا بالدقـة الكافيـة حيـث لا تنطلـق مـن أوزان تلـك الغيـلان. لم تكتمـل الفكـرة في رأسـه وهـو يسـمع انطـلاق واحـد مـن تلـك الفخـاخ. يلعـن (صاريـف)، وأدواتـه المهترئـة قبـل أن يسـحب سـيفه وينطلـق ليخـرس مـا تبقـى مـن الغيـلان قبـل أن تجـذب مـا تبقـى مـن القطيـع أو الأسـوأ، مـا جـاء اليـوم لاصطيـاده. مـع خروجـه مـن خلـف جـذع الشـجر يـرى أن الفـخ قـد انطلـق عـلى اثنـين مـن الغيـلان خطـوا فيـه معًـا. يهمـس لنفسـه «تحسـنت معـدات (صاريـف)».

ثـم يلقـي بجسـده لليسـار متفاديًـا هجمـة غـولٍ يحـاول تشـتيته، بينـما الاثنـان الآخـران يبـدآن بالالتفـاف مـن حولـه. لا يـكاد يلمـس جسـده الأرض حتـى يدفـع بيـده جسـده للأمـام وينتصـب واقفًـا ليركـض في اتجـاه الغولـين المعلقـين. متدليـان مـن فـرع شـجرة وفي حالـة مـن الهيجان حتـى أنهـما بـدءا ينهشـان في بعضهـما البعـض. يرفـع سـيفه عاليًـا وفي

حلكة دائرية سريعة يفصل رأس الغولين المعلقين ويلقي بجسده أرضًا مرة أخرى تفاديًا لانقضاضة قد تأتي من خلفه.

لا تأتي الانقضاضة لكنه لا ينتظر ليحدد موقع الثلاثة غيلان. يقف سريعًا رافعًا سيفه راكضًا في اتجاه الغول الذي انقض عليه أولًا متوقعًا ألا يكون قد تحرك من موقع سقوطه بعد.

يحدث نفسه بصوتٍ عالٍ:

- رائع يا (خاشيد). تركض في الظلام.. حافي القدمين.. رافعًا سيفك الحاد وسط عشرات الفخاخ.. ستكون ميتة أسطورية.

وبالفعل يجد الغول ما يزال في مكانه ليسدد له طعنة في رقبته. مخترقة جسده طوليا.

يشعر بهجوم قادم من الخلف وفي اللحظة نفسها يستوعب أن سيفه لم ينغرس فقط في رقبة الغول، بل في الشجرة أيضًا.

لا يصارع مع السيف متقهقرًا من موقعه في سرعة. لتنغلق أسنان الغول الذي يهاجمه على موقع كان فيه أنف (خاشيد) منذ أقل من لحظة. يصرخ (خاشيد) وهو يخرج سهمًا من كنانته:

- نعم من فضلك أريد أن أتخلص من تلك الرائحة. استئصال أنفي سيفي بالغرض.

يقولها وهو يغرس السهم الذي أخرجه من كنانته في رأس الغول.

يقفز بجسده لليمين متوقعًا أنه يتفادى هجمة أخرى، ولكن لا تأتي الهجمة. يراجع في رأسه سريعًا وهو يتمتم:

- (خاشيد) هل كانوا أربعة أم خمسة؟.. أربعة أم خمسة يا

(خاشيد)؟.. لا خمسة.. أنا متأكد.. بالتأكيد خمسة، قتلت أربعة ويتبقى أوسمهم.

ينطلق في سرعة تجاه سيفه الذي يثبت الغول في جذع الشجرة في وضعية شواء، دافعًا بقدمه جسد الغول وجاذبًا بكلتا يديه السيف ليخرج السيف بمجهود أقل من المتوقع مخلا بتوازن (خاشيد)، وجارحًا بنصله جانب قدمه ليطلق سبابًا عاليًا قائلًا:

- رائع يا (خاشيد).. رائحة دم.. هذا ما تحتاجه الآن.

يرفع سيفه مرة أخرى، ويركض في الاتجاه الذي يستطيع سماع صوت أغصان تتحطم فيه.

يستمر في الركض لعدة أمتار متتبعا الصوت شاعرًا أنه اقترب منه وفي الوقت نفسه فاقدًا لأي حس تجاهه. فهو الآن لا يملك أدنى فكرة عن شرقه من غربه، ولكن لم يكن ذلك بالأمر الهام. «فقط دعني أقتل ذلك الغول وأعود لإعادة توزيع الفخاخ». تنجلي الأشجار ويمكنه أن يرى الغول متكورًا على نفسه أمامه مباشرة. يقترب منه في سرعة، متجاهلًا ألم قدمه ويستعد

لطعن الغول قبل أن يشعر أن هناك شيء غريب. فإن ما اعتاد عليه من لزوجة تحت قدمه بسبب الجرح قد امتد ليشعر بلزوجة تحت كلتا قدميه.

نظرة سريعة لأسفل قدميه ليجد أنه يقف فيما يشبه بركة من الماء الآسن.. لا.. لم يكن ماءً بالضبط، قد كان أكثر لزوجة وكثافة، والرائحة التي ازدادت قوتها آلاف المرات.

بعض العظام المتناثرة من حوله، ويستوعب (خاشيد) أنه الآن يقف في عش الغيلان، وينفك جسد الغول عن تكوره، ليكتشف (خاشيد) أن الغيلان يمكنها أن تضحك؛ أو أيا كان ما يمكن إطلاقه على ذلك التعبير البشع الذي ارتسم على وجه الغول أمامه.

يتنهد (خاشيد) قائلًا:

- ما صعوبة أن تتذكر ألا تقترب من عش الغيلان؟ وألا تعطِ ظهرك لها؟

كان يمكنه الآن أن يرى.. ستة.. سبعة.. عشرة غيلان تتقدم من كل جانب، وكان يعلم أنه على الأقل ما يماثلها في العدد يأتي من خلفه.

- فلتكن صادقًا مع نفسك يا (خاشيد) لم تكن تلك أسوأ ميتة تخيلتها لنفسك.. ولكنك ستكون ملعونًا حقًا لو لم تأخذ هذا الوسيم الضاحك معي ليلاقي شياطين الصمت.

وبكل قوته يغرس سيفه في عين الغول الضاحك، ولا ينتظر مستديرًا بسيفه الذي ينثر الدماء ومحتويات رأس الغول على ثلاثة غيلان، والتي قفزت سويةً لتهاجمه.

يلتقي نصل السيف ببطن واحد منها ليبقرها، ويصطدم بالثاني مطيحًا به بعيدًا، ولكن الثالث يغرس أسنانه في كتف (خاشيد) ليلقي به أرضًا. في وسط العش تمامًا.

ينسلت السيف من يد (خاشيد) فيمد يسراه سريعًا ليخرج خنجره ولأقل من لحظة يفكر أن يدب نصل الخنجر في قلبه هو عوضًا عن رقبة الغول الذي يتلذذ بلحم كتفه الآن.

لكن الألم الذي تسبب فيه هذا الغول استحق معه أن يدب الخنجر في رقبته ثلاث مرات ويحاول أن ينتصب جالسًا ليرى الدائرة التي تنغلق عليه وقد شعر الغيلان أن من الأفضل أن تهجم عليه في وقتٍ واحد حتى لا يقتل المزيد منها.

من تحت أنفاسه يغمغم:

- تتعلمون سريعًا أيها الأوغاد.

مع اقترابها يفكر (خاشيد) أن تلك هي النهاية، ولو كانت له أمنية واحدة لكانت أن يكون آخر ما يراه وجهًا أفضل من وجوه أولئك الأوغاد.

توقف (خاشيد) عن الإيمان بأي من الآلهة منذ زمن بعيد، لكن حين سيفكر (خاشيد) في تلك اللحظة أنه حتى لو توقف عن الإيمان بهم فهم لم يتوقفوا عن إسداءه معجزاتهم.

ما أن أنهى (خاشيد) فكرته حتى وجد اثنين من الغيلان في منتصف الدائرة أمامه مباشرة ينقسمان إلى نصفين يفصل بينهما نافورة من الدماء، ومن بين تلك الدماء تولد فتاة نارية الشعر، وهيئ له أن عينيها أيضًا ناريتين. تتقدم في اتجاهه موجة سيفها ناحيته. كانت

تركض بسرعة لا مثيل لها. لم يكن يمانع حقًا لو كان ذلك السيف موجه إلى قلبه، لكنه لم يكن كذلك. فما سمعه ولكن لم يره كان نصل سيف (ميرا) يخترق غولًا ينقض عليه من الخلف.

لم تكن (ميرا) تتوقف لتعد قتلاها مثل (خاشيد). فقبل التقاء السيف بجسد الغول كان جسدها يتحرك في اتجاه هدفها التالي.

سلاح سيفها منذ أن بدأت المعركة لم يتعرض للهواء لأكثر من ثانية ما بين أحشاء غول، لآخر. تسعة غيلان مقسمة أجزائها على أكثر من عشرين جزءًا كانت متناثرة من حولها هي و(خاشيد) قبل أن يستوعب (خاشيد) وجود (جيرد).

كان (جيرد) في نفس تمكن (ميرا) بالسيف وإن كانت حركات سيفه قصيرة ويفضل التلاحم عن قرب.

بدأ بعض الغيلان في الهرب - وإن ظل القليل منها - وقد أصيبت بجنون الدم. لتقترب (ميرا) منه، ويميز (خاشيد) زي كهنة النار، وتسأله:

- من أنت بالضبط؟ وما الذي تفعله هنا؟

قبل أن يتمكن (خاشيد) من إجابتها؛ من خلف الأشجار بدأت الغيلان التي هربت في العودة، ومن خلفها اقترب ظلٌ يقارب حجم (جيرد).

قال (خاشيد):

- (خاشيد)، وأنا هنا من أجل تلك الـ(أغوش).

مشـيرًا بيـده لظـل يتبـع الغيـلان في ظـلام الغابـة مقتربًـا منهـم لتتضـح في النـور ملامـح الـ(أغـوش) العجـوز بهيئتهـا المرعبـة التـي يخيفـون بهـا الأطفـال.

تتقـدم بثدييهـا المترهلـين، وأنفهـا المعقـوف، ويمتـد أمامهـا مـا تظنـه كيـس جلـدي ولكنـه جـزء مـن تكوينهـا البشـع تخـزن فيـه كل سـمومها.

– أما نحن فهنا من أجل هذا.

وتشـير (مـيرا) بسـيفها إلى شيء معلـق في ربـاط عـلى وسـط الـ(أغـوش) العجـوز. وبتدقيـق النظـر، يـرى (خاشـيد) أنـه رأس آدمـي مفصـول لطفـل صغـير.

٥

تتحرك (ميرا) دون إبطاء في اتجاه الكابوس وهي تصرخ:

- ما هذا الشيء؟

يتجاهل (خاشيد) سؤالها صارخا في سرعة:

- لا تطعنيها في بطنها.

تبطئ (ميرا) من تقدمها للحظة مغيرة وضعية السيف لأعلى وهي تكرر سؤالها:

- ما هذا الشيء؟

ينقض (خاشيد) على كنانته مخرجا سهما يختلف وزنه ونحته عن بقية الأسهم وهو يقول:

- (أغوش)، من سلالة «أمهات الغيلان»، وذلك الكيس المتكون أمام بطنها مليء بألعن السموم. قليلٌ منه قادر على تسميم نهرٍ بأكمله.

يمد يده ناحية سلك معدني طويل قد وقع منه أثناء عراكه مع الغيلان، ولكن لحسن الحظ أنه قد وقع قريبًا منه. لو ضاع في مكان أبعد من ذلك بمترٍ لفقده في الظلام بين كتل الدماء وأجزاء الغيلان.

يولج السلك المعدني في تجويف دائري بقرب ريشة السهم ستمر في فرد السلك المعدني، بينما ينضم (جيرد) لـ(ميرا) صادين موجة الغيلان عنه. و(ميرا) تصرخ دون أن تنظر خلفها:

- يبدو أن لديك خطة محددة للتخلص من ذلك الشيء. أنا لا أعرفك، ولا أثق في رجاحة عقلك تمامًا...

يقاطعها غولان يهاجمانها في آنٍ واحد. في سرعة تهوى على رقبة أحدهما بقبضة السيف، ثم تدفع نصل السيف لليمين مخترقة جسد الآخر. ولزيادة التأكيد تحطم رأس من دقت عنقه بقدمها وهي تكمل:

- لديك أقل من عشرة أنفاس قبل أن أحرق ذلك الشيء ومعه غيلانه.

يأتي صوت (جيرد) للمرة الأولى مؤمنًا على حديثها:

- لن نسمح لتلك الـ(أغوش) بالاقتراب حتى من أسوار (زراد).

مستمرًا في عمله الدقيق يقطع (خاشيد) السلك المعدني بعد أن وصل للطول الذي يرغبه، ثم أولج الطرف الآخر في سهمٍ مماثل، ويرد في لهجة تبدو مليئة بالضجر:

- لا تقلقا، لا حاجة لتضحيات بطولية؛ فالـ(أغوش) يستحيل أن تقترب من أسوار أي مدينة.

ينهي حديثه وهو يلقم قوسه بسهمه، قائلًا بصوتٍ عالٍ:

- والآن إذا تكرمتا.. انبطحا.

بآلية تامة وكأنما تدربا على ذلك مئات المرات، ينفصل (جيرد) و(ميرا) ملقيان بجسديهما على الأرض كل في اتجاه مختلف حتى قبل أن ينظرا ليريا لماذا طلب منهما الانبطاح.

ترى (ميرا) السهم يمر من فوق رأسها ولكن يبدو أنه لا ينتهي بفعل السلك المعدني المربوط به، وقبل أن يصل إلى هدفه كان (خاشيد) قد أطلق بالفعل السهم الثاني. في جذع الشجرة الواقعة بالضبط بجوار الـ(أغوش). ويقترب السلك المعدني بسرعة كبيرة بالضبط تجاه رقبة الـ(أغوش).

يبتسم (خاشيد) في ثقة، وهو يرى الـ(أغوش) تحرك رأسها لتبتعد عن موقع انغراس السهم الأول، دون أن ترى السلك المعدني. خفقة قلب أخرى وتنفصل رأس الـ(أغوش) عن جسدها، ولكن مع انغراس السهم الثاني في جذع الشجرة المقابلة يكتشف (خاشيد) أن عضة الغول قد أثرت على دقة تصويبه؛ فالسهم الثاني جاء أعلى من اللازم ليطيح بنصف أنف الـ(أغوش)، لترسل صرخاتها الحيوانية مرهبة حتى الغيلان من حولها لتتقدم كلها ناحية الكاهنين و(خاشيد)، ولكن من دون نية للهجوم.

يتحرك كلٌ من (جيرد) و(ميرا).. (جيرد) صانعًا سدًا أمام الغيلان الراكضة، و(ميرا) وللمرة الثانية في أقل من يوم مُنقذة (خاشيد) من أن يدهسه قطيع الغيلان.

ما أن انتهى هروب القطيع الذي لم يكن بالعدد الكبير الذي ظنه في البداية.

قال (جيرد):

- الـ(أغوش) هربت، يجب أن نتتبعها الآن.

جاء صوت (خاشيد) واهنًا من كل الدم الذي كان يفقده دون توقف خلال المعركة القصيرة:

- لا.. (أغوش) الغابة يجب التحضير لذلك، فلو أطلقت سمها خوفًا من مطارديها الآن فلن تقتلنا نحن فقط.

لم يستطع حتى (خاشيد) إكمال ما يود أن يقوله، وقد فقد الوعي بالفعل.

التفت (جيرد) ونظر حوله موجهًا حديثه لـ(ميرا) التي ما تزال متخذة وضعية دفاعية على الأرض بجانب جسد (خاشيد) المسجى.

- هل سيجب علينا حمله لخارج الغابة؟

قالت (ميرا) وقد انتصبت واقفة:

- أعتقد أن عليك حمله بعيدًا عن هنا، فلا نعلم لو كانت الغيلان ستعود أو لا، ولكن يجب عليّ أن أكمل مطاردة.. ماذا قلت اسمها مرة أخرى؟

يتنهد (جيرد) غامدًا سيفه وهو يقول:

- تُدعى الـ(أغوش)، ولا.. لا يمكنك متابعتها وحدك أنا أثق أنك يمكنك قتلها بسهولة، ولكن أولًا نحن لا نعلم ماذا يوجد في هذه الغابات الملعونة، يجب أن يكون لديك من يحمي ظهرك. اثنان.. هذا الرجل يبدو عليه أنه يعلم ما الذي يفعله. دعينا نستخلص منه قصته، ونعود من أجل تلك الـ(أغوش) متخذين كافة

احتياطاتنا حتى لا نسبب أي ضرر لسكان (زراد).

لم تكن (ميرا) بالضبط في أنسب حال لتجعل (جيرد) يعدل عن رأيه؛ فإن قتال الغيلان وحده كان يثير غثيانها، أما مع تلك الـ(أغوش)، فيمكنها الانتظار حتى تأخذ حمامًا ساخنًا، وتعود إليها.

ساعد (جيرد) (ميرا) في رفع جسد (خاشيد) على ظهرها، رابطة يديه حول عنقها، وساحبة إياه خلفها.

لم يكن هناك داعٍ لمرورهم بكوخ اللحاد الآن. فمن الأفضل للفتى أن يظن أن أخاه قد فُقد أو هرب في الغابة. واللحاد نفسه لن يهتم كثيرًا. كان ذلك المنطق الذي اتفق عليه كلٌ من (جيرد) و(ميرا) مقرران أن يتجها إلى سجن القلعة.

كان المهم بالنسبة لهما الآن أن يجيبا عن سؤال الملك «لماذا تتزايد الغيلان في الغابة وحول أسوار (زراد)»؟

وكإجابة مبدئية: لأن هناك (أغوش) - أو أكثر من واحدة هم لا يعلمون بعد - في الغابة.

من أين أتت؟ ولماذا؟ يبدو أن ذلك الـ(خاشيد) لديه معلومة حيث أنه كان يعلم بوجودها ومتحضرًا لملاقاتها.

أرادت أن تلقي به (ميرا) في واحدة من الزنزانات بسبب رائحة أنفاسه التي اضطرت لتحملها طوال الطريق أكثر من أي شيء آخر، ولكن (جيرد) أقنعها بضرورة أن يبقى في مستشفى السجن، طالبين من (داليف) مراقبته دون أي تفاصيل أخرى قبل أن يتجه كلٌ منهما لحرق ملابسه وأخذ حمامٍ ساخنٍ مستحق.

احتاجت (ميرا) إلى ستة أيام هي وفرقة من كهنة النار لتطهير

أعشاش الغيلان التي وجدوها، واصطياد بعض الغيلان التي تبقت، ولكن لم يتمكنوا من إيجاد الـ(أغوش) أو تتبعها هي ومن هرب من الغيلان.

حينما قررت (ميرا) أن تعود لـ(خاشيد) لاستجوابه، وقد كان لا يزال محتجزًا في مستشفى السجن، حين وصلت إلى غرفة (خاشيد) وجدته هو و(داليف) منغمسين بلعب واحدة من ألعاب النرد سويًّا، قاطعت رهانهما متسائلة:

- كيف تأتى له الخروج من الفراش بجسده المثخن بالجراح؟! ثم على أي شيء يراهن بالضبط؟ لقد فتشت كل حاجياته، ولم يكن يملك كريستالة واحدة!

أشار (خاشيد) بإصبعه:

- كونك كاهنة نار شديدة البأس، لم يقتل أخلاق الأنثى بداخلك تمامًا.

قالها ليمد يده في ملابسه الداخلية مخرجًا قطعتين من الكريستال.

في ذهول تمتمت (ميرا):

- كيف لذلك! الكريستال المهشم لم يقم بقطع...؟

تسكت للحظات ثم تتابع:

- لا أريد أن أعرف. وأنت...

مشيرة لـ(داليف):

- أتريد حقًا أن تكسب مثل هذا الرهان؟

نقل (داليف) نظره بين يد (خاشيد) الممتدة بالكريستالات وأرقام

النـرد عـلى الأرض التـي كانـت تعـده بمكسـب قريـب، وليـد (خاشـيد) الأخـرى التـي يعبـث بهـا في ملابسـه الداخليـة وقـال بانهـزام:

– لا.. ذلك موعد راحتي على أي حال.

تاركًا الغرفة لها.

يهز (خاشيد) كتفيه قائلًا:

– يا خسارة! أرجوك لا تنس أن تحضر لي الدخن الذي وعدتني إياه.

يهز (داليف) رأسه متجهًا نحو الخارج.

ينقل (خاشيد) انتباهه لـ(ميرا) التي عقدت ذراعيها ويقول:

– منقذتي، أدين لك بالكثير.

تقول (ميرا) في سرعة:

– جيـد، واسـترداداً لذلـك الديـن أريـد أن تجيـب عـن أسـئلتي بصراحـة، ودون أي ألاعيب.

يرفع (خاشيد) يديه مستسلمًا، راكلًا النرد الذي على الأرض:

– لا ألاعيب.. أترين؟

– مـاذا يكـون ذلـك الـشيء الـذي يصاحـب الغيـلان؟ ولمـاذا اقتربـت الغيـلان مـن أسـوار (زراد) بذلـك الشـكل؟

– أنـا لا أعـرف إجابـة صادقـة عـما تسـألينه، أنـا أعـرف أن الغيـلان امتلكـت تلـك الجـرأة لأنهـا تتبـع الـ(أغـوش)، فهـي مـن فصيلـة مخلوقـات يُطلـق عليهـا «أم الغيـلان»، وواحـدة مـن أسـوأ أنـواع تلـك الفصيلـة، فلديهـا غـدة سـامة تنتـج أكثـر أنـواع السـموم فتـكًا، وغذاؤهـا

عـادة يكـون عـلى صغـار الحيوانـات وصغـار البـشر، لكـن مـا الـذي اجتذبهـا لتحـضر غيلانهـا لتـأتي بالقـرب مـن أسـوارنا؟ فذلـك كـما قلـت آنفًـا مـا لا أعرفـه.

– دعنـا نتحـدث إذن عـما تعرفـه.. مـن طلـب منـك أن تلاحقهـا وكيـف تمكنـت مـن الوصـول إليهـا؟

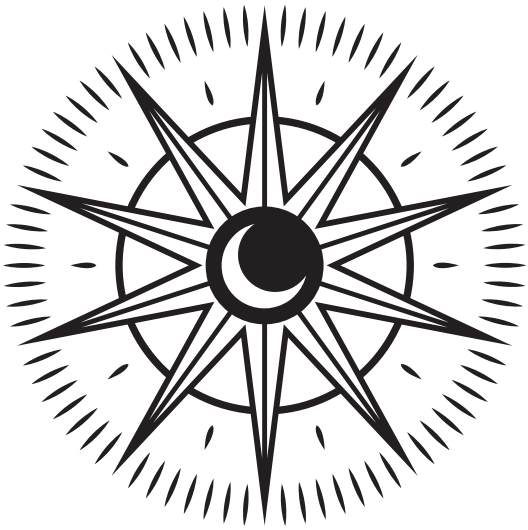

الفصل الخامس

١

دامت التحولات التي طرأت بـ(عاند) ليوم وليلة، لم يفارقه الطبيب طوالها. ولم يسمح له بالخروج من قمرتهما المشتركة لثلاثة أيام بعدها ليتأكد ألا تتكرر تلك التحولات.

أعجب ما في الأمر كان حين استعاد (عاند) وعيه، وبدأ الطبيب في توجيه أسئلته حول ما حدث، لم يكن الفتى يملك أي فكرة عما يقوله الطبيب. هو يتذكر (الحبارم)، ويتذكر الهول الذي ألقى بظله فوق سفينته، ولكنه لا يتذكر أي شيء غريب حدث في جسده.

- يوم التقينا قلت لي أنك هربت من كاتدرائية القمر، لكنك لم تُخبرني كيف انتهى بك الحال بين رهبان القمر؟

بمجرد ذكر الكاتدرائية والرهبان بدا وكأن الدم قد هرب من وجه (عاند)، وجاءت كلماته متلعثمة غير واضحة، وإن استجمع منها الطبيب أنه لا يتذكر ما قبل الكاتدرائية.

-هــل كان لديــك إخــوة أو.. أو أي..؟ لا، دعــك مــن ذلــك. كنــت تتحــدث بلســان (الــداز) أم بلســانٍ آخــر؟

«أنت تسأل الأسئلة الخاطئة».

انتفــض جســد الطبيــب فقــد جــاءت تلــك الكلــمات تحملهــا الريــح بــذات الصــوت الــذي تلبــس الحباريــة قبــل أن يصرعهــا الفتــى. ظهــر الخــوف في عينــي (عانــد) مــع انتفاضــة (ســيفاد).

التفت الطبيب له ليسأله:

- هل سمعت هذا الهمس الملعون؟

هز الفتى رأسه وقد ازداد خوفه.

- أي همس؟

«لا تسأل الفتى عني بل اسأله عن المذبح...».

يلتفت الطبيب حول نفسه صارخًا:

- أي مذبح؟

لتتحــول نظــرات الخــوف في عينــي (عانــد) إلى هلــع، وجســده المرتجــف يحــاول النــزول مــن عــلى الفــراش.

يسارع الطبيب لتهدئته ممسكًا بكتفيه ليظل مكانه في الفراش.

يأتي الهمس قائلًا:

«طرفُ خيط.. بداية جيدة».

يصــارع (ســيفاد) رغبتــه في الــصراخ مــرة أخــرى ورغبتــه في معرفــة مصــدر تلــك الهمســات صابًــا اهتمامــه عــلى ردة فعــل الفتــى مــن ذكــر

المذبـح.

محـاولات الطبيـب لتهدئـة الفتـى لم تنجـح في شيء سـوى إثـارة المزيـد مـن الخـوف في قلبـه؛ حيـث أن (عانـد) لم يعتـد أن يهتـم الطبيـب لأمـره كثـيرًا ذلـك الاهتـمام المفاجـئ، وذكـر المذبـح أصـاب الفتـى بالخـوف أكثـر مـن ليلـة لقـاء الهـول.

تسـتمر الهمسـات الملعونـة في رأس (سـيفاد) وهـو غـير عـالم، وتحملهـا الريـح وهـو وحـده مـن يسـمعها، أم أنهـا هـلاوس عقـل أصابـه ركـوب البحـر بالخبـل.

«لا تفقـد الأمـل الآن.. الفتـى لديـه الكثـير ليخـبرك إيـاه، وأنـت لا تهلـوس يـا (سـيفاد)، لا تشـك بعقلـك أبـدًا؛ فأنـت حامـل المجـد».

تستمر الهمسات حتى يأتي صوت (عاند) المرتعش مقاطعًا إياها:

– الرهبـان أكـدوا... أنهـا مجـرد أحـلام.. كاذبـون.. كلهـم كاذبـون.. مقيـدًا عـلى المذبـح كان هنـاك كل يـوم...

يحاول (سيفاد) أن يتحكم في نبرة صوته وهو يستوضح من الفتى:

– أيهـا الفتـى أنـا أحـاول أن أسـاعدك الآن، مـا تقولـه لي.. مهـم جـدًا كي أسـتطيع مسـاعدتك. بحـق إلـه القمـر أو النـار أو أيًـا كان مـا تؤمـن بـه.. رتـب كلماتـك وقُـل لي مـا الـذي كان يحـدث في الكاتدرائيـة بالضبـط.

***

منذ وعى (عاند) وهو لا يعرف بيتًا سوى ملحق الكاتدرائية الذي يعيش به مع عدة أيتام آخرين مقاربين له أو يماثلونه في السن. لا يعرف عائلة سوى رهبان القمر، وكبير تلك العائلة كان الراهب الأعمى.

لا تَعْرِض عاداته من طلوع الشمس إلى غروبها عن دائرة إطعام الدجاجات، وتنظيف وإعداد الطعام، والتعبد ونسخ نصوص القمر.

حياة بسيطة تنتهي بأن يصبحوا هم ذاتهم رهبانًا للقمر في يوم ما. ربما كان الرهبان يعيبهم الشدة الزائدة في التعامل خصوصًا مع الأطفال الجدد الذين لم يعتادوا بعد على قوانين الكاتدرائية، وأهم تلك القوانين هو ألا نتواجد في الليل عند المذبح الأعظم؛ فقط في الصباح الباكر بعد أن ينتهي الرهبان بأنفسهم من تنظيف المذبح مشرفًا عليهم الكاهن الأعمى بنفسه بعد ذلك يدخل عليهم (عاند) وآخرون ليساعدوا ويخدموا الحجيج القادمين من كل الممالك.

لم يخرج (عاند) أبدًا من (زراد)، ونادرًا ما خرج في صحبة الكاهن الأعمى للميناء أو للسوق المجاورة، ولكنه وبرغم انعدام خبرته عما يوجد في العالم وفي الممالك من حوله فهو متأكد أن لا يوجد مكان بفخامة ولا بجمال المذبح الأعظم الذي يأخذ أنفاسه كل مرة يخطو بداخله.

المشكلة بدأت حينما راوده كابوس مزعج. كان في الكابوس يرى نفسه في المذبح بعد منتصف الليل وحيدًا محاطًا بالأعمدة الرخامية العظيمة ولكن كان حرم المذبح من دون سقف، يغمره ضوء

القمريـن المكتملـين، محـولًا جنباتـه إلى مرايـا تعكـس هـذا الضـوء والجـمال في جميـع الأنحـاء.

فقـط شيء واحـد رهيـب كان يعكـر هـذا المنظـر.. ذلـك الذئـب الضخـم ذو الأنيـاب البيضـاء الطويلـة الملطخـة بالدمـاء.

ثابـتٌ أمامـه، وأطرافـه الأربعـة مسلسـلة، ولكـن لا يبـدو عليـه الانزعـاج؛ فقـط ينظـر إليـه ولا شيء آخـر.

تكـرر الحلـم بـكل تفاصيلـه لعـشر ليـالٍ، وبعدهـا تغـيرت تفصيلـة مهمـة؛ قطـرات الدمـاء صـارت بركـة مـن الدمـاء وكل يـوم تتسـع البركـة أكثـر فأكثـر، بعـد مـرور شـهر مـن ذلـك الكابـوس المتكـرر قـرر (عانـد) أن يخـبر أحـد الرهبـان لعلـه داء قـد أصابـه يحتـاج لعـلاج، وقتهـا لم ينطـق الراهـب بكلمـة فقـط أخـذه مـن يـده للراهـب الأعمـى كـي يكـرر لـه حلمـه.

ابتسـم الراهـب الأعمـى كعهـده وقـال لـه أنـه سـيقضي الليـالي القادمـة معـه في غرفتـه في أعـلى أبـراج الكاتدرائيـة حيـث لا تسـتطيع شـياطين الأحـلام الوصـول إليـه.

ثـمانٍ وعـشرون ليلـة مـرت دون كابـوس، قضاهـا (عانـد) عـلى أرضيـة غرفـة الراهـب الأعمـى.

في الليلـة التاسـعة والعـشرون؛ أتـاه الكابـوس مـرة أخـرى؛ تلـك المـرة الدمـاء غطـت كل شيء، وكان هنـاك ضيـوف في الحلـم.. اثنـين مـن إخوتـه رآهمـا في الحلـم.

عارييّ الجذع، وذراع كل منهما تسيل منها الدماء.

صحـا يومهـا متأخـرا وأول مـا قـرره كان أن يحكـي للراهـب عـن عـودة

الكوابيس مرة أخرى. غير ثيابه سريعًا متجهًا لحرم المذبح الأعظم وحين وصل اكتشف أنه كان مخطئًا، هو لم يستيقظ متأخرًا؛ لقد استيقظ أبكر من عادته ورأى الرهبان في حرم المذبح، ورأى الرهبان ينظفون الدماء من حوله.

لم ينتظر ليرى أكثر خوفًا من أن يلمحه أحدهم. عاد لعنبر نومه القديم باحثًا عن إخوته اللذين رآهما في الحلم. لم ينجح في العثور عليهما، وقد جاء وقت بدء القداس، لكنه قرر التعلل بالمرض وعاد لغرفة الراهب متأكدًا أنه لن يأتي للغرفة حتى موعد النوم؛ خاصة وأن ليلتها كانت ليلة اكتمال القمرين.

تظاهر (عاند) بالنوم برغم استحالة ذلك مع كل أصوات أجراس الكاتدرائية التي تصدح احتفالا باكتمال القمرين.

دس رأسه تحت الخيشة التي يستخدمها كغطاء حين لمح اثنين من الرهبان قادمين نحو غرفة الراهب الأعمى. كان صوتهما عاليًا؛ كي يستطيعا التواصل وسط أصوات الأجراس.

- ألم تقل لي أنه لم يحضر العشاء؟ كيف له أن يغط في النوم هكذا وسط كل تلك الأجراس إذن؟

يأتي الصوت الثاني مجيبًا: ربما لم أنتبه إليه؛ لقد كان يومًا فوضويًا بكل أولئك الأغراب في الكاتدرائية.

- أنت محق بالتأكيد كان هنا، فهو نائم كالجثة الهامدة.

لا يبد (عاند) أي ردة فعل حين شعر بواحد منهما يرفع جسده حاملًا إياه على كتفه وعائدين به إلى الأسفل.

- لقد بدلنا الخلطة بشيء أقوى اليوم بالذات؛ خصيصًا من أجل

تلـك الأجـراس.

يقولهـا الراهـب الـذي يحملـه، ولكـن يبـدو أن الثـاني قـد سـبقه كثـيرًا فـلا يسـتطيع (عانـد) تمييـز رده.

يأمـل (عانـد) ألا تفضحـه ضربـات قلبـه العاليـة، وصـدره ملاصـق لجسـد الراهـب.

صـار (عانـد) يعـرف جيـدًا إلى أيـن يتجهـون.. لم تكـن تلـك أحـلام، كان كل مـا يـراه في كوابيسـه حقيقـي، يبـدو أنـه سـيقدم أضحيـة لذلـك الحيـوان الـذي يبقونـه في الأسـفل، ولا يوجـد شيء يسـتطيع فعلـه.

يميـز (عانـد) صـوت أبـواب حـرم المذبـح الضخمـة وهـي تُفتـح، ولكنه لا يجـرؤ عـلى فتـح عينيـه حتـى لا يعـرف أحدهـم أنه مسـتيقظ.

كان تصميـم الحـرم يجعلـه المـكان الوحيـد في الكاتدرائيـة وربـما في (زراد) كلهـا الـذي لا تصـل إليـه بشـكل كبـير أصـوات الأجـراس.

استطاع أن يسمع صوت الراهب الأعمى بوضوح وهو يقول:

– فلتحـضروه.. اليـوم هـو اليـوم الموعـود. آخـر مـا أريـده هـو حـدوث خطـأ، وتأكـدوا أن...

طرقـات عـلى البوابـة الخارجيـة تقاطـع الراهـب، يزفـر الراهـب متضايقًـا وهــو يقول:

– ضعـه جانبًـا الآن.. تعـال معـي، فالطبيـب قـد أحـضر آخـر متطلبـات الطقس.

يشـعر (عانـد) بالراهـب يسـجيه أرضًـا عـلى الأرضيـة الرخاميـة البـاردة، وخطواتـه تبتعـد. في بـطء شـديد يفتـح عينيـه محافظًـا عـلى انتظـام نفسـه

في حالة كان هناك أحد الرهبان قريبًا منه.

يأخذ المشهد بسرعة محافظًا على ثباته وثبات أنفاسه.. كان الاثنان الآخران اللذان حلم بهما أو بالأصح رآهما ليلة أمس مربوطان بسلاسل حديدية، أحدهما فوق المذبح والآخر بجواره على الأرض.

أربعة رهبان آخرين كانوا على الجانب الآخر من الحرم؛ والراهب الذي كان يحمله كان يتقدم الراهب الأعمى في اتجاه الباب الخارجي.

بحرص شديد يلتفت برأسه ليرى أن الباب الذي أتيا منه لم يكن أُغلق بالكامل، بأبطأ قدرة بشرية ممكنة يجلس على أربعة زاحفًا حتى فرجة الباب راجيًا أن يستطيع المرور عبرها. متلفتًا مع كل بضعة خطوات ليتأكد أن أحدهم لا ينظر في اتجاهه. بالفعل يستطيع أن ينساب من الفرجة الصغيرة، ويفكر للحظة إن كان عليه إغلاق تلك الفرجة خلفه، ولكن يقرر أن المخاطرة أن تصدر صوتًا أكبر من أن يفعل ذلك.

يقوم واقفًا على قدميه، ويتحرك بسرعة شاكرًا الظروف أنه حافي القدمين ليجد النافذة المطلة على الجانب الغربي من الكاتدرائية وتحتها بالضبط مائدة تبرعات الطعام الذي أتى به مئات الحجاج اليوم. برغم ما كان أمامه مما لذ وطاب من الطعام وهو لم يذق شيئًا منذ ليلة الأمس؛ إلا أنه يستخدم أكوام الطعام كسلمٍ يطأ عليه بقدميه ليصل للنافذة.

يتأوه من الألم مع ارتطامه بأرض الباحة الخارجية الغربية مع نزوله من النافذة، يبدأ في الركض غير عالم في أي اتجاه يجب عليه الذهاب. كل ما عليه فعله هو أن يخرج خارج أسوار الكاتدرائية.

يقوم بذلك بالفعل، ويقف مستندًا بجوار السور، ملتقطًا أنفاسه

وفجأة يمر بجانبه ظلًا يمشي في سرعة، مع رؤيته يكاد قلبه أن يتوقف؛ فقد كان ظلًا لرجل له رأس طائر ذو منقار طويل.

لا يولي له الرجل اهتمامًا متابعًا طريقه، وخلفه طفلين يماثلانه في العمر. دون تفكير يلحق بهم غير عالم إلى أين ستأخذه الأقدار.

***

انتهى (عاند) من قصته وقاوم (سيفاد) شعورًا كاد يتملكه بتأنيب الضمير. أولئك الطفلين لم يتبناهما الرهبان كخدم، بل يريدون أن يحولوهما إلى مستذئبين.

كان (سيفاد) يعرف جيدًا هوس رهبان القمر بالمستذئبين، وكيف أنهم يلفون العالم كله شرقه وغربه بحثًا عن الكريستالات التي تحوي دماء الذئب الأول - نبي القمر في أساطيرهم.

يمد (سيفاد) يده مشمرًا كم رداء الفتى حتى يظهر أول ذراعه ويرى هناك أثر الحقن.

«لا بد وأن راهبهم الأكبر يرتدي جلود الذئاب ويحقن هذا الفتى والأيتام المساكين الآخرين بتلك الدماء الفاسدة».

لقد رأى كريستالة أو كريستالتين يقال أن بهما دماء الذئب الأول، ولكنه يشك أن يمكنهم خلق مذئوب بتلك الطريقة.

كل ما يستطيعون فعله هو الوصول إلى حالة مثل حالة هذا الفتى.. تحول لا يكتمل أبدًا بسبب عبثهم في جسده لسنوات. فقط المذؤوبين

الملعونين هم الذين يجوبون الخلاء، ولكن مستذئب القمر حامي الكاتدرائية وأتباعها لا يوجد إلا في أساطيرهم، وأغلب الظن أن الدماء التي حقن بها الفتى وإخوته جاءت من أحد أولئك الملعونين.

يأتي الهمس مرة أخرى:

«اقتربت كثيرًا.. ولكن ليس بعد».

يتجاهل الطبيب الصوت أو الهلوسة. هو حقًا لا يعرف.

يربت على يد الفتى، قائلًا له:

- أعدك أني سأخلصك من تلك اللعنة.

٢

تأملت (هينادا) الخرائط المفرودة أمامها على المائدة التي تتوسط خيمة الحرب في تركيز شديد، ومن خلفها ثابتًا كتمثال وقف النبيل الحديدي، وقد صار درعه أكثر بريقًا وإن لم يكن بالضبط في كامل زهوه الذي تتذكره (هينادا) منذ طفولتها في (زراد) وبجانبها يقف (آروين) متفحصًا النبيل الحديدي بعينيه كل ثانيتين.

- وماذا لو احضرناها مع الإمدادات القادمة الخاصة بالأسبوع القادم؟

حين لم يرد (آروين) رفعت (هينادا) عينيها لتجد أن (آروين) شاردٌ تمامًا في تفاصيل النبيل الحديدي.

بعصبية تقول:

- (آروين) بحق الخسوف.. هلّا أعطيتني انتباهك للحظات؟!

انتفض (آروين) شاعرًا بالحرج أن ذات العينين المدهامتين توبخه كما لو كانت أمه.

- عذرًا يا (هينادا).. آاا.. ماذا كنا نقول؟

يتساءل وهو يميل بجسده متخذًا موقعًا بجانب الفيدا حتى لا يشغله وجود النبيل الحديدي.

تطلق (هينادا) زفيرًا وهي تُكرر مُشيرة بإصبعها لأحد طرق الإمدادات القادمة للجيش: كنت أقول أننا يمكننا إخفاء الشحنة في إمدادات الغذاء القادمة الأسبوع بعد القادم.

في استغراب سأل (آروين):

– اعذريني يبدو أني سهوت أكثر من اللازم، ولكن تلك الإمدادات ستأتي من خارج (ثيام)، كيف سنأتي بالذهب من هناك؟

لوهلة شعر (آروين) مع ذكر الذهب أن النبيل الحديدي قد تحرك من ورائه؛ فالتفت بسرعة ليجده ثابتًا كما كان.

يعود بنظره لتلتقي عيناه بعيني (هينادا) التي تتجاهل توتره الواضح من النبيل الحديدي وتقول:

– ذلك هو الأمر، يمكنني أن أرسل طيرًا لـ(ثيام) لتحريك الشُحنة لتلك المدينة، ولكن ستصل في غضون عشرة ليالٍ، وإذا تحركت أنت الآن ستكون في المدينة لاستقبالها في الوقت نفسه.

يهز رأسه في عدم اقتناع:

– مشكلتين فيما تقولين؛ أولًا حين تصل الإمدادات للمعسكر كيف سيمكنك أخذ الذهب دون أن يكتشفه (غنتاق) أثناء الجرد والتوزيع. هناك العديد من المآخذ على ذلك الرجل، ولكن إدارته لتلك الحرب ليست منها؛ فهو يدقق في كل شيء بنفسه.

رفعت (هينادا) إصبعها مقاطعة إياه وقالت:

– ذلك أمر سهل؛ فتلك الإمدادات ستمر بالمعسكر فقط؛ ولكنها موجهة في الأساس إلى مخيمات الاستطلاع التي تسبقنا، لذا نستطيع الحصول على الشحنة أثناء استراحة الجنود.

لا يعترض (آروين) ولكنه ينتقل إلى نقطته الثانية:

– حسنًا، وماذا عن انتقال شُحنة ذهب خالص بهذا الحجم من (ثيام) إلى المدينة. شُحنة مثل تلك في العادة نطلب من رجال (غنتاق) تأمينها؛ فإذا خرجت من دون تأمين فهي إعلان لكل من تبقى من قطاع الطُرق أنها متاحة للأخذ دون عواقب.

تصمت (هينادا) للحظات، ولا يقطع (آروين) الصمت حيث أنه لم يتوقعه؛ فحتى الآن (هينادا) دائمًا لديها الرد والخطة والخطة البديلة؛ فلم يبشر صمتها هذا بالخير أبدًا.

تنطق (هينادا) أخيرًا بإجهاد:

– لم أكن أتوقع أن نجد، لم أكن أتوقع أن نقابل نبيلًا حديديًّا قبل أن ندخل (زراد) ونتحصل على صندوق عهد الملك (فارين).

لا يتمالك (آروين) نفسه وينظر للنبيل الحديدي مرة أخرى وهو يسأل:

– ألا يمكننا أن نخبر (غنتاق) باحتياج النبيل الحديدي إلى الذهب كغذاء؟ هو لا يزال يصدق قصة الخاتم التي أخبرتيه إياها، ولا يعرف شيئًا عن صندوق العهد، وبالتأكيد رجلٌ مثله لديه الكثير من الذهب.

تهز رأسها في قوة:

– لا.. قد أخبرته بالفعل أن غذاء النبلاء الحديديين موجود في (زراد)

فقـط، لا يمكننـي المخاطـرة بإخبـاره غـير ذلـك الآن.

يـأتي صـوت اقـتراب رجـال خـارج الخيمـة فينظـر كلاهمـا تجـاه مدخـل الخيمـة ليريـا (غنتـاق) يدخـل متقدمًـا ومعـه اثنـان مـن حراسـه.

كانـت (الفيـدا) متأكـدة تمامًـا أن (غنتـاق) يخشـى النبيـل الحديـدي كثـيرًا، ولكـن حـين دخـل (غنتـاق) لم تـشِ نظراتـه للنبيـل سـوى بعـدم الاهتـمام. فقـط نظـرة عابـرة يلقيهـا كأنـه يُلقـي نظـرة عـلى قطعـة مـن الأثـاث الموضـوع في الخيمـة، وليـس أكثـر أدوات الحـرب فتـكًا.

يـكاد (آرويـن) أن يمـد يـده في سرعـة ليخفـي خرائـط الإمـداد، ولكـن (هينـادا) تتحـرك أمامـه وكأنهـا تتقـدم لتحيـة (غنتـاق) لتمنعـه مـن ذلـك آملـة ألا يحـاول سـحب الخرائـط مـن فـوق المائـدة قبـل أن تتحـرك مـن أمامـه.

مـا أن تحركـت مـن أمامـه حتـى فهـم (آرويـن) أن محاولـة إخفـاء الخرائط أمـام (غنتـاق) سـتبدو مريبـة أكثـر مـن لـو تركوهـا أمامـه وأعطـوه أي عـذرٍ واهٍ لمراجعتهـا لخرائـط الإمـداد.

– فيـدا (هينـادا) هـل سـيظل ذلـك الـ.. الفـارس أو النبيـل الحديـدي مرافقًـا لـكِ طـوال الوقـت؟

اسـتوعبت عندهـا (هينـادا) أن مـع حركتهـا تجـاه بـاب الخيمـة أن النبيـل الحديـدي قـد تحـرك وراءهـا.

هزت رأسها مجيبة:

– نعم.. سيتبعني في كل مكان كظلي.

واضعة ابتسامة مفتعلة على وجهها.

– يتبعك كظلك في كل مكان!.. ألا يتعدى بذلك على اختصاصات لورد (نيزاد)؟

قالها وبسمة ساخرة ترتسم على وجهه.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يوجه فيها مثل تلك التعليقات تجاه (آرويـن) ولكـن (آرويـن) كان قد طلب منها أن تتجاهل تعليقاته؛ فدفاعها عنه يزيد الأمر سوءًا.

كانت رأس (هينادا) مشغولة في أمر آخر؛ فقد كانت تتأمل الخواتم الذهبية في يد (غنتاق) شاعرة بتوتر لحظي غير متأكدة الآن إن كانت حركة النبيل الحديدي خلفها في وضعية حراسة من الثلاثة رجال المدججين بالسلاح الذين دخلوا الخيمة أم جوع لوجبة أخرى من الذهب بعد أن أطعمته كل مصوغاتها الذهبية. في كلتا الحالتين سيتوجب عليها أن تُنهي هذا الحديث سريعًا.

– ظننت أن مجلسنا سيكون بعد الغروب.

لم يُجب (غنتاق)، بل ألقى نظرة سريعة على النبيل الحديدي قبل أن يلتفت مشيرًا لحارسيه أن يتركا الخيمة.

تلك النظرة السريعة على النبيل الحديدي أكدت لـ(هينادا) أنه بالفعل يخشاه. ومعه حق فوحده كم قتل من رجاله.

ما أن خرج الحارسان حتى سأل (غنتاق):

– أخبريني يا سمو الفيدا، لقد أخبرتني من قبل بشيء يحيرني لعدة أيام الآن، وبالتحديد منذ أن عُدتِ بحارسك الجديد...

أحست (هينادا) ببعض التوتر، ولكنها التزمت الصمت في انتظار ما سيأتي.

- أخبرتني يوم التقينا في المكتبة أن النبلاء الحديديين لا يمكن التحكم بهم سوى بخاتم كان يملكه الملك (فارين).. أأتذكر ذلك بشكل صحيح؟

- بالفعل هو كذلك.

- هل لك أن تُفسري إذن...

أشاح بيده تجاه النبيل الحديدي.

مع إشاحته بيده كاد قلب الـ(هينادا) أن يتوقف فقد شعرت بحركة خفية من النبيل الحديدي خلفها... «تلك الخواتم اللعينة.. أيها الأحمق أنت تقف الآن كدجاجة عرجاء أمام سقري ضارٍ».

- نعم.. أيا كانت أواخر أوامر الملك (فارين) للنبلاء الحديديين فهي لم تُغير من التزامهم تجاه أوامرهم القديمة بحماية أطفال النبلاء.

يرفع حاجبه متسائلًا:

- أي أطفال؟! أيعتبرك طفلة؟

- وقت خرجنا من (زراد) نعم.. كنت طفلة، وسيظل يراني على هذا الأمر حتى نأتي بالخاتم، وننقل للنبلاء الحديديين أوامر الحماية للجيل القادم من أبنائنا.

يحك (غنتاق) ذقنه متأملًا النبيل الحديدي:

- همم.. ذلك حقًا مثيرٌ للاهتمام.. إذن حتى لو لم يلتق ذلك النبيل في حياته بك لا يزال يتعرف عليك وتصله الأوامر التي أصدرت لسواه؟

كانت (هينادا) قد وصلت لأقصى درجات التوتر، والشمس القادمة من خارج الخيمة تعكس بريق الخواتم التي يرتديها (غنتاق).

فأجابته في سرعة:

– هناك الكثير الذي يمكنني إخبارك به عن النبلاء الحديديين، الحقيقة أعتقد أن هناك كتاب احتفظت به من مكتبة (ثيام) في خيمتي. دعني أحضره لك، عند لقائنا في مجلس الليلة.

قالتها وتحركت لتخرج من الخيمة، ودعواتها منصبة في أن النبيل الحديدي سيتبعها ولن ينقض على (غنتاق).

من خلفها أتي صوت (غنتاق) الذي تجاوزه النبيل الحديدي خارجًا تابعًا إياها:

– لست من هواة القراءة حقًا...

لكنها لم تنتظر لتسمع باقي الجملة، وإن سمعت صوت (آرويـن) من الداخل يقول بصوتٍ عالٍ:

– أترى؟.. أنا لا أتبعها في كل مكان.

٣

ينطلق الطبيب وتابعه فور أن رسوا في ميناء (ثول) إلى خارج الميناء، فبرغم الحانات المتناثرة في الميناء إلا أن الكلمات التي تبادلها هيشا مع الطبيب وإن كانت مغلفة بالاحترام الزائد أوضحت موقف البحارة من الطبيب وتابعه بعد كل ما مر بهم في رحلتهم من (زراد). وسرعان ما سيتناثر هذا الحديث بين البحارة الآخرين المتسكعين في حانات الميناء. لن يكون أحدهم سعيدًا بسماع أن متذاكٍ ما حاول تهريب كريستالات اللهب لشواطئ الممالك القديمة؛ لذا فقد انطلقوا من فورهم ناحية نُزلٍ في آخر المدينة يطل على سلاسل الجبال التي سيحتاجون أن يعبروها ليصلوا لبلاد ما خلف الوادي.

كان (عاند) قد استعاد عافيته بشكل كبير، واختفت كل آثار تحولاته في يده وهو يجلس أمام الطبيب الآن يلتهم أول حساء ساخن يحصل عليه منذ أكثر من شهر؛ حين بدأت رحلتهما على متن الغليون. لم يكن (سيفاد) صاحب شهية كبيرة كالعادة ولكن لابد وأنه أنهى على الأقل وعاءين من الحساء قبل أن يتجه متخمًا لينعم بحمام دافئ في حمامات النزل.

قبل أن يأخذ حمامه لم ينس أن يطلب من الفتى أن يذهب ليجلب له دليلًا ليتفق معه على رحلتهما لخلف الوادي.

الماء الدافئ المخلوط بالزيوت العطرية يتحدى (سيفاد) أن تبقى بجسده ذرة من التوتر، تتباطأ أنفاسه وهو يتأمل الموجات الصغيرة التي يصنعها بكل زفير يخرجه، ويعود إليه الهواء محملٌ برحيق الزهور.

لا بد وأنه قد غط في النوم جالسًا في حوض الاستحمام حين جاءت الطرقات على الباب الخشبي تبعها صوت أنثوي: عشرة شلينات لمساعدتك في الاغتسال.

ساد الصمت للحظات يستفيق فيها الطبيب محاولا استيعاب ما قيل ليأتي الصوت مرة أخرى:

- نقبل كل العملات الأجنبية إن لم تملك الشلينات.

سعل مرتين محاولًا أن يمحوا آثار النوم من صوته وقال:

- لا حاجة لي بمساعدتك.. ارحلي.

لحظات أخرى من الصمت قبل أن يسمع خطوات تبتعد عن الباب.

يتكئ على جانب الحوض شاعرًا الخدر يسري في قدميه، بحرص يخرج من الحوض متناولًا المنشفة المهترئة الموضوعة بجانب ملابسه، وما أن يبدأ في تجفيف جسده حتى يأتي الصوت مرة أخرى مغمغمًا بكلمات غير مفهومة.

يلف المنشفة سريعًا ويتجه ناحية الباب في عصبية لينهر الخادمة المزعجة فيمسك بالمقبض دافعا للباب ولكن لابتلال الأرضية ولأن قدميه ما تزالا خدرتين ينزلق مع انفتاح الباب عن آخره ساحبًا إياه منزلقًا على ركبتيه ولا ينقذه من لقاء وجهه بالأرضية سوى

مقبـض البـاب الـذي تشـبث بـه بكلتـا يديـه.

غاضبًـا متألمًـا يرفـع عينيـه لتختلـط صرخـة الغضـب بشـهقة هلـع حـين تلتقـي عينـاه بوجـه (حباريـة) تقـف أمامـه عـلى وجههـا آيـات السـكينة، وتقـول:

- لم يحن أوان الرحيل؛ فالمجد هنا ينتظر.

يتراجـع (سـيفاد) في سرعـة سـاحبًا مقبـض البـاب ليغلقـه، وهـو يسـمع صـوت دقـات كدقـات عصـاه حـين التقـى بالهـول تعلـو وتعلـو وتعلـو.

- سيدي الطبيب...

يفتـح (سـيفاد) عينيـه فيجـد أنـه مـا يـزال في حـوض الاسـتحمام، وصـوت (عانـد) يـأتي مـرة أخـرى مـن الخـارج مصحوبًـا بطرقـات:

- سيدي الطبيب.

يطلـق الطبيـب زفـيرًا عاليًـا لاعنًـا ذلـك الكابـوس، ثـم ينـادي الفتـى قائـلًا:

- ادخل يا فتى... لقد خدرت قدمي وأحتاج إلى مساعدتك.

يدخـل الفتـى في سرعـة، ويبـدأ في مسـاعدة الطبيـب للخـروج مـن الحـوض وهـو يقـول:

- لقـد وجـدت الدليـل، وقـال لي أنـه سـيقبل بالكريسـتالات الفارغـة كأجـر.. ينتظرنـا في الخـارج، ولكنـه يقـول أن أجـره سـيكون مضاعفًـا لأننـا عـلى عجلـة مـن أمرنـا.. إذا انتظرنـا أسـبوعًا فـإن هنـاك قافلـة تجاريـة مـن الممكـن أن ننضـم إليهـا وسـيقلل ذلـك مـن أجـره، وسـيقلل مـن...

أشاح الطبيب بيده مقاطعًا الفتى:

- لا.. أحتاج إلى أن أنهي ذلك الأمر سريعًا.

لم يكن (سيفاد) يعلم هل كان يحتاج إلى إنهاء الأمر ليجد علاجًا للوباء؛ أم أنه اشتاق لخدمه وقصره في (زراد) حيث لا تجرؤ مثل تلك الكوابيس أن تقلق منامه.

- سيدي الطبيب معذرة، ولكني أشعر أن جسدك يشتعل نارًا.

يتوقف الطبيب عن ارتداد ملابسه للحظة، ليلاحظ أن جسده قد بدأ في التعرق بالفعل وهو بالكاد قد أنهى استحمامه.

يجلس على المقعد الخشبي في ركن الحمام، ليأتي (عاند) ويضع كفه على رأس الطبيب ليشعر بها الطبيب وكأنها قطعة ثلج.

يراجع في ذهنه ما الذي يمكن أن يكون قد أصابه، أي مرض يمكن أن يبدأ بتلك السرعة ويصل به إلى الحمى قبل أي أعراض أخرى. أو ربما كان هناك عارض آخر بدأ منذ أيام،

تلك الأصوات والأحلام هلوسات؟

- يا فتى.. فلتقم بصرف ذلك الدليل وأخبره أني اقتنعت برأيه وأننا سوف نرحل مع القافلة التجارية، وابحث لي عن طبيب قريب.. أحضر بعض أعشاب (السقرات الزرقاء)، سأصعد للغرفة، وافني هناك.

وقت طويل قد مر على الطبيب في انتظار (عاند) حتى أنه غفل واستيقظ ليجد رجلا عجوزا يساعده على تناول سائل ما.

لاإراديًّا يبصق الطبيب السائل ليجد (عاند) واقفًا في ركن الغرفة

يقـول:

– ذلك السائل كي تستعيد صحتك يا سيدي.

يشـعر الطبيـب بالعـرق يغمـر جسـده بأكملـه، فيسـأل بصـوتٍ فوجـئ بقـدر الوهـن فيـه:

– ما الذي تسقني إياه؟.. من أنت؟

يجيب العجوز:

– ذلـك مغـلي (السـقرات)، جـاءني الفتـى يطلـب بعـض مسـحوق (السـقرات)، ثـم عـاد إلي بعدهـا يطلـب منـي أن آتي إليـك

يقاطعه (عاند) قائلًا:

– حاولـت إيقاظـك يـا سـيدي لوقـتٍ طويـل، وحـين فشـلت وشـعرت بالحمـى تـزداد هرعـت لأحـضر الطبيـب.

يلاحـظ حينهـا (سـيفاد) أن أضـواء الفجـر قـد بـدأت تتسـلل مـن النافـذة، يبـدو أن المـرض قـد تملـك منـه حقًـا.

–لا تقلق.

يقولها العجوز متابعًا:

– كـما اسـتنتجت أنـت هـي مجـرد حمـى، ينتـشر ذلـك النـوع بعـد رحلات البحـر الطويلـة.. يومـين عـلى الأكثـر وسـوف تعـود لكامـل صحتك.

يقـول (سـيفاد)، وقـد أراح رأسـه عـلى الوسـادة بكلـمات ثقيلـة عـلى لسـانه:

– هل تلك الحمى المنتشرة تصاحبها هلاوس؟

يـكاد أن يجـز عـلى أسـنانه وهـو يسـأله، فيالـه مـن يـوم حـين يستشـير طبيـب وبـاء (زراد) ذلـك الكهـل العجـوز.

يتأمله العجوز للحظات ويقول:

– هلاوس مثل ماذا؟

مرة. أخرى وبكلمات ثقيلة يرد (سيفاد):

– هلاوس سمعية أكثر من أي شيء، وربما بعض الكوابيس.

– لا.. إن تلـك الأصـوات تـأتي في حـالات متقدمـة.. ملائكـة الصمـت ربـما تشـتاق للقائـك.

يتساءل (عاند):

– ما ملائكة الصمت؟

يلتفت له العجوز وببسمة بشوشة يقول:

– إنهـم ملائكـة الخـلاص، يأخذوننـا حيـث المكافـأة عـن حيـاة جيـدة.. يأخذوننـا حيـث الصمـت الأبـدي.

حينهـا ازداد حنـق الطبيـب مـن نفسـه لأنـه سـأل ذلـك الأحمـق عـن أي شيء.

أولئـك الحمقـى يطلقـون عـلى شـياطين الصمـت ملائكـة! ويعبـدون ويقدمـون القرابـين لـلألم؛ ظانـين أنـه بـما أن الألم حتمـي فعبادتـه سـتجلب لهـم نعيـمًا في رحلـة الصمـت.

يأتي صوت العجوز:

– يبـدو أنـك لا ترتـاح لسـماع تلـك الكلـمات أيهـا الغريـب.. أتيـت مـن

(زراد) أليس كذلك؟

لا ينتظر الإجابة ليكمل:

- يجب أن تعلم أننا نسكن تلك الأرض قبل أن تخطو روحٌ واحدة فيما تطلقون عليه الآن «أرض الممالك العظمى».. في «أرض ما خلف الوادي».. «الممالك القديمة» بدأت الحياة، ومشت الآلهة بيننا، ولم تذهب الآلهة لأرض الممالك العظمى إلا لتحترق.. لذا حين اخترنا أن نُقدس الصمت فنحن نعرف جيدًا أن في النهاية، فقط الصمت سيسود.

يقف العجوز معطيًا الكوب الفارغ لـ(عاند) ويربت على كتفه قائلًا:

- اغسل له كوبين آخرين مع غروب الشمس، واسقهما إياه حتى لو كان نائمًا.

وخرج من الغرفة تاركًا إياهما والصمت.

٤

تظهر عدم نظامية جيش (غنتاق) بشدة في كل مرة تلحق بهم الإمدادات من غذاء ورسائل؛ فالكل يتكتل على الرسل، منهم الباحث عن أجره من ليرات، والذي يستخدمونه في المقامرة في ليالي الزحف الطويلة، ومنهم من يبحث عن رسالة أتته تطمئنه عمن تركهم خلفه.

يحشر (آروين) نفسه وسط المتكتلين محاولًا الوصول للمسؤول عن توزيع الإمدادات مخترقًا ذلك الجنون من الصيحات والآباط المتعرقة.

وما أن يصل إلى المقدمة ويتعرف عليه مسؤول الإمدادات حتى يخبره أن الإمدادات الخاصة بالفيدا في طريقها لخيمتها بالفعل.

يسقط قلب (آروين) في أقدامه؛ فذلك بالضبط ما كان يتسابق مع تلك التكتلات البشرية ليمنعه؛ فأحدهم بالتأكيد سيراجع الطرد قبل إدخاله للخيمة التابعة للفيدا.

يعود (آروين) محاولًا الخروج من الزحام ليلحق بحاملي الطرود.

متأخـرًا كـما يبـدو يصـل أمـام خيمـة الفيـدا التـي تُرسـل نظـرة ناريـة تجاهـه بينـما هـي واقفـة تتحـدث مـع (غنتـاق)، وحـين يقـترب يسـمع حديثهـما:

– مـا حاجتنـا لوجـود ذلـك الذهـب كحمـل ثقيـل؟ يثقـل حركـة الجيـش؟

ترد الفيدا في سخرية تحاول بها إخفاء توترها:

– بضعة كيلو جرامات من الذهب ستعطل الجيش أيها القائد؟

– نعـم بضعـة كيلـو جرامـات مـن الذهـب سـتعطل الجيـش، أنـا لا أتحـدث عـن وزنهـا هنـا بـل أتحـدث عـن محاولـة بضعـة مـن أفـراد الجيـش – حـين يعرفـون بوجـود كنـز مثـل هـذا – الاسـتيلاء عليـه، تدركـين أن قـوام جيشـنا مـن المجرمـين.

– وكيـف لهـم أن يعرفـوا ذلـك؟ بغـير مـا تصنعـه أنـت الآن مـن ضوضـاء.

– ذلـك مخيـم حـرب، وليـس قـصرا ملكيـا، ذلـك جيـش يزحـف والكل يعرف كل الأسرار.

– لن يجرؤ أحد على الاقتراب من خيامي في وجود النبيل الحديدي.

يصمت (غنتاق) للحظة وهو ينظر من حوله:

– وأين هو نبيلك الحديدي؟ أنا لا أرى سوى نبيلك المتعرق.

يمسح (آروين) جبينه في آلية دون أن يُعلق.

– النبيـل الحديـدي في حاجـة إلى غذائـه، فجعلتـه في حالـة ثبـات كمثـل

التـي وجدنـاه فيهـا مـن قبـل حتـى أسـتطيع أن أوفـر لـه غـذاءه.

يطلق (غنتاق) زفيرًا عاليًّا:

– نعـم الغـذاء الـسري الـذي لا تريديـن أن تشـاركيني سره، ربـما أملـك مكوناتـه.

تنفجر فيه الفيدا قائلة:

– أثـق بـك في مكوناتـه وأنـت تفضـح الآن أن للنبيـل غـذاء سري أمـام اثنـين مـن حراسـك؟!

يسقط في يد (غنتاق) للحظة، ولكنه يرد في ارتباك:

– يمكنني التخلص من أولئك الاثنين على الفور.

ينظر الحارسان إلى بعضيهما البعض في عدم فهم قبل أن تقول الفيدا:

– لا حاجـة لذلـك، أنـا متأكـدة أنـك كـررت تلـك المعلومـة ألـف مـرة حتـى الآن، فقـط ارحـل أنـت وحراسـك، ودعنـي أنقـل الطـرد الـذي تقلـق بشـأنه داخـل الخيمـة.

دون كلمـة أخـرى تتركـه وتتجـه ناحيـة الخـدم مشـيرة لهـم بإدخـال الصناديـق لخيمتهـا.

يطلـق (غنتـاق) زفـرة غضـب شـديد ثـم يـولي ظهـره للفيـدا وخدمهـا عائـدًا لخيمتـه.

ومـا أن يبتعـد حتـى تعلـو صيحاتـه صارخًـا ببعـض قـواده أن ينظمـوا طوابـير الإمـدادات الهمجيـة وإلا فسـوف يقطـع رؤوسـهم.

تدخـل الفيـدا خيمتهـا يتبعهـا (آرويـن) ويسـتمر الصمـت حتـى يخـرج الخـدم بعـد إدخـال كل الطـرود.

يهم (آروين) بالاعتذار مفسرا ما حدث ولكن الفيدا توقفه بإشارة من يدها وهي تقول لدينا أمور أهم.

يلتفت (آروين) للنبيل الحديدي الذي يجلس القرفصاء في ركن من أركان الخيمة.

- هل هو في حالة من الثبات حقًا؟

تومئ الفيدا برأسها قائلة:

- نعم، لكن لا يمكنني التحكم فيها. لقد توقف عن اتباعي فجأة واتخذ ذلك الوضع الساكن مدخرًا طاقته على ما أظن.

فتحت أقرب الطرود إليها وأخرجت سبيكة ذهبية محاولة أن تقربها من النبيل الحديدي، ولكنه لا يحرك ساكنًا.

يسأل (آروين):

- ما الذي يعنيه ذلك؟

تتنهد الفيدا قائلة:

- لا يعني شيئًا يا (آروين)، فذلك السيد الحديدي لم يكن من ضمن خطتي في الأساس، سوف أبقي الذهب بجانبه وربما سيجد ما يكفي من الطاقة في يوم ما لالتهامه، ولكن على الأقل اتباعه لي أكد أننا إذا وصلنا إلى صندوق العهد؛ فإنني سوف أستطيع التحكم في جيش النبلاء الحديديين.

٥

شعرت (ميرا) بأعصابها تحترق وهي تقف بجانب (داليف) في انتظار أن ينتهي لقاء الملك مع كتبته، ما لديها كان بالغ الأهمية وأي وقت يمر دون فعل شيءٍ قد يؤدي إلى كارثة.

كانت رافضة لتصديق نصف ما قاله (خاشيد) عن الـ(أغوش)، ولكن رحلة سريعة إلى مكتبة الكهنة وجدت الكثير من المخطوطات التي تتحدث عن أمهات الغيلان، والـ(أغوش) بالتحديد كواحدة من أبشع فصائلها، ولحسن الحظ أقلها انتشارًا.

ذلك الكائن البشع يتغذى على أطفال الحيوانات ولكنه يستمتع خاصة بأطفال البشر. والسموم التي تخزنها وتهاجم بها ضحاياها لا يوجد لها ترياق معروف.

يجب عليهم أن يتحركوا لصيدها على الفور ولكن قبل ذلك يجب أن تتحصل على موافقة الملك. فبالنسبة لها هو الوحيد الذي يحق له اتخاذ القرار في هذا الشأن.

ليس الكهنة الكبار ولا حتى (الآركون). فقط ملك (زراد) وإن كان سجينًا.

تلتفت نحو (داليف) سائلة بنفاد صبر:

- هل سيطول حديثهم؟

ينظر (داليف) يمينًا ويسارًا قبل أن يجيبها بصوتٍ خفيض:

- يحمل الكتبة أخبارا مقلقة.

تعقد (ميرا) حاجبيها وهي تتساءل:

- أهي أخبار عن الغيلان؟

قبل أن تكتمل حركة رأسه النافية

تسارعه بالسؤال:

- إذن هي أخبار عن الطبيب؟

يجيبها تلك المرة سريعًا قبل أن تستمر في تلك التساؤلات:

- لا يا (ميرا)، تلك أحداث صغيرة جدًّا مقارنة بما يتحدثون عنه في الداخل.

يتلاشى كل الترقب لانتهاء انتظار مجلس الملك ويحط مكانه الفضول الذي يظهر جليًّا في عينيها. ليتلفت مرة أخرى داليف متأكدًا من عدم وجود أحد على مرمى السمع قبل أن يهمس بصوت أكثر

خفوتًا مما سبق:

- فرق استطلاع شُوهدَت على بُعد أيام من المملكة.

تحدق إلى وجهه قليلًا محاولة الاستيعاب، وفي الوقت نفسه تنتظر أن يخبرها المزيد، وحين يطول الانتظار تتساءل في لهفة:

- استطلاع ماذا؟.. أعني .. تحت أي راية يتحركون؟

- ذلك أغرب ما في الأمر.. لا رايات، ولكن بعض من أفراد جيش الملاعين ممن رأوهم تعرفوا على بعض أفرادهم كمرتزقة اعتادوا أن يتبعوا (غنتاق السعدبي) إن كنتِ تتذكرينه.

تهز رأسها أنها تعرف عمن يتحدث فيكمل قائلا:

- لكنهم لا يرتدون زيّ أي من الممالك المعروفة، وفي نفس الوقت ملابسهم ليست بملابس مرتزقة، بل زيّ موحد كأفراد جيش، لا شك أنها طليعة جيش واتجاههم هو (زراد).

- أيكون (غنتاق) قد جُن وصدق أنه ملك ويحكم مملكة؟

- بالتأكيد لا.. تلك ليست تحركات (غنتاق) تلك تحركات أشخاص استعانوا بخدمات أولئك المرتزقة مباشرةً، أو استأجروهم عن طريق (غنتاق).

- ما الذي يجعلك متأكدًا من ذلك؟

يشيح بيديه قائلًا:

- أنا لا أملك أدنى فكرة، ذلك ما يقولونه بالداخل.

تمد رأسها قليلًا لتسترق النظرات وتتأكد أن مجلس الملك مع الكتبة ما يزال منعقدًا قبل أن تقول:

– حقًا؟.. ما الذي يقولونه أيضًا؟

– يقولون الكثير يا (ميرا)، تلك المحادثات مستمرة منذ أيام، ولكن هناك قلق كبير حيث أن توقيت ظهورهم قد جاء بعد أقل من شهرين من اقتحام ذلك المتسلل المجذوب للقصر الملكي القديم، ولو كان هناك جيشٌ قادم لـ(زراد)؛ فكيف سيقوم الملك بقيادة جيش (زراد) من محبسه؟

صدمتها تلك الفكرة فجزء ما بداخلها لم يستوعب أبدًا كون الملك في سجن حقيقي. بل دائمًا شعرت أنه لو أراد سيتمكن من فتح بوابة الزنزانة والخروج ليجلس على عرشه. في النهاية الشعب يتبع الملك وليس كهنة النار. والجيش ذاته يتلقى الأوامر من كهنة النار بناءً على أوامر الملك السجين.

إن الوضع معقد جدًا ولن تتخيل أن يكون كبار الكهنة و(الآركون) مستعدين أن يخاطروا بالوقوف أمام الملاعين كلهم وذلك الجيش الغريب فقط من أجل الاحتفاظ بالملك داخل زنزانة. من يحاولون أن يخدعوا؟ هم يحاولون فقط أن يجدوا سببًا للبقاء داخل (زراد) بالقرب من مناجم كريستالات اللهب.

وجهت سؤالها إلى داليف قائلة:

– هل تعتقد أن (الآركون) يعلم بذلك؟

يقول داليف بثقة:

– ليس لدي أدنى شك أن (الآركون) قد علم بذلك قبل أن يعلم الملك نفسه.

– بالتأكيد لو حدثت حرب فـ(الآركون) لن يقف في طريق الملك.

بدهشة يتأملها داليف للحظة قبل أن يلتفت لها بكامل جسده متحدثًا بنبرة من يخبر طفلًا للمرة الأولى عن الصمت:

- آآه (ميرا).. حتى أنا أدرك أن ذلك غير صحيح، الأمور ليست بذلك الوضوح ها هنا. نحن لا نعرف من القادم ولماذا، ومع من تحالف، ولو افترضنا أن الآتي غازٍ لا تتوافق رغباته مع (الآركون) ولا مع الملاعين ولا مع رهبان الكاتدرائية لا يجب عليك أن تنسيهم أيضًا فهم طرف من المعادلة، هل سيقبل جيش الملاعين أن يحارب تحت إمرة من وسمهم ملاعينًا؟ كل قادة الجيش الكبار كانوا نبلاء والقادة الحاليين من الملاعين لا تتعدى خبرتهم أكثر مما يتذكرونه مما تعلموه من قيادة الجيش النبلاء لهم، لو لم يتفق جميع الأطراف على كيفية إدارة خطة الدفاع عن المملكة ستسقط المملكة بالتأكيد.

قبل أن يُتاح لـ(ميرا) التعقيب على حديثه كان الكتبة يخرجون من زنزانة الملك في طريقهم للابتعاد عن السجن.

تركت (ميرا) (داليف) خلفها، واتجهت إلى زنزانة الملك مُحيية الكتبة في طريقها بهزة رأس. وما أن وقفت بين يديّ الملك حتى تلت عليه تقريرًا تفصيليًّا عن الستة أسابيع الماضية هي مدة تحقيقاتهم بشأن الغيلان، وحتى لقائهم بالـ(أغوش) بجوار عش الغيلان، ثم تحقيقها مع صائد الغيلان في مستشفى السجن.

جاء صوت الملك لأول مرة منذ دخولها ليسأل:

- عش الغيلان ذلك الذي أحرقتموه.. هل أنتم متأكدين أنه العش الوحيد؟

- في الأغلب، فإن الـ(أغوش) قد صنعت عشًا جديدًا لمن تبعها من غيلان.

- إذن عليكم بالتخلص من تلك الـ(أغوش) على الفور.

- ذلك بالضبط ما أحتاج موافقتك عليه يا جلالة الملك.

كانت هناك دائمًا تلك النظرة التهكمية التي تظهر للحظة على وجه الملك كلما أنزل عليه أحدهم ألقاب التفخيم.

- ما الذي تحتاجينه؟

- صائد الغيلان أخبرني أن هناك من أرسله لاصطياد تلك الـ(أغوش). وكان يعرف مكانها تقريبيًّا، أعتقد أننا لو تحدثنا مع من أوكل له ذلك العقد يمكنه مساعدتنا.

يسألها في دهشة:

- أتحتاجين موافقة مني لفعل ذلك؟

- الحقيقة أن الأمر بشأن صاحب العقد.. إنه (ساليك).

يحك الملك أسفل ذقنه وهو يسأل: (ساليك)؟ اللص الذي سرق من مكتبة (الآركون).

- هو بذاته.

ضحك الملك قائلًا:

- وتريدينني أن أفعل ماذا بالضبط؟ أن أعفو عنه؟ مقابل مساعدته؟ بالتأكيد.. عفوت عنه. اذهبي، لتري إن كان عفوي هذا سيحمل أي وزن مع (الآركون).

تفهم (ميرا) تمامًا ذلك فتحاول أن توضح للملك مقصدها:

- بالتأكيد يا جلالة الملك أنا لا أطلب أي عفو ملكي لذلك اللص.

فليس (الآركون) وحده من يملك ضغينة ضد (ساليك). ولكن كل ما أرجوه أن تكون على علم بأني سوف أقابل ذلك اللص دون أن أحاول قطع رأسه أو إبلاغً أي من الكهنة بمكانه. أريدك أن تعرف ذلك حتى لا أكون خائنة لـ(زراد).

– (ميرا) يا بنيتي، أيّا كان قولي لك هنا الآن. لن يحمل أي قيمة مع (الآركون)، ولكني أؤكد لك بالنسبة لي أنتِ أكثر من رأيت في حياتي ولاءً لـ(زراد).

كانت تلك الكلمات تكفي (ميرا). رغم أنها لم تقلها صراحةً، ولكنها أبلغت الملك أنها ستقوم بهذا اللقاء دون إبلاغ (الآركون).

انحنت (ميرا) تحية للملك كي تنصرف، ليسألها:

– ما اسم صائد الغيلان ذلك الذي سيصحبك لـ(ساليك)؟

قالت وهي لا تزال منحنية:

– (خاشيد) يا مولاي.

في انحناءتها تلك لم يكن من الممكن أن ترى تعبيرات الملك، ولكن شيئا ما تغير لحظتها. ربما كان في أنفاسه المنتظمة التي توقفت لعدة نبضات قبل أن تعود كزفير مطوَّل.

شيء ما تغير حين ذُكِر اسم (خاشيد).

بعد أن انتصبت من انحناءتها رأت ذلك في عينيه ولكن صوته لم يتغير حين جاء قائلًا:

– أحضري لي ذلك الـ(خاشيد). بعد أن تتمي مهمتك، ومهمتك الآن هي التخلص من تلك الـ(أغوش)، وأي أخطار أخرى تأتي من

الجهـة الشرقيـة مـن (زراد).

انحنـاءة أخـرى قبـل أن تخـرج بظهرهـا مـن الزنزانـة احترامًـا للملـك وهـي تُفكـر «إن الملـك قلـق بالفعـل مـن أنبـاء طلائـع الجيـش الغريـب القـادم مـن الغـرب، ويريـد التأكـد أنـه لا توجـد أي أخطـار قادمـة مـن الـشرق في الوقـت نفسـه».

الفصل السادس

١

بالرغم من جروح (خاشيد) التي لم تلتئم تمامًا، إلا أنه لم يُضع أي وقت حين أعطته (ميرا) قسمها أنها لن تُبلِّغ أي شخص بمكان (ساليك) أو تُحاول إيذائه، كما أن ذلك القسم أتى بمباركة من الملك نفسه.

تبعته (ميرا)، مخترقين أسواق (زراد)، متجهين إلى لقاء (ساليك). كانت خطوات (خاشيد) بطيئة بسبب جروحه؛ مما اضطر (ميرا) للإبطاء أيضًا في خطواتها، وإطالة دربهما.

استدار (خاشيد) ليقول لـ(ميرا):

- أكان من الضروري أن تحضري سيفك للّقاء؟

- (خاشيد)، أرجو أن تتفهم أني لا أحتاج سيفًا لقتل عشرة من الملاعين. صدقني لن يُشكل ذلك فارقًا؛ إلا إذا كان (ساليك) ينتظرنا بجيشٍ صغير.

توقف (خاشيد) للحظة.

- أولًا كنت لأقول أنك تبالغين في تقدير مهارتك؛ لكني رأيتك تقاتلين الغيلان.. فنعم أنا أصدق ذلك، ثانيًا لم يكن ذلك قصدي، لكن أظن أن ذلك السيف الضخم يثير انتباه السوق كله.

- حقا يا (خاشيد)؟ ذلك ما يثير انتباههم؟ وليس الرجل الذي يدمي على الطريق، وتتبعه امرأة حمراء الشعر، ويعادل طولها طوله ونصف؟

يتملى فيها قليلًا قبل أن يقول:

- لديك وجهة نظر. إذن كان من السخف أن ترتدي ذلك الرداء، وغطاء الرأس منذ البداية.

تنزع (ميرا) غطاء الرأس والعباءة في عصبية والناس يتهامسون من حولها وتقول:

- أتعلم ما السخيف أيضًا؟ أنك بالكاد تستطيع المشي، وإذا استمرينا على ذلك المنوال فلن نصل قبل يومين.

وقبل أن ينطق (خاشيد) ليسألها عما تقترح؛ كانت قد رفعته من على الأرض، وألقت به فوق كتفها، وهو في صدمة لم تسمح له أن يعترض؛ بينما تعلو الضحكات حوله في السوق.

متتبعة لإرشادات عجيزة (خاشيد) تهتدي (ميرا) أخيرا لساحة المدبغة، في سوق الجلود، بقلب (زراد).

تسدل (ميرا) (خاشيد) من فوق كتفها أخيرًا، ماسحة كل من العرق والدماء التي نزفها فوقها من أحد جروحه التي لم تشفَ بعد.

في الساحة انطلق عدد من الأطفال يلعبون لعبة ما، يطاردون بعضهم البعض، يلقون بقرب جلدية تعرف حين تصيب هدفها أو تسقط أرضًا أنها مليئة بالألوان التي تنفجر صانعة لوحات مبهجة تصاحبها ضحكات أطفال مرحة، ولولا الرائحة الخانقة التي يبدو أن أنوف الأطفال قد اعتادتها لصارت تلك الساحة واحدة من معابد الجمال التي لم تتوقع (ميرا) أن تجدها في قلب أسواق الملاعين.

يناور الأطفال الجلود المدبوغة المعلقة على الأحبال فتستوقف أحدهم ممسكة بكتفه تلاحظ أن وشما من ثلاثة خطوط متمايلة يقطعه رمز يشبه حروف أهل ما خلف الوادي؛ لتفكر للحظة بطبيب الوباء الهارب، وعمله الليلي كنخاس أطفال قبل أن تزيح تلك الأفكار جانبًا لتسأل الطفل:

- هل (ساليك) هنا؟

يتأملها بفضول للحظة وهو يلهث ثم يشير إلى باب في أحد أركان الساحة قائلًا:

- العم (ساليك) بالداخل.

ويفلت ذراعه الموشوم من يد (ميرا) منضمًا للعبة مرة أخرى مع أقرانه.

تلتفت لـ(خاشيد) الذي يصارع جاهدًا ليخفي آثار الألم من على وجهه ليومئ برأسه ويتقدمها ناحية الباب.

كان المكان بالداخل مظلمًا قليلًا، يحتوي على عدد من الأحواض الحجرية المملوءة بألوان مختلفة، كل حوض نُقع فيه عدد من الجلود، بينما جلس شاب في أحد الجوانب ممسكًا بفراء ذئب يزيح

عنـه شـحمه.

توقـف نصلـه عـن العمـل مـا أن رأى (خاشـيد)، انتقـل بعينيـه بـين (خاشـيد) وبـين (مـيرا):

- قائد؟

يرفع (خاشيد) كفيه في إشارة استسلام قائلًا:

- ليس الأمر ما تظنه يا (ساليك).

يقـف (سـاليك) مـن مجلسـه والنصـل مـا زال بيـده ليشـير بـه ناحيـة (مـيرا).

- جيد، لأني ظننتها واحدة من كهنة النار؟

يحك (خاشيد) رأسه ويده الأخرى ما تزال أمامه قائلًا:

- نعـم... لا... حسـنًا هـي مـن تظنهـا، أحـد كهـان النـار، لكـن الأمـر ليـس كـما يبـدو.

- أنك أحضرتها هنا للقبض عليّ؟

في سرعة يقول (خاشيد):

- بالضبط...

يتراجع (ساليك) عدة خطوات فيقول (خاشيد) مصححًا:

- مهـلًا مهـلًا.. أعنـي أن ذلـك بالضبـط مـا تظنـه أنـت، لكـن كـما قلـت في البدايـة ليـس ذلـك هـو الأمـر.

- تحتـاج لتوضيـح الأمـر سريعًـا يـا قائـد قبـل أن تـأتي عواقـب الوشـاة طارقـة للأبـواب.

يشير (خاشيد) لـ(ميرا) بيده دون أن يحرك نظره عن (ساليك)، وهو يحاول رسم ابتسامة طمأنينة على وجهه قائلًا:

– هي ليست هنا للقبض عليك يا (ساليك).. لا أحد يريد القبض عليك.. أترى؟

ينظر (ساليك) لـ(ميرا) في شك سائلًا إياها:

– أنا لست مطلوبا من قبل كهنة النار؟

يأتي صوت (ميرا) للمرة الأولى باستغراب:

– لقد سرقت مكتبة (الآركون)! بالتأكيد يرغب كل الكهنة برأسك.

يتراجع (ساليك) أكثر بينما يضع (خاشيد) كفيه على وجهه في إرهاق ثم يصرخ قائلًا لـ(ساليك):

– لقد فقدت الكثير من الدماء، وذلك التعارف يتجه لنهاية كارثية فلتضع مؤخرتك على المقعد فـ(ميرا) هنا لم تأتِ للقبض عليك، نريد فقط بعض المعلومات لمساعدتنا لإتمام عقدك.

ثم يلتفت لـ(ميرا) مكملًا:

– (ميرا) رجاءً أكدي له أنك لست هنا من أجل رأسه.

تهز (ميرا) كتفيها قائلة:

– لو كنت أريد رأسه لحصلت عليها دون...

نظرة نارية من (خاشيد) تجعلها تعتدل في وقفتها وتقول لـ(ساليك):

– لا يا (ساليك)، لست هنا لقتلك أو القبض عليك، أنا هنا في مهمة شخصية لمساعدة (خاشيد) في عقده، ولكن ذلك لا يعني أن الكهنة

سيتوانون عن قتلك حال تعرفوا عليك في أي مكان داخل (زراد)، وأقدم لك قسمي أن كل حديثنا اليوم وموقع مخبأك لن يصل أبدًا عن طريقي للكهنة.

تأتي لحظات طويلة من الصمت بعد انتهاء (ميرا) من حديثها، يراقب فيها (خاشيد) و(ميرا) كل سكنات (ساليك) وهو يفكر فيما سمعه.

قبل أن يقرر أخيرا أن يتخلى عن نصله، ويجلس مشيرًا لهما أن يشاركاه المجلس قائلًا:

- لست قلقًا حيال معرفة مكان مخبأي، فقد آن أوان الرحيل عنه على أي حال.

ينظر لـ(خاشيد) بعد أن اتخذ مقعدًا بجواره:

- أود أن أقول أنك لا تبدو بخير، ولكن في ذات الوقت حصلت على كاهنة نار كمساعدة ذلك مبهر حقًا يا قائد.

- وددت لو تتوقف عن مناداتي بذلك، ولا تكرر وصفك لها كمساعدة كي نحتفظ برأسينا.

لاحظ (ساليك) نظرة (ميرا) له، وأنها ظلت واقفة فهز رأسه موافقا وقال مغيرًا للموضوع في سرعة:

- ما الذي تحتاج لمعرفته لننهي تلك الزيارة السعيدة سريعًا؟

قالت (ميرا):

- نحتاج أن نعرف مكان الـ(أغوش).

يقول (ساليك):

– لا يمكنني أن أعرف ذلك بالتأكيد، كنت أعرف أنها في الغابة بالقرب من الأسوار فجهزت لـ(خاشيد) الطُعم.

يقول (خاشيد):

– إذن جهز لي طعمًا آخر يجذبها مرة أخرى حيث نكون جاهزين لاصطيادها.

يفكر (ساليك) قليلًا قبل أن يقول:

– حسنًا، أحتاج لعدة أيام لتحضير الطعم، وبعدها سأصحبكم للتخلص منها.

يقول له (خاشيد):

– وأين كانت تلك الشجاعة حين أرسلتني وحدي لاصطيادها؟

– أعتذر عن ذلك بالطبع، فقد كان لدي توقعات خيالية لقدراتك.

تأتي النبرة التهكمية واضحة في صوت (ساليك).

يتجاهله (خاشيد) قائلًا:

– حسنًا.. بما أنك بارع في استخدام يديك؛ أحتاج إلى مقبض للسلك الفضي الطويل، المرة الماضية كدت أن أقطع أصابعي وأنا أحاول اصطياد الـ(أغوش) بها.

– يمكنني أن أصنع لك شيئًا أقرب إلى السوط، ثم أطليه بالفضة.

– طلاء سوط جلدي بالفضة فقط لن يكون كافيًا، هل يمكنك صناعة سوط معدني قادر على فصل رأس من على جسد؟

يهرش (ساليك) في رأسه:

- كل شيء ممكن، من منكما سيحاسب على سلاحٍ مثل هذا؟

يمد (خاشيد) يده داخل بنطاله ليخرج شيئًا من ملابسه الداخلية لتوقفه (ميرا) في سرعة:

- دعني أقوم بذلك.

ملقية بكرستالتي لهب لـ(ساليك).

ينظر لها (خاشيد) مستغلًا فرصة تواجد يده داخل بنطاله ليهرش وهو يقول لها:

- ذلك لطيف منك حقًا.

٢

عشرة أيام احتاجها (سيفاد) ليتحرك من فراشه.

الأيـام الأولى كانـت الأصعـب عـلى جسـده وعقلـه، غارقًـا في كل مـن هلوسـاته وعرقـه، لوهلـة ظـن أنـه قـد ابتـلي بالوبـاء.

في المـاضي كانـت نهايـة طبيـب الوبـاء مصابًـا بالوبـاء ذاتـه أمـرٌ متكـرر الحـدوث؛ فهـي معركـة يقـف فيهـا الطبيـب عـادةً وحيـدًا أمـام مـا يـولي عنـه الأدبـار أشـد المحاربـين بأسًـا.

«جئـت تطـارد الوبـاء، مـن العـدل أن يلاقيـك بتحيـة مناسـبة»... لكنـه يـدرك الآن وقـد مـر الأسـوأ أن ذلـك الابتـلاء سـيمر، وإن تحطـم غروره قليـلًا جـراء فشـله في معرفـة مـا ألم بـه حقًـا.

عـشرة أيـام يداويـه الفتـى، لا يـبرح جنبـه إلا ليـأتي بالشربـة اللعينـة التـي يعدهـا الطبيـب المحـلي، أو ليـأتي لـه بطعـام يدفسـه في فمـه دفسًـا.. لـولا الفتـى وصحبتـه لـكان (سـيفاد) مرميًـا وحيـدًا كسـقري جريـح نبـذه القطيـع.

ولكـن وإن صـح الجسـد، وإن اختفـت الهلوسـات الكـبرى التـي يواجـه فيهـا أبـاه بخذلانـه الأكيـد لـ(زدرد)، وفشـله المتوقـع في رحلتـه بحثًـا عـن مصـدر الوبـاء؛ فـإن مـا يسـمعه مـن هـلاوس بصـوت الريـح لم تخفـت للحظـة، هامسـة باعثـة بالقشـعريرة، ومُخرجـة لذكـرى الهـول وهو يتلـو عليـه وعـود مجـدٍ يبحـث عمـن يحملـه، وباقـتراب لقـاء يهديـه لمـا يبحـث عنـه، ومـا يبحـث عنـه دائـمًا هـو أن يعـرف أكثـر.

رغـم أنـه لم يكـن يشـعر أن جسـده قـد اسـتعاد كامـل عافيتـه؛ إلا أن الطبيـب طلـب مـن (عانـد) أن يقـوده إلى الدليـل الـذي كان قـد وافـق سـابقًا عـلى مرافقتهـما إلى مـا خلـف الـوادي مقابـل الكريسـتالات الفارغـة.

بطـيء الخطـوات، متكئًـا عـلى عصـاه بشـكل كبـير؛ اتبـع الطبيـب (عانـد) إلى مخيـم خـارج أطـراف المدينـة. اسـتوقف الطبيـب (عانـد) عـلى بعـد خطـوات مـن المخيـم وقـد شـعر بعـدم الراحـة مـن مظهـر الرجـال في المخيـم.

- كيف وصلت لهذا الدليل؟

سأل الطبيب ممسكًا إياه من كتفه ليجيبه:

- بعـد أن رفـض الجميـع التعامـل بعمـلات (زراد) دلنـي مالـك حانـوت عـلى هـذا المخيـم قائـلًا لي أنهـم يقبلـون أي نـوع مـن المدفوعـات.

لم يكـن ذلـك مبـشرًا بالخـير بالنسـبة للطبيـب، ولكنـه وضـع قناعـه عـلى وجهـه وأشـار لـ(عانـد) أن يتقدمـه ليدخـل المخيم.

اجتـذب دخولهـما الأنظـار، ولكـن لم يتوقـف أي مـن الرجـال عـما يفعلـه لتوجيـه حديـث لهـما. فقـط رجـل هزيـل الجسـد بمجـرد رؤيتهـم تحـرك

مـادًا الخطـى أمامهـما، متجهًـا إلى خيمـة منصوبـة في أحـد الأركان ويبـدو أن (عانـد) كان يتجـه لتلـك الخيمـة نفسـها.

يدخـل الرجـل الهزيـل الخيمـة قبـل أن يصـلا إلى بابهـا، بينـما وقـف (عانـد) ووراءه الطبيـب في انتظـار أن يخـرج أحدهـم.

ينتظر لبرهة قبل أن يأتي صوتٌ من خلفه:

– آه.. قـد عُـدت يـا فتـى. ظننتـك قـد غـيرت رأيـك أنـت وسـيدك ورحلتـما عـن (ثـول).

يلتفـت الطبيـب ليجـد المتحـدث رجـلًا شـحيما، يلـوك شـيئًا في فمـه، وبجـواره سـقري كامـل البلـوغ

تراجـع (عانـد) خطوتـين للـوراء ملتصقًـا بالطبيـب الـذي وضـع يـده مـرة أخـرى فـوق كتفـه ليبقيـه ثابتًـا في مكانـه.

كان مـن المخيـف رؤيـة سـقري عـن قـرب؛ فيبـدو أن (عانـد) لم يـر مـن قبـل ذلـك الحيـوان الشـبيه بالذئـاب، ولكـن جلـده مغطـى بالحراشـيف كجلـد السـحالي، ولسـانه المشـقوق الـذي لا ينفـك أن يخرجـه ليلعـق بـه أنفـه المفلطـح.

كانـت كل خطـوة يأخذهـا السـقري بجـوار الرجـل الشـحيم تـترك أثـرًا غائـرًا في الرمـال مـن فعـل مخالبـه الثلاثيـة الحـادة في كل طـرف مـن أطرافـه الأربعـة.

– لا تخـف يـا فتـى، فسـقريي هـذا لا يهاجـم إلا بأمـري. فهـو يملـك مـن ضبـط النفـس مـا لا يملكـه أغلـب مـن حولـك مـن رجـال.

– لم أر شخصًا من قبل روَّض سقري كحيوان أليف يا سيد ...؟

– (أحاذ).. اسمي (أحاذ)، تفضل بالجلوس سيدي الطبيب.

مشيرًا بيده لجذع نخلة مقطوع اتخذ الرجل مجلسه على جذع مماثل أمامه.

تردد الطبيب للحظة، شاعرًا بالتوتر من كون جلوسه سيجعل السقري الواقف يفوقه طولًا.

لكنه جلس جاذبًا (عانـد) ليقعد إلى جواره، حريصًا على ألا يبدي أي من توتره.

– السقريات لا تُروض.

قال (أحاذ):

– أعلم أن كل ما يعرفه أهل الممالك الجديدة هو حكايات البحارة القادمين من هنا عنها لكنكم لا تعرفون مدى ارتباطها بتاريخ الممالك القديمة، فذلك الكائن الضاري هو من أحفاد التنانين.

قال الطبيب بضحكة خفيفة:

– التنانين مجرد أسطورة يا سيد (أحاذ).

هز أحاذ رأسه موافقًا وهو يربت على حراشيف السقري:

– نعم، فلم نر تنينًا يومًا رؤي العين؛ ولكن ألا ينطبق ذلك على كل الآلهة؟! في ممالككم تعبدون القمر والنار، وفي أرضنا هنا – في الأرض الأم – عبدنا اثنين وستين إلهًا بعدد أقمار كانت يومًا في السماء، حتى ابتلعهم الصمت، وعندها صرنا نعبد الصمت.

لم يستطع (سيفاد) أن يحدد إذا كان وهم عقله جراء المرض ما يمنعه من متابعة حديث هذا الرجل، أم أن الرجل يهذي بخرافات.

بفضول تساءل:

– أي آلهة دون القمر والنار؟ عن ماذا تتحدث؟

– أتحدث عن أساطير يا سيدي الطبيب، كما قلت لك كل ذلك مجرد أساطير، لا تلق لها بالًا، ولكن التنين هو أسطورة مفضلة بالنسبة لي. هل تعلم أن سبب تحريم كريستالات النار في الممالك القديمة كان بسبب أسطورة السقريات والتنانين؟.. فالأسطورة تقول أنه لو دخل قلب كريستالة لهب أحشاء سقري؛ فإنه يتحول تنينًا!

ضحك الطبيب في سخرية قائلًا:

– يا للأسى، كدت أنجح بالعبور بحقيبة كاملة من كريستالات اللهب من (زراد) إلى هنا. كنت سأحب أن أرى ذلك السقري يتحول إلى تنينٍ نافثٍ للهب.

– سمعت بشأن مغامرتك تلك، ولكن ماذا نقول عن سوء الحظ! سوء حظي أنك لم تنجح بالعبور ببعض من تلك الكريستالات.. أنت لم تخبئ بعضهن بالمصادفة؟

هز الطبيب رأسه:

- للأسف لا، تخليت عنهن حتى آخر واحدة إرضاءً للبحارة.

يأخذ (أحاذ) نفسًا عميقًا ثم يخرجه قائلًا في خيبة أمل:

- وذلك من سوء حظك أيضًا، كريستالتي لهب منك كانتا لتكفي كي أرسل حاملي المجد كسيري الرجاء، يجرجرون أذيال الخيبة، ولكن الآن فإن عرضهم أفضل من بعض كريستالات مهشمة.. ألا توافقني الرأي؟

يشعر الطبيب بعدم الفهم مرة أخرى وهو يتساءل:

- ما الذي تتحدث عنه؟.. سامحني فإن عقلي مشوش...

قبل أن ينهي جملته لمح بطرف عينيه اثنين من الرجال يجذبا (عانـد) من جانبه مقيدين إياه، وشعر بظلٍ يأتي من خلفه.

يلقي الطبيب بسرعة جسده على الأرض متناولًا عصاه، ضاربًا بها الهواء على أمل أن يبعد أي من يحاول الاشتباك معه.

يأتي فحيحٌ من جانبه؛ ليجد أن (أحاذ) لم يحرك ساكنًا، ولكن سقريه في وضعية تأهب، ورجل ضخم الجثة يقف خلف الجذع، وبجانبه اثنين من الرجال الأشداء، أحدهما يمسك بـ(عانـد) مغطيًا صرخات تحاول أن تفلت من فمه، والآخر يمسك سيفًا في يد وحبلًا في اليد الأخرى. لا يجد الطبيب كلمات فالصدمة قد ألجمت لسانه.

يأتي صوت (أحاذ) الذي لا يظهر فيه أي تغيير في نبرته:

- أنت في وسط مخيم به خمسين رجلًا وقطيع من السقريات تتوق للوجبة التالية. لنختصر ذلك الأمر بلا أي حاجة للإقلال من

قـدرك، ومـن مقامـك.

أخيرا استطاع الطبيب إخراج كلمة واحدة من فمه:

- لماذا؟

فجـاءت خائبـة خانعـة تخـبر (أحـاذ) ورجالـه باستسـلام الطبيـب لهـم. ليغمـد ذو السـيف سـيفه، ويقـترب ليسـاعد الطبيـب عـلى الوقـوف، ويبـدأ في تقييـد يديـه، ليقـول (أحـاذ):

- لا داعـي لذلـك، سـينتظر الطبيـب مكرهًـا في الخيمـة حتـى يـأتي حفنـة المجانـين لاصطحابـه.. سـيدي الطبيـب أريـدك أن تطمئـن أنـه بمجرد أن يصطحبـك أولئـك المجانـين سـنترك تابعـك عـلى الفـور، حيـث يمكنـه العـودة إلى (زراد)، وإخبـار ملككـم بوضعـك الحـالي، وبالتأكيـد سـوف يرسـل رجـالًا لإنقـاذك، ذلـك بـادرة حسـن نيـة مـن جانبـي لتفهـم أننـي رجـل أعـمال، ولا أضمـر لـك أي شر.

٣

بعد اختلاف طال بين (ميرا) و(ساليك) حول رغبتها في إحضار بعض من كهنة النار في رحلتهم لاصطياد الـ(أغوش) ظنًا منها أنه يرفض المبدأ خوفًا من أن يشي به أحدهم أو يقتلوه بعد أن يصلوا إلى الـ(أغوش)، بينما كان (ساليك) يؤكد أن كثرة العدد ستجعل الـ(أغوش) والغيلان يبتعدون عن موقعهم وإن استخدموا مئة طعم.

في النهاية اتفقا على أن يصحبهم (داليف) لتصبح الحملة مكونة من (خاشيد) و(ساليك) و(ميرا) و(داليف)؛ متعمقين في الغابة لمسيرة يوم، قبل أن يخيموا، وينطلق كل منهم ليزرع الفخاخ في دائرة حول موقع التخييم، ثم يضعون الطعم بعدها في وسط المخيم جاذبين به انتباه الـ(أغوش).

كان (خاشيد) أول من انتهى من زراعة فخاخه، وعاد إلى المُخيم ليُشعل النيران، ويجلس في انتظار بقيتهم. تبعته (ميرا) ومن بعدها (ساليك) ليجلسا قبالته، ويطول الصمت جراء تعب اليوم.

يسأل (خاشيد) فجأة:

- كم عمرك يا (ميرا)؟

- ولدت بعد ثورة النار بعشرة أعوام.

قال (خاشيد):

- ماذا تطلقون عليها الآن؟ ثورة النار؟

تتساءل (ميرا) مستغربة:

- هل كان لها اسمًا آخر؟

يومئ (خاشيد) برأسه قائلا:

- لأقل من يوم على ما أعتقد حين أسماها أحدهم ثورة النور، لكن من يحكم يكتب التاريخ، فلعلها نارًا إذن.

- عن ماذا حكوا أيضًا؟ من الأفضل لي أن أعرف تاريخ (زراد) من فم من يسطروه؛

فرُب حكاية لا تُريدون أن تُحكى تنساب من فمي في يوم سُكر أو في حالة سكر وأفقد رأسي. ولا أخفيك سرًا أنا شديد الارتباط بهذه الرأس.

- لا يخبرونني الكثير عن ثورة النار أو النور إن شئت.

- وماذا عن «أخا السلاح» الذي يرافقك؟ يبدو أنه في عمرٍ وعى

فيه على الثورة. ألم يشاركك أي تفاصيل؟

تعجبت (ميرا) من المصطلح «أخا السلاح»، ولكنها أرجأت السؤال عن ذلك المصطلح وهي تقول:

- لا، ألتزم بتوصيات (الآركون) ألا نسأل، وبالتأكيد لن يتطوع أحد ليشاركك.

يهز (خاشيد) رأسه في تفهم، وما تزال عيناه مرتكزة على النيران. ثم يسأل بعد برهة دون أن يشيح وجهه عنها:

- وهل تسألين الآن؟

كاد قلب (ميرا) أن يقفز ولسانها ينطق أن نعم بالطبع تسأل!.. لو هناك أي سؤال ترغب في إجابته فقد كان هو ذلك السؤال. لماذا؟ فقط.. لماذا؟ كل ما تعرفه أن الملك أزاح النبلاء وطردهم من (زراد).

لا تعلم كيف؟ ولا تعلم لماذا؟ ولا تعلم لم صار الملاعين ملاعينًا؟ كل ما دُرس لها هو تاريخ كهنة النار. «كنا في يوم خارج (زراد)، وبفضل الملك السجين صرنا داخلها». وكمكافأة للملك صار لدينا سجينًا.. لماذا؟ وكيف؟.. من استطاع إزاحة الملك والنبلاء لا يستطيع أن يسمح بسجنه!

نعم تريد أن تسأل، ولكن إن أسميناها توصيات فهي في الحقيقة أوامر لا يمكن مخالفتها.

تمر الثواني و(خاشيد) صامتًا وإن ارتسمت على وجهه بسمة استمتاع وكأنه يعرف أنها لا يسعها الجواب، وفي النهاية يلتقط غصنًا ويبدأ في الحديث.

-كل الحكايات قد حُكيت من قبل، حتى ما سأحكيه لك. قبل

أن يصيروا ملاعينًا كان أهل الـ(داز) أهل (زراد).. ربما كان النبلاء في (زراد) من قبل أبناء الـ(داز) كمستكشفين للممالك الجديدة، ولكن أبناء الـ(داز) هم من كانوا يزرعون الأرض، ويبنون (زراد)، من قبلهم كانت مستنقعات وملاجئ للحيوانات حول نهر جاري موضوع عليه أعلام النبلاء. كلٌ يغرس علمًا في مقاطعة، وكان الملك يحمي مُلكه بنبلائه الحديديين.

تمر نظرة كُره في عين (ساليك) مع ذكر النبلاء الحديديين. تراها (ميرا) ولكنها لا تجرؤ على مقاطعة (خاشيد) الآن.

يلاحظ (خاشيد) أيضًا نظرات (ساليك) فيسكت للحظة، ثم يجلو حلقه باصقًا تجاه النار ويكمل:

- كما كنت أقول؛ النبلاء.. النبلاء الحديديون وعبيدهم...

لا تتمالك (ميرا) نفسها وتسأل:

- تعني أهل الـ(داز)؟ أولئك كانوا عبيدًا عند النبلاء؟

يهز رأسه أن «لا»...

- لا.. ما أحدثك عنه قبل أهل الـ(داز).. (الأبناس).. كانوا جنسًا استوطن أرضهم النبلاء من مئات السنين. برغم قوتهم إلا أنهم كانوا مسالمين جدًا. حتى أنهم رفضوا التهام الحيوانات. لم يقاوموا حين أُخذت أرضهم، ولا حين أصبحوا عبيدًا. كانوا سود البشرة، ضخام الجثة، وخارج أرضهم صارت أعدادهم تتناقص بسرعة.

مرة أخرى لا تتمالك نفسها وتسأل:

- هل تعني أن الملك...؟

يقاطعها قائلًا: نعم.. الملك هو آخر (الأبناس)، ولكن دعني أكمل لكِ. وصل أهل الـ(داز) لـ(زراد) بحرًا في مجاميع صغيرة في البداية بعد رحيل الوباء. عمروا المملكة وازدادت أعدادهم تدريجيًّا. ثم قرر النبلاء أنه لا خطر من عودة الوباء مرة أخرى؛ فبدأوا في استقدام عائلاتهم. بدأت علاقة النبلاء بأبناء الـ(داز) بأنهم مستأجرون يسمحون لهم بالعمل في الأرض ولكن بمرور الأعوام استيقظ أهل الـ(داز) ليجدوا أنفسهم ملكًا للنبلاء. كل ما يصنعونه، وكل ما يزرعونه.. كل ما جُني أو سيُجنى فهو ملك للنبلاء. هم بالكاد يملكون ما يكفيهم ليومهم. جيل بعد جيل ازدار فحش النبلاء، ومع قدوم الوباء الثاني ترك النبلاء (زراد) مرة أخرى، تاركين خلفهم النبلاء الحديديين لتأمين مقاطعاتهم حتى ينجلي الوباء. بالطبع لم يملك أهل (زراد) رفاهية الرحيل عن بيوتهم ومات الآلاف منهم مع الوباء الثاني. وحين انجلى وعاد النبلاء بدأوا في مطالبة أهل (زراد) بنصيبهم مما زرعوه في أعوام الوباء مرة واحدة. لم يكن النبلاء حقًا يتوقعون أن يستطيع أهل (زراد) الوفاء بما يطلبون، هم فقط كانوا يريدون أن يحرصوا على أن يظل أهل (زراد) في دين كبير، لا يستطيعون الوفاء به أبدًا، ومعه تستمر دورة الاستعباد، ويبدأ النبلاء في تجديد مقاطعاتهم داخل (زراد)، وكان لهم ما أرادوا لأعوام قصيرة، حتى أتى مجموعة من الحمقى وقرروا أن يدعوا أهل (زراد) للثورة على النبلاء.

مرة أخرى تلمح (ميرا) تعبيرات وجه (ساليك) وهو يبتسم في سخرية مريرة، ويطلق ضحكة مسموعة يتجاهلها (خاشيد) مكملًا:

- كانوا خمسة حمقى ألهبوا قلوب أهل (زراد)، وكانوا جنودًا في جيش (زراد). استطاعوا فتح مخازن السلاح للثوار، ولكن أسوأ ما

اقترفوه كان ما حدث مع «الأبناس»؛ فكي تنجح ثورة على النبلاء كان يجب تحييد النبلاء الحديديين.

قالها ملقيًا نظرة خاطفة على (ساليك). الذي لم يُبد أي مشاعر تلك المرة.

- أخبريني أيتها الكاهنة، ما الذي تعرفينه عن النبلاء الحديديين؟

ثوانٍ استغرقتها (ميرا) مفكرة إن كانت إجابتها على ذلك السؤال ستخرق أيًا من وصايا (الأركون)، ولكن حين لم تجد ما يتعارض مع وصاياه أجابت:

- ليس الكثير.. يرتدون دروعًا حديدية، لا يستطيع بشري سواهم تحمل وزنها، مُطعمة بالذهب - عرفت ذلك من الرسومات في القصر الملكي - ولديهم مناعة ضد الوباء.

- دعيني أصحح لكِ معلومة يا عزيزتي؛ يرتدون دروعًا حديدية لم يتحملها بشري قط.. فالنبلاء الحديديون ليسوا ببشر. تلك الدروع لا يرتدونها، بل هي جزء من أجسادهم. لا يأكلون ولا ينامون، ولا يمكن قتلهم. لا نعرف كيف وجدوا، ولماذا يعدهم النبلاء نبلاءً مثلهم وهم مجرد محاربين، ولكن نعرف شيئًا واحدًا؛ أنهم يطيعون الملك طاعة عمياء؛ بسبب صندوق ذهبي يحتفظ به في القصر، كلما أراد أن يعطيهم أمرًا أتوا له بذلك الصندوق. يجب أن يحمل هذا الصندوق وهو يعطي أمرًا لأحدهم. ولأن هذا الصندوق يزن أطنانًا؛ فقد كان يحتاج إلى اثنين من (العبيد الأبناس) لحمله. وكنا نحتاج - حين تقوم الثورة - ألا يأتي له هذا الصندوق. فاجتمع قادة الثورة الخمسة بـ(الأبناس)، وأغرقوهم وعودًا. لم يكن (الأبناس) حمقى أو مغيبين، ولكن بديلٌ أبدًا لم يُطرح عليهم عما يحيونه. لم يهتم العبدان

كثيرًا بوعود غنى أو ثروات، كان كل ما يشغلهما أن جنسهما صار عدده أقل من الألفين، متمركزين كلهم في (زراد) وما حولها. كل ما أراداه أن يختلط أبناؤهما بأبناء الـ(داز)، ويصيرا من أهل (زراد). فكتبت وثيقة عهد، وضمن القادة أن الصندوق لن يصل إلى يد الملك، وأن النبلاء الحديديين لن يكونوا طرفًا في القتال.

كانت الآن (ميرا) غارقة في التفاصيل التي تسمعها لأول مرة حتى كانت تريده أن ينهي الحكاية قبل أن ينتهي (داليف) من زرع الطعم والفخاخ ويعود، كانت تستكثر عليه الأنفاس، ولكنه أخذ وقته وأنفاسه على مهلٍ قبل أن يقص ما بدا أصعب جزء في الحكاية.

– ثم جاء يوم النور.. وصحا الملك راغبًا في الصيد؛ فأول ما طلبه كان أن يحضر العبيد الصندوق، ليبلغ اثنين من النبلاء الحديديين أن يرافقاه في رحلة الصيد هو وأبناءه. كان يفصلهم عن موعد انطلاق الثورة ساعتان. لم يكن للعبدين أن يخاطرا بأن يظل الصندوق معه وقت أن يبدأ أهل (زراد) ثورتهم. فأخذوا الصندوق وحصنوا أنفسهم داخل غرفة نوم القصر الملكي. وصل النبأ للقواد الخمسة فقد كان بعضهم قد بدأ في التحرك بالفعل، كان كل حراس القصر في تلك اللحظة يهدمون أبواب الغرفة الملكية على العبدين. لم يكن هناك مجالٌ لمعرفة إذا كان سيتمكن الثوار من الوصول إلى القصر قبل أن يصل الملك إلى الصندوق ويطلق العنان لنبلائه الحديديين أم لا. فاتخذ أربعة من الخمسة قادة قرارهم بألا يتحركوا.

في سرعة سألت (ميرا): وماذا عن الخامس؟

أجاب (خاشيد):

– لا يهم الخامس، فالأربعة الآخرون مزقوا وثيقة العهد، وقرروا أن

يسرعـوا للقـصر للوقـوف وسـط حاشـية الملـك درءًا لأي شـبهة، وحـين اقتحـم الحـراس الغرفـة ألقـى العبديـن بنفسـيهما فـوق الصنـدوق ظانـين أن الثـورة قـد بـدأت وقادمـة لإنقاذهمـا. لا أبالـغ حـين أقـول لـكِ أن آلاف الطعنـات اخترقـت جسـديهما دون أن يتزحـزح أحدهمـا. احتاجـوا أن يقطعـوا جسـديهما مـن أجـل الوصـول إلى الصنـدوق. مضحـين بنفسـيهما مـن أجـل ثـورة لم تقـم ومسـتقبل يأمـلاه لأبنائهـما.

هيـئ لـ(ميرا) أنهـا تـرى دموعًـا في عـين (خاشـيد). بينـما قـام (سـاليك) متجهًـا ناحيـة الأشـجار دون كلمـة. ثـوانٍ أخـرى مـرت قبـل أن يكمـل (خاشـيد):

– وقتهـا ظـن الجميـع أن لا نهايـة أسـوأ مـن ذلـك، ولكـن ما حـدث كان أسـوأ. وشـاية وصلـت للملـك وبعـض النبـلاء عـن أن مـا حـدث كان جـزءًا مـن خطـة لثـورة عليـه؛ فبـدأ حملـة رهيبـة مـن الاعتقـالات لأهـل (زراد) أبنـاء الــ(داز). اكتظـت سـجون الملـك وتفنـن رجالـه في تعذيـب المسـجونين محاولـين اسـتخراج المعلومـات التـي – ويـا للسـخرية – يعلمونهـا بالفعـل؛ لأن أغلـب الجلاديـن وقتهـا كانـوا مـن أهل الــ(داز)، وكانـوا مشـاركين في خطـة الثـورة. وكل مـن كان ينطـق في سـجن الملـك كان الجـلاد يحـرص أن يقتـل كـي لا تصـل المعلومـة للملـك؛ فأطبـق بقيـة المسـاجين عـلى فمهـم آملـين أن يكـون لهـذا العـذاب نهايـة. وحـين لم يـأتِ مـن التعذيـب أي معلومـة تُـرضي الملـك قـرر أن ينتقـم مـن كل (الأبنـاس)؛ فقـد كان كل مـا يقولـه أبنـاء (زراد) أن تلـك الثـورة المزعومة هـي ثـورة عبيـد لا شـأن لهـم بهـا، حينهـا أصـدر الملـك الأمـر للنبـلاء الحديديـين بقتـل كل (الأبنـاس).

في يومـين فقـط محـي جنـس كامـل مـن عـلى وجـه البسـيطة، ولكـن في

اليـوم الثالـث وللعجـب صحونـا لنجـد عبـدًا واحـدًا، آخـر مـن تبقـى مـن (الأبنـاس) قـد قتـل الملـك، ويتبعـه جيـش النبـلاء الحديديـين. خطبنـا وهـو يلتهـم قلـوب أبنـاء الملـك ووصـم كل أبنـاء الـ(داز) ملاعينًـا، طـاردًا لـكل النبـلاء مـن أرض (زراد)، وفي اليـوم نفسـه دخـل كهنـة النـار (زراد) يعلنـون بدورهـم أن الملـك صـار سـجينهم، وإن كان لا يـزال ملـكًا عـلى (زراد) ومـا نـزال ملاعينًـا. وقبـل أن ينـزل الملـك لزنزانتـه أصـدر أمـرًا أخـيرًا للنبـلاء الحديديـين خرجـوا بـه مـن (زراد)، ولم يرهـم أحـد حتـى يومنـا.

صمتـت (مـيرا) بعـد أن أنهـى (خاشـيد) حكايتـه التـي لم تجـب حقًـا عـن كل أسـئلتها، ولكنهـا أوضحـت الكثـير. ثـم سـألت:

– وماذا حدث لقادة الثورة الخمسة؟

– فصل الملك رؤوس أربعة منهم عن أجسادهم بيده العارية.

– والخامس؟

جاء صوت (ساليك) الذي يبدو من خلفها ليقول:

– جالسٌ بجوارك يحكي لكِ الأساطير، صانعًا من نفسه شهيدًا.

في صدمة تنقل نظرها ما بين (ساليك) و(خاشيد) وهي تقول:

– أكنت أنت واحد من القادة الخمسة؟

لا يجيب بل يأتي صوت (ساليك) مرة أخرى:

– نعـم.. ولأسـتخدم كلماتـه، كان واحـدًا مـن الحمقـى الخمسـة.. كان أكـبر أحمـق فيهـم. فقـد كان هـو مـن لم يلتـزم بقـرار التراجـع الـذي قـرره الأربعـة الآخـرون، وبسـببه وبسـبب واحـد مـن مجموعتـه أتـت

الوشـاية. لا يعنـي ذلـك أن الأربعـة الآخريـن لم يكونـوا عـلى القـدر نفسـه مـن الحماقـة، لقـد لعنونـا جميعًـا.

بغضب أتى صوت (خاشيد):

– لم يكن ذلك ما أردناه.

بغضب أكبر يتقدم منه (ساليك):

– ومـا الـذي أردتمـوه بالضبـط؟ قلتـم اتبعونـا اليـوم تتحـرروا. لم نكـن نعـرف مـا الـذي سـيحدث وكيـف سـنتحرر، ومـن سـيحكمنا لـو رحـل كل النبـلاء. كنـا راضـين وكذلـك (الأبنـاس). أنتـم مـن دخلتـم جيـوش النبـلاء واقتربتـم منهـم.. كنتـم تطمعـون.

ينفجر (خاشيد) في حده:

– كنـت طفـلًا لا تعـي وقتهـا يـا (سـاليك)، توقـف عـن الرجـم بكلماتك فـ...

يقاطعه (ساليك):

– دعنـي أخـبرك بـما وعيتـه.. وعيـت عـلى جسـد أبي المشـقوق، ورؤوس إخـوتي المهشـمة بفعـل النبـلاء الحديديـن بعـد أن تبعـوك في ثورتـك المشـؤومة.

يسقط بيد (خاشيد) فلا يرد ليكمل (ساليك):

– وعيـت أيضًـا عـلى جـوع وضنـك مـن بعدهـم. صرت شريـدًا، وبحثـت عمـن كان يدعـوه أبي القائـد، هـل تعـرف أيـن وجدتـه؟

وجـوم لا تخرقـه سـوى قرقعـات النـيران، ينظـر (سـاليك) لـ(مـيرا) مشـيرًا لـ(خاشـيد) ليقـول:

- لا لم يكن القائد حبيسًا أو مقعدًا، بل كان ضيفًا على الحانات، يواسونه بالدخن وهو من نجا.

عاد (خاشيد) لمجلسه منكَّس الرأس، لا يحمل ردًا على كلمات (ساليك). نظرة احتقار أخيرة يوجهها (ساليك) ناحيته قبل أن ينكص عنه لسانه ويعود حيث كان عند الأشجار.

تظل (ميرا) في مجلسها قبالة (خاشيد) كابحة لفضولها أن تسأل عن المزيد ليأتي صوت (خاشيد) الذي ظنت أنه عزف عن الحديث:

- كما ترين.. كُلنا أشرار.. هي حقًا أرض للملاعين.

تُفكر أنه ربما إذن، سؤال آخر لن يكون خارج حدود الأدب.

تهم سائلة ولكن قبل أن تنطق تلمح عمودًا من سائل ما يتلوى في الهواء، شاقًا طريقه حيث يجلس (خاشيد)، تقفز جاذبة لـ(خاشيد) بيد، ويدها الأخرى ساحبة لسيفها من غمده، لا يقاوم (خاشيد) وقد انبطح أرضًا، ويأتي السائل الأخضر اللزج متناثرًا على جذع الشجرة، لتبدأ الشجرة في التآكل على أثره، ومن قلب الظلام تراها.. الـ(أغوش) ببشاعتها وهيئتها المقبضة تتقدم ناحيتهم، ومن حولها غيلان تتواثب وتشق طريقها ناحية (ميرا) و(خاشيد).

لا تتردد (ميرا) وهي تقفز من فوق جذع الشجرة في طريقها لمجابهة الغيلان والـ(أغوش). يصرخ (خاشيد) وهو يشعر أنه قد رأى ما حدث من قبل، فها هي (ميرا) تتقدم ضاربة رؤوس الغيلان بضراوة وها هو ملقى على ظهره أرضًا معدوم الفائدة كما حدث من قبل.

- تذكري، لا توجهي أي طعنات للـ(أغوش) قبل أن نفصل غدتها

السـامة.

كان واثقًـا أن (مـيرا) قـد سـمعته، وإن لم تتوقـف لحظـة للـرد؛ متنقلـة (مـيرا) مـا بـين كـرٍ وفـرٍ مـن غـول لآخـر، في رقصـة قتاليـة لا مثيـل لهـا.

ينتـزع (خاشـيد) نفسـه مـن فـوق الأرض، ويرفـع نظـره مـن عـلى رقصـة المـوت التـي ترقصهـا (مـيرا) متنـاولًا حقيبتـه ليُخـرج السـوط المعـدني المطـلي بالفضـة الـذي صنعـه (سـاليك) لـه.

بطرف عينيه يلمح (ساليك) عائدًا من الغابة وهو يصرخ:

- لا تدمي الـ(أغوش)، لا تستخدمي السيف.

يفكر (خاشيد):

- لا ضرر من تأكيد المعلومة.

لكـن إن لم يكـف (سـاليك) عـن الـصراخ فـإن (خاشـيد) متأكـد أن (مـيرا) ستسـتدير لتفصـل رأسـه.

رفع (خاشيد) عقيرته قائلًا:

- هـي تعـرف ذلـك بالفعـل.. نحتـاج أن نجـذب الـ(أغـوش) ناحيـة أقـرب فـخ نصبتـه.

يلتفـت (سـاليك) حولـه في هلـع محـاولًا أن يتذكـر الاتجاهـات قبـل أن يشـير إلى ناحيـة اليمـين داخـل الغابـة ليـصرخ بـه (خاشـيد) مـرة أخرى:

- وأين الطعم؟

يهرع (ساليك) متقدمًا ثم يتوقف فجأة صارخًا:

- لا أستطيع الوصول إليه لتكتل كل أولئك الغيلان.

ينقل (خاشيد) السوط المعدني ليساره متناولًا سيفه بيمينه منطلقًا تجاه الموقع الذي أشار إليه (ساليك).

كانت الـ(أغوش) قد حددت (ميرا) كأكثر الأهداف خطورة، فبدأت تتحرك بتؤدة ناحيتها متوقفة بين الحين والآخر لتطلق بزقاتها الخضراء اللزجة السامة ناحية (ميرا).

لم تجد (ميرا) أي صعوبة في تفادي تلك البزقات، بينما تستمر في توزيع طعنات وضربات عاجلة للغيلان من حولها.

طعن (خاشيد) غولًا وسحب يديه في سرعة بينما ينقض آخر على يده، ليفرد سوطه الفضي ضاربًا الغول الآخر، شاقًا جسده، مطلقًا رائحة بشعة كادت تجبر (خاشيد) على إغلاق عينيه، ولكنه قاوم متقدمًا، وضاربًا بسوطه مرة أخرى ليفصل مخلب غول عن جسده كان يحاول الهجوم عليه.

يلف (ساليك) حول دائرة القتال محاولًا ألا يقترب كثيرًا وقد تجاهلته الغيلان تمامًا؛ فخمن أن الغيلان ربما تركز على ما يظنونه مشكلًا خطورة أكبر عليهم.

يصل (خاشيد) أخيرًا لحقائب (ساليك)، ويخرج لفة قماشية كبيرة سيئة الرائحة يرفعها عاليًا سائلًا (ساليك):

- أتلك هي؟

لا يحتاج انتظار إجابة (ساليك)؛ فصوت يشبه الصراخ مختلطًا بحشرجة يأتي من ناحية الـ(أغوش) التي تقرر أن تغير اتجاهها بخطوات متسارعة إلى حيث يقف (خاشيد) مستمرة في بزقاتها السامة.

يتقافز (ساليك) كالمجذوب مشيرًا إلى (خاشيد) موجهًا إياه إلى موقع أقرب فخ قد نصبوه للـ(أغوش):

- من هنا.

يزرع (خاشيد) سيفه في عين أحد الغيلان، تاركًا إياه ليحمل لفافة الطعم في يد، وسوطه المعدني في اليد الأخرى، راحلًا إلى حيث وجهه (ساليك)، متفاديًا الغيلان يمينًا ويسارًا، عازمًا على ألا تلحق به الـ(أغوش) حتى يصل إلى مكان الفخ.

كانت (ميرا) قد انتهت من كل الغيلان التي أحاطت بها، وبدأ ما تبقى في ملاحقة (خاشيد) تابعين الـ(أغوش).

تصرخ (ميرا):

- الـ(أغوش) خلفك.

يأتي صوت (خاشيد) بأنفاس لاهثة دون أن يلتفت:

- أعرف ذلك، حاولي تعطيلها.

ثم يتذكر شيئًا ليأتي صوته صارخًا ليشاركه (ساليك) في الصرخة ذاتها:

- لا توجهي لها أي طعنات.

تعيد (ميرا) سيفها لغمده وهي تقول في نفاذ صبر، بينما تركض في اتجاه الـ(أغوش):

- أعرف ذلك.

استخدمت (ميرا) رأس اثنين من الغيلان كي تتسلقها رامية نفسها تلتحم بالـ(أغوش) من الخلف محيطة برقبة الـ(أغوش) وقدماها قد

انغلقت على وسط الـ(أغوش).

كان ملمس الـ(أغوش) لزجًا، وقد شعرت أن جسدها كجسد ثعبان زلق، ويخلو من كل العظام. لم تهتم (ميرا) كثيرًا للرائحة البشعة، ولا للشعر المتساقط من فوق جمجمة الـ(أغوش)، تمنت لو أُتيح لها أن تُحطم تلك الجمجمة البشعة، ولكن كل ما تستطيع فعله هو أن تشل حركتها موجهة رأسها وبزقاتها السامة بعيدًا عن (خاشيد).

توقفت الـ(أغوش) بالفعل، واستطاعت (ميرا) أن توجه رأسها للأعلى فلا ترى إلى أين يتجه (خاشيد).

فما كان من الـ(أغوش) إلا أن توقفت ثم في حركة مفاجأة ارتمت على ظهرها لتشعر (ميرا) أن عظام جسدها تتحطم وقد سقطا فوق غول كان يتبع الـ(أغوش)، شعرت بحركته تحت جسدها يحاول أن يخرج من تحت ذلك الوزن المفاجئ الذي يهرس جسده.

لم تتوقع (ميرا) هي الأخرى ذلك الثقل من جسد الـ(أغوش)، برغم كتلتها الكبيرة. تكاد تكون متأكدة أنها حطمت ضلعين.

توجه بكوعها ضربة لرأس الغول المسجون تحتهما لتنهي آلامه وحركته. تستمر في الضغط بأقصى طاقتها على وسط الـ(أغوش)، وإن كانت قدماها بفعل السقوط قد ارتفعت لأعلى قليلًا لتقترب من ثديي الـ(أغوش) المتهدلين.

تحاول بيدها الأخرى أن تمسك بقبضتها رأس الـ(أغوش)، ولكن أي شيء تقبض عليه يسقط من جسد تلك المخلوقة اللعينة.

تمسك الـ(أغوش) بكاحلي (ميرا) بقوة لم تتوقعها محاولة تحرير نفسها من تحكمها.

تُفلت (ميرا) رقبة الـ(أغوش) على الفور محاولة الإمساك بيديها، ولكن تستوعب (ميرا) مدى خطأ ما فعلته، فبمجرد أن تركت رقبتها حتى وجهت الـ(أغوش) بزقة عالية اضطرت معها (ميرا) أن تفلت ساقيها دافعه الـ(أغوش) بعيدًا عنها، متدحرجة بعيدًا عن مكان سقوط السم.

يسقط السم فوق ثديي الـ(أغوش)، ولا يبدو أن له أي تأثير عليها. تكاد أن تقسم أنها رأت بسمة جذلة على وجه الـ(أغوش) وقد تحررت لتقف في ليونة غير متناسبة مع كتلتها أبدًا، وتقترب من (ميرا) قبل أن تستطيع التحرك من مكانها، وتنزل بقدمها على صدر (ميرا) حيث ظنت من قبل أن ضلعيها قد كسرا، والآن هي تعلم أن ذلك حقيقة لا مفر منها.

يأتي صوت (خاشيد) جاذبًا انتباه الـ(أغوش):

– تعالي أيتها اللعينة لدي ما تريدينه.

كان قد عاد من أجلها والتفت حوله مجموعة من الغيلان لا تهاجمه بل تنظر للـ(أغوش) وكأنهم في انتظار أمرٍ منها.

على الفور تتجاهل الـ(أغوش) (ميرا)، وتتحرك مادة يدها تجاه الطعم الملفوف.

– نعم أيتها اللعينة تعالي إلى هنا.

يتحرك (خاشيد) للخلف وهو محاصر تمامًا بالغيلان، وتقترب الـ(أغوش) أكثر فأكثر.

– اللعنة.. (ساليك).. ألديك أي حلول؟

يقول (ساليك) بسرعة:

- يجب عليك إحضار الطعم إلى الفخ.

يجز (خاشيد) فوق أسنانه وهو يقول من بينها:

- أعرف ذلك أيها الأحمق.

ومع اقتراب الـ(أغوش)، يتخذ (خاشيد) قرارًا لا مفر منه.

- إذن سأضحي بنفسي وبكاهنة نار، وبـ(ساليك).. هو أحمق يستحقها على أي حال.. لن تكون ميتة بهذا السوء.. إنه الحل الوحيد.

يفرد (خاشيد) سوطه، ويستعد لضرب الـ(أغوش) والسموم التي سوف تنطلق منها قاتلة للجميع، ولكن مع رفعه لسوطه تأتي (ميرا) من خلف الـ(أغوش) متجاهلة إياها ومنطلقة مباشرة لتصطاد ما في يد (خاشيد)، وتستمر في الركض ناحية الفخ.

يأتي صوت (ساليك):

- نعم.. نعم.. هناك.. انطلقي سوف يتبعونك.

وكما قال (ساليك)، تتبع الـ(أغوش) (ميرا) وخلفها ما تبقى من الغيلان، وبحسبة سريعة يجد (خاشيد) أنها ستة غيلان فقط.

ضربة سوط.. خمسة غيلان.

يتبع (خاشيد) الـ(أغوش) وغيلانها في اتجاه الفخ.

تصل (ميرا) إلى الدائرة التي صنعها (ساليك) من الأغصان، لا يمكنها أن ترى آثار تقليب التربة الحديث حيث زرع فخه.

تمسك باللفة القماشية التي يبدو أنها قد تمزقت أثناء ركضها، وتضعها أمام الفخ.

شيء بارز يظهر من اللفافة تلمحه (ميرا) لعدة نبضات؛ كانت قطعة لحم، ولكن هناك وشم من ثلاثة خطوط متمايلة يقطعه رمز متموج يشبه حروف أهل ما خلف الوادي.. أين رأت ذلك الوشم من قبل؟ لكن لا يوجد وقت لتتذكر؛ فالـ(أغوش) قد اقتربت.

تخرج سيفها مرة أخرى وتنطلق محاولة أن تسبق الغيلان قبل أن تدخل الدائرة سابقة للـ(أغوش) وينغلق عليها الفخ بدلًا منها.

تلمح ثلاثة غيلان ويبدو أن هناك اثنان آخران خلف الـ(أغوش).

ما أن تبدأ في التلويح بسيفها حتى تشعر بالآلام المبرحة في صدرها. تتجاهل الألم محاولة جعل ضربات سيفها أقصر.

تحتاج الثلاثة غيلان إلى ست ضربات كي تسقط، في الوقت نفسه الذي يتولى فيه (خاشيد) الاثنين المتبقيين.

حينها تبدأ الـ(أغوش) في الشعور بالخطر، فهي ليست حيوانًا غبيًّا برغم كل شيء.

تلقي الـ(أغوش) بنظرة جائعة رغبة فيما تناثر من محتويات اللفافة بجانب أقدام (ميرا)، وعلى (خاشيد) و(ميرا) اللذين يشكلان خطرًا أكثر مما قدرت.

هي لم تر (ساليك) الذي كان هناك مختبئًا خلف شجرة.

ينادي (خاشيد) على (ميرا) قائلًا:

- (ميرا) يجب أن تكوني بجواري الآن.

تفهم (ميرا) نية (خاشيد) لتوجيه جبهة ضغط تدفع الـ(أغوش) ناحية الفخ، لكن المشكلة أنه لا مجال للالتفاف حول الـ(أغوش)

في تلك المساحة الضيقة. تقترب (ميرا) بحرص بينما لا تتوانى الـ(أغوش) عن إطلاق البزقات التي لا تنتهي.

حين تقترب أكثر تنقض عليها الـ(أغوش) محاولة أن تمسكها، تتفاداها (ميرا) في سرعة وتوجه لها ركلة بقدمها دافعة إياها وسط الدائرة، ولكن بدلًا من أن تسقط الـ(أغوش) في الفخ كما خططت؛ تسقط برأسها ليلتف الحبل حوله، وتنطلق تروس الفخ جاذبة إياها بقوة للأعلى. هنا فقط يأتي صوت (ساليك) وهو يركض ناحية الـ(أغوش):

- لا لا لن تتحمل رأسها الضغط سوف تنفصل رأسها.

يقف (خاشيد) و(ميرا) عاجزين عن فعل أي شيء حتى يصرخ (ساليك):

- ثبتا قدميها.

يهرع كلاهما لتنفيذ ما طلبه (ساليك)؛ لم يكن الأمر سهلًا لوزن الـ(أغوش) الهائل والسائل السام الذي يسيل من فهما ليصل إلى قدمها.

رفع كل منهما قدما الـ(أغوش) محاولان دعم وزنها بينما شرع (ساليك) في تسلق جسدها، وربط تلك الغدة البارزة من بطنها، حيث مصدر تكوين سمومها.

كانت الغدة منفصلة كقربة جلدية عن بطن الـ(أغوش) المترهلة، بينما جانبيها كانا متصلين بالجسد كخرطومين.

في سرعة ربط (ساليك) كلا الجانبين، ثم أخرج خنجرًا ليفصل القربة عنهما لتزداد حركات الـ(أغوش) وصرخاتها المتحشرجة التي

ازدادت حشرجة جراء الحبل الملتف حول رقبتها ليسيل نهرٌ من الدماء السوداء يفشل (خاشيد) و(ميرا) من تفاديه.

– هل هذه الدماء سامة؟

يسأل (خاشيد) بقلب يكاد أن يتوقف، فيرد (ساليك) وقد تسلق جسد الـ(أغوش) لأسفل متوجهًا ناحية الخيمة:

– لا، لا تقلق يمكنك أن تقتلها الآن.

يتركا قدمي الـ(أغوش) ليبتعدا في انتظار انفصال رأسها عن جسدها.

تلتلفت (ميرا) لـ(خاشيد) لتقول:

– حسنًا ذلك ليس ممتعًا، يبدو أن رأسها متصل جيدًا بجسدها.

يغمغم (خاشيد) وهو ينحني أرضًا متناولًا سوطه المعدني:

– لم يكن هناك حاجة إذن لدعم وزنها على ظهر عجوز مثلي، ولا أن أغرق بتلك الدماء النجسة.

يقول كلماته الأخيرة وهو يفرد سوطه ويطلق له العنان ليلتف حول رقبة الـ(أغوش) ويجذبه جذبة قوية لينفصل في الحال رأس الـ(أغوش) عن جسدها الذي يسقط سقوطًا مدويًّا برغم عدم ارتفاع المسافة، وتتناثر المزيد من الدماء.

تبتعد (ميرا) في سرعة، ولكن بعد أن تلطخت تمامًا بالدماء.

– كان يمكنك أن تنبهني.

يسكت (خاشيد) للحظة قبل أن يقول:

– ربما كان ذلك منطقيًّا، نعم أفهم ذلك الآن.

ينحني (خاشيد) متناولًا رأس الـ(أغوش) فجذب انتباهه شيء ملقى فوق الأرض فيقول:

– ألم نر ذلك الوشم في مكان ما من قبل؟

كان يتحدث عن الوشم نفسه المرسوم فوق أجزاء من اللحم الموجود في لفافة الطعم.

تقول (ميرا):

– كنت أفكر في الشيء ذاته و... بحق شياطين الصمت ذلك اللعين!

ينظر لها (خاشيد) ويقول:

– ماذا؟

– أين ذهب ذلك المأفون؟

تقول (ميرا)، فيفهم (خاشيد) أنها تعني (ساليك).

يجذب رأس الـ(أغوش) ويشير لها:

– ذهب في اتجاه المخيم.

تنطلق (ميرا) ليتبعها وهي تقول:

– سوف أقتله.. اللعنة على كل وعودي، سأقتله.

يسرع (خاشيد) الخطى لاحقًا بها، ما أن يصلا إلى المخيم حتى يجدا (داليف) واقفًا شاهرًا سيفه ليقول لهما:

– نشكر الضياء على سلامتكما، يبدو أنني عدت متأخرًا.

تسأله (ميرا) متجاهلة لما قال:

– هل رأيت ذلك اللعين؟ (ساليك)؟

يهز (داليف) كتفيه وهو يعيد سيفه لغمده:

– لا، لا يوجد أحد هنا سوانا.

تركل (ميرا) جثة أحد الغيلان الملقاة أمامها وهي تقول:

– ذلـك اللعـين.. ذلـك الوغـد.. ذلـك الحقـير.. لقـد قتـل أحـد الأطفال الذيـن يتبعونـه في المدبغة ليسـتخدمه كطعـم للـ(أغوش).

مع توسط الشمس للسماء اصطف جيش (غنتاق) غربي (زراد)، لا يفصلهم عن أسوارها سوى غابة تقسم الطريق، الذي يقود لـ(زراد)، وجبل (الأعصم) شمالي غرب المملكة.

الفيلق الأيمن كان يتكون من الفرسان في المقدمة، ومعهم مجموعة من جنود الحراب، ومن خلفهم الرماحين، والفيلق الأيسر كان أكثرية الرماحين، ومن أمامهم الفرسان والمشاة، بينما الفيلق الأوسط والأخير كان مكونًا بأكمله من الفرسان بقيادة (غنتاق) نفسه، ومن خلفهم كان هناك سرية تخفى عن العيون تقوم بتجهيز العوارد في حال الوصول للأسوار.

جاءت الصفوف الأمامية من جيش الملاعين بأكملها مكونة من جنود الحِراب، ومن خلفهم الرماحين، ثم الفرسان. وفرقة صغيرة جاء بخبرها جنود استطلاع (غنتاق) تمركزت فوق (الأعصم) للتأمين ضد أي محاولات تسلل من رماحي (غنتاق).

جاءت شمس اليوم باردة تماثل برود (غنتاق) ورجاله، فقد اصطف الجيشان لساعات دون أن يبدي أيا منهم نية للاشتباك.

لم يكن لجيش الملاعين أن يتحرك خطوة للاشتباك وإن ظلوا ساكنين لسنوات. فقد كان موقعهم هو ما جاءوا اليوم للحفاظ عليه. يجب ألا يصل جيش (غنتاق) لأسوار (زراد).

حتى أتى الليل، ومع بزوغ ضوء القمرين تقدم (غنتاق) الصفوف رافعًا عقيرته بغناء مطلع نشيد قطاع الرحى الذي يعرفه كل مجرم عاش في الجبال هاربا «حلال لنا قد جاءت غنيمة، بدمائنا تكن رزقنا، لا يمنعنا عنه إلا من اشتاقت أعناقهم لنصال سيوفنا».

ارتفعت هامات قواد الجيش ممن تبعوا (غنتاق) منذ سنوات الضياع في (الرحى)،

فكم مر منذ أن أنشدوا ذلك النشيد.. لم يُكمل (غنتاق) النشيد؛ بل توقف بفرسه أمام الجموع صائحا بصوت جهوري:

– هنا والآن تكتب الأيام، لن تجرؤ روحٌ في الممالك القديمة أن تنعت فردًا كمرتزق بعد اليوم. نحن نخوض حربًا نعيد بها لمن سلبت ديارهم الديار، حربًا مقدسة مباركة كجيش محرر وليس بغازٍ.

تتكرر كلماته من بعيد على لسان الصائحين كصدى الصوت لتصل كلماته لكل أفراد الجيش

ومع وصول الكلمات لمؤخرة الجيش تأتي الصيحات كموجة من الخلف للأمام هاتفة باسم (غنتاق)، حينها يتوسط (غنتاق) كتيبته ويصرخ بكل جوارحه «هجوم».

ينطلق الفيلق الأوسط الذي يقوده (غنتاق) حينها وقد نفذ وعده

للفيدا بأن تُراق أول دماء لجيش العدو تحت ضوء القمر لتبارك الكاتدرائية قدومهم كحرب تحرير مُقدسة، وقد صدقت الفيدا في وعدها بأن كهنة النار لن يكونوا من ضمن المحاربين.

وجاءت الدماء كما الوعد مسفوكة تحت ضوء القمرين.. أول الدماء يومها كانت دماء (سُكيت)، ولد بعد ثورة النور، ولم يتم عامه الخامس عشر بعد، ولد وحيدا لإسكافي رحَّال عجوز بـ(زراد).

نال الوباء من أبيه أول ما حل بميناء (زراد) منذ عام، وتبعته أم (سُكيت) جراء محاولتها لتمريض زوجها. لم يجد (سُكيت) وقتًا للحزن؛ فكان عليه يوم خلاصهم بالنار أن يعمل لتسديد ثمن كريستالات اللهب التي خُلِّصا بها.

لم يُسمع لرجائه أن يُنقلا لأبراج الصمت، أو حتى أن يُدفنا كمُدنَسَين؛ فأبوه طوال حياته لم يدُخل لبيتهم ما يكمل ثمن كريستالة لهب واحدة، لكن ولأنهم ماتوا بالوباء؛ فلا خلاص إلا باللهب.

عمل حمالاً، وعمل صبيًّا لحداد، واكتشف «حيف» صاحب الحانة بالصدفة أن الفتى عذب الصوت؛ فكان يتركه في بعض الليالي يسلي السكارى بالغناء، ولم يعرف (سُكيت) سوى التهويدات والأغاني الحزينة التي سمعها من أمه؛ فكانت تأتي تلك الأغاني بصوته لتلامس قلوب السكارى ذارفين دموع حنين ومواجع، فيلقون له بكريستالات فارغة؛ يدخرها كلها لدفع دين خلاص أبويه، ويقتات من بواقي طعامهم في نهاية المساء، وربما سمح له (حيف) في بعض الأحيان بالنوم في الحانة حتى الظهيرة.

لم يكن لـ(سُكيت) أحلام سوى الخلاص من دينه، وحين جاء خبر الحرب مع وعد للمتطوعين بأربع كريستالات لهب مكافأة لم يفكر

كثيرًا.

كان في صف المتطوعين يفكر بأنه سيدفع دين والديه، ويحتفظ بكريستالة لخلاصه حين تأتيه شياطين الصمت، وساعتها داعب قلبه حلمًا واحدًا؛ أن يذهب بعد الحرب لحانة (حيف) ويطلب منه وجبة كاملة دسمة له وحده، وربما بعض الدخن، لأنه سيصير رجلًا بعد خوضه حربًا.

ألبسوه درعًا ورموا له برمح، وقالوا اليوم نقف من أجل الشرف، ولن نكون ملاعينًا بعد اليوم؛ لتتعالى صيحته مع الصيحات، غير عالم لم وصم ملعونًا من الأساس، ولا يعرف الآن من يحارب ولماذا سينزع عنه الوصم بعدها.

ولأنه بلا خبرة في الحرب والقتال فقد ضُم مع أقرانه من المستجدين الأقل خبرة بالصفوف الأمامية صانعين دروعًا بشرية للرماة من خلفهم.

ولأن (سُكيت) الصغير لم تحتمل ذراعاه النحيلتان من سوء التغذية رفع الدرع طوال اليوم حين جاءت أول الرماح كان هدفًا سائغًا، ونالت شياطين الصمت أولى حصادها.

قتل (سكيت) وهو ما يزال ملعونًا، وحلمه وجبة ساخنة وتسديد دين الخلاص.

لن تتلى الأناشيد بذكرى (سُكيت)، وآخر ذكراه ستكون سكيرًا في الحانة يسأل (حيف) ألم يكن هناك طفل عذب الصوت يشدو في السهرات؟.. أين ذهب؟

وسيأتي الرد من (حيف) بهزة كتف والتواء شفاه أنه «لا يعرف»؛

ليكمل السائل دُخنه وتذوب الذكرى لاحقة بصاحبها في الصمت الأبدي.

جاء هجوم (غنتاق) في قلب جيش الملاعين ضاريًا، سريعًا. كان فرسانه متمرسين، لم تغلف مهاراتهم الصدأ، حتى وإن كان قتالهم يفتقر إلى تميز ومرونة الجيش النظامي المعتاد؛ ولكنهم عوضوا ذلك بالقسوة، التي اعتادوا التعامل بها في (صحراء الرحى)، منذ بداية المعركة؛ كان جليًّا افتقار جيش الملاعين للقيادة السليمة، وإن حافظ الفيلق الأيمن والأيسر على مواقعهما دون أن ينجذبوا للدفاع عن قلب الجيش ويفقدوا مواقعهم.

استمر التخبط حتى لحظات الفجر الأولى؛ حيث قرر (غنتاق) أنه اكتفى بافتتاحية المعركة، وقد حقق خسائر عظيمة في صفوف جيش الملاعين، بينما احتفظ بأغلب الفيلق الذي يقوده دون خسائر تذكر.

كان آخر دم يراق في اليوم الأول للحرب يخص كهلًا في أوائل العقد الخامس من جيش (غنتاق) يدعى (دَقيم)، مُصارع ساحات من (الهطباء) كان يرجو أن توفر له غنائم الحرب ما يغنيه عن مصارعته في الساحات.

تقدم في السن، ولم يعد يجذب المشاهدين ولا حتى الخصوم، لم يتزوج أبدًا؛ فمنذ الصغر انشغل بتتبع مصادر الرزق.

لم يؤنسه إلا كلب أجرب يتبعه في كل الساحات، رآه يومًا يراقب مصارعته من فرجة بين المشاهدين، وبعد خسارته ألقى للكلب برغيف كان يقدره عشاءه، لكنه فقد شهيته مع الخسارات المتكررة.

تبعه الكلب، وفي مصارعته التالية حين اشتبك مع خصمه انطلق الكلب ملسوعًا ليدافع عن (دَقيم) وعقر الخصم في مؤخرته وسط

ضحكات المشاهدين. كاد خصمه أن يفتك بالكلب لولا حال (دَقيم) بينه وبين الكلب.

منذ يومها وكلبه - الذي أسماه (أشهب) - لا يفارقه، وإن تعلم ألا يتدخل في المصارعات، إلا أنه وبمجرد انتهاء الاشتباك ينطلق الكلب لاعقًا جراح صاحبه، ومزمجرا لتحذير أي مار من الاقتراب من (دَقيم) وهو ملقى أرضا مثخنا بالجراح.

ترك (دَقيم) لزوجة الخباز ما يكفي لإطعام (أشهب) شهرًا، ويرسل مع كل استراحة جيش جزءًا من أجره مع مرسال للـ(طهباء) لرعاية الكلب حتى عودته.

حين جاءت أوامر الانسحاب والعودة للمخيم كان (دَقيم) مشتبكًا مع ثلاثة من الرماحين

أغلقوا عليه طريق العودة وجردوه من سلاحه.

ضربة على رأسه أسقطته أرضًا، بعد أن فقد توازنه رفع يده طالبًا من المُحَكِّم أن يوقف المصارعة؛ فقد خسر مرة أخرى، وانتظر (أشهب) ليأتي لاعقًا لجراحه، وباعدًا للمتجمهرين من حوله، لكن ما جاء كان رمحًا في قلبه.

فقط (أشهب) سيتذكر (دَقيم)، وسيظل هائمًا في ساحات (الهطباء) مقتربًا من التجمهرات وساحات المصارعة بحثًا عن صاحبه، لكن صاحبه سقط كآخر حصاد لشياطين الصمت يومها بالقرب من مكان الحصاد الأول؛ حيث اندثر جسد (سُكيت)، في الرمال بعد وطء الخيل والجنود لجسده مئات المرات.

كان (سُكيت) ليحب (أشهب)، ويشجع (دَقيم) في مصارعته لخصومه

لـو التقيـا يومًـا خـارج سـاحة القتـال؛ لكنهـما التقيـا هنـا، وصـار قـدر (سـكيت) أن يمـوت برمـح ألقـاه (دَقيـم) في أول المعركـة.

انتهـى اليـوم الأول بنـصر مبدئـي لـ(غنتـاق) دون أن يحصـل في الحقيقـة عـلى موطـئ قـدم جديـد، بينـما مـا يـزال الملاعـين يحافظـون عـلى خطوطهـم بالرغـم مـن الخسـارة العدديـة.

في الحـروب لا يعنـي ذلـك الكثـير، قـد بـدأت الحـرب ولا يمكـن لأحـد أن يعـرف كيـف ومتـى سـتنتهي.

الفصل السابع

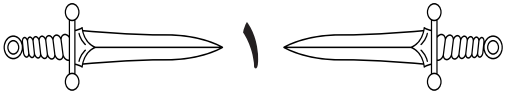

١

مع اقتراب (ميرا) و(جيرد) من زنزانة الملك طلبت من (جيرد) أن يتوقف عن تسنيدها، لم ترغب أن يظهر إنهاكها في حضرة الملك و(الآركون)، كما أن حال (خاشيد) الذي يتبعهم في صمت كانت أكثر سوءًا.

وصل صوت (الآركون) إليهم حتى قبل أن يروه واقفًا أمام الملك معلنًا :

- هذا لن يحدث أبدًا.

جاء صوت الملك الرخيم قائلًا:

- أنت تحكم على (زراد) بالهلاك.

- أنا لا أحكم بأي شيء، أنت الملك حاكم (زراد)، أنت من أرسلت أكثر من نصف قواتك خارج الأسوار لملاقاة النبلاء، بينما توقن أني لن أرسل بكاهن واحد خارج أسوار (زراد)؛ فمهما عظم جيشهم لن يخترقوا أسوارنا.

- خرجت تلك القوات لتحمي المزارعين وأهل (زراد) ممن يقطنون خارج الأسوار، احتاجوا وقتًا ليعدوا العدة، ويحملوا ما أمكنهم من العزال والغلال لداخل الأسوار.

- كان بإمكانهم ترك كل ذلك ودخول (زراد) من فورهم، لن يخرج الـ...

قاطعه الملك غاضبًا:

- الغلال التي دخلت (زراد) ستحمينا من مجاعة لو طال الحصار، نصف موانينا مغلقة جراء الوباء، والقرار جاء مشورة بيني وبين الكتبة وليس قرارًا فرديًّا نكاية في خصم.

يرد (الآركون) سريعًا وقد فهم ما أبطنه الملك من اتهام بصوت أقرب للصراخ، محاولًا أن يماثل صوت الملك الجهوري:

- من تظن نفسك ليتراءى لك أني في خصومة معك؟!.. كنت عبدًا وصرت سجينًا، والجيش الذي ترغب في إنقاذهم؛ هم ذات من وصمتهم ملاعينًا، وتحكمهم كرهائن، كهنة النار يقفون بعيدًا، ويترفعون عن كل ذلك. لسنا حراسا لـ(زراد)، ولا مرتزقتك لنتحرك بإمرتك.

جاء صوت الملك مزلزلًا لكيان كل الحاضرين:

- أنا ملك (زراد)، ولم أكن يومًا عبدًا لأحد. كان بيننا وبينكم ميثاق. ولم تكونوا لنا أسيادا.. وتلك الأغلال...

يقولها وهو يلف واحدة من السلسلتين الحديديتين اللتين يمتدان من أغلاله لحائط الزنزانة:

- ليست لي قيدا، بل أتركها حفاظًا على شرف (الأبناس) إيفاءً

بميثـاق الظلـم...

يجـذب الملـك السلسـلة بقـوة مـع كلماتـه لينهـدم جـزء الحائـط الـذي رُبِطَـت فيـه السلسـلتين.

- وأولئـك الملاعـين خرجـوا دفاعًـا عـن (زراد)، يسـتحقون أن يهـب الكهنـة دفاعًـا عنهـم، بعدمـا صـارت وطنًـا لكـم، ولكريسـتالاتكم المقدسـة، تحصدونهـا مـن أرضهـم. لقـد رُفِـع عنهـم الوصـم وقـد هَبُّـوا أخـيرًا في وجـه النبـلاء.. لعنـة كل الأقـمار تحـل عـلى مـن يتركهـم لمذبحـة جديـدة.

للحظـة ووسـط الغبـار المتناثـر في أرجـاء المحبـس مـن الهـدم شـعرت (مـيرا) وكأن عينـي الملـك وكلماتـه كانـت لهـا وليسـت للـ(آركـون).

كان (الآركـون) قـد تراجـع خطوتـين مـن الصدمـة؛ لكنـه سريعًـا مـا اسـتعاد وقفتـه المتكـبرة موجهًـا أمـرا لكاهنـي النـار اللذيـن يصحبانـه:

- أعيدا ربطه بالأصفاد على الفور.

ظهـرت رعشـة لم تسـمعها (مـيرا) يومًـا في صـوت (الآركـون)، أنكرتهـا أذناهـا.

تـردد الكاهنـان للحظـة لتلتقـي عيونهـما ويتبـدد الشـك في القلـوب؛ عليهـما تنفيـذ الأوامـر.

مـع أول خطواتهـما كان الملـك يلـف السلسـلة الأخـرى حـول ذراعـه الـذي لم يتحـرر، مُشـيرًا بإصبعـه الضخـم ناحيـة الكاهنـين محـذرًا:

- هـل أخبركـما (الآركـون) يومـا كـم مـن حـراس النبـلاء التهمـت أكبادهـم أحيـاء قبـل أن أنـزل بنفـسي لتلـك الزنزانـة واضعًـا أغـلالي ليـأتي بعدهـا (الآركـون) مصطحبًـا آبائكـم معلنًـا أني سـجينه؟

يتوقف الكاهنان ناقلين بصريهما صوب (الآركون)، وعيونهما تتساءل إن كان حقًا يرغب في أن يلقي بهم لتلك الهاوية.

يتلفت (الآركون) من حوله لتلتقي عيناه بعيني (ميرا) ليسقط قلبها من شبح البسمة التي رأتها على وجهه حين رآها:

- (ميرا) أعيدي الأغلال ليد السجين.

يلي ذلك الصمت؛ وكأن الأنفاس صارت محرمة في انتظار ردها، (ميرا) لم ترد، حررت ذراعها من يد (جيرد) الذي كان يسندها خفية، وتحركت في اتجاه الملك، يتبعها (خاشيد) في صمت، مع اقتراب (ميرا) من الملك يخفض الملك يديه ويوجه كامل انتباهه لها.

لم تكن خطوات (ميرا) متزنة تكاد، تتعثر فيمسك (خاشيد) بذراعها محافظًا على توازنها.

تقترب (ميرا) أكثر من الملك؛ لتمسك بيديه، وتنحني لتلثمهما، ثم تركع أمامه:

- (ميرا) كاهنة النار تُلبي نداء ملك (زراد).

من خلفها يحاول (خاشيد) الركوع لكن الحقيبة الجلدية تعوقه فيلقي بها ليد أقرب الواقفين،

وحدث أن أقرب الواقفين كان أحد الكاهنين المصاحبين للـ(آركون)، الذي يتلقف الحقيبة بذهول دون ردة فعل.

ثم يركع (خاشيد) خلف (ميرا):

- (خاشيد) قائد جيش الـ(داز) الخامس يُلبي نداء ملك (زراد).

مـن خلفهـا يـأتي (داليـف) مـن أحـد جوانـب الزنزانـة ليركـع بجانـب (خاشـيد) ملبيًّـا، ومـن خلفهـم يـأتي (جـيرد).

في تلـك اللحظـة كان الفضـول قـد تملـك الكاهـن حامـل الحقيبـة ليلقـي نظـرة عـلى فحـوى تلـك الحقيبـة الثقيلـة نظـرة سريعـة تجعلـه ينتفـض ملقيًـا بهـا أرضًـا لتخـرج منهـا رأس الـ(أغـوش) متدحرجـة حتـى تصـل لقـدم (الآركـون) الـذي ينظـر لهـا ثـم للملـك ثـم لـ(مـيرا).

بإصبعه وبصوت يرتعش من الغضب تلك المرة يقول:

- خُلِـع عنكـم رداء الكهنـوت، وصـارت النـار لجلودكـم حارقـة ككل المنكريـن.

ويخـرج مـن فـوره ليتبعـه واحـد مـن الكاهنـين، بينـما يلتفـت الآخـر للملـك ويركـع أمامـه.

٢

استمر رفض الطبيب للطعام الذي يقدمه له سَجَّانوه ليومين، قبل أن يرضخ أخيرًا لاحتياجات جسده؛ فإن جسده في النهاية ما يزال يُشفى من آثار الحمى، ويبدو أنه مع انجلاء الحمى اختفت هلاوسه والأصوات التي صاحبتها، وهو شاكر لذلك برغم وضعه الحالي.

كان موضوعًا في خيمة مهترئة، كان سجين خيمة مهترئة، أرضيتها الرمال، لا يمكنه حتى أن يقف منتصبًا بها.

يخرجونه منها مرة كل يوم ليقضي حاجته ثم يعيدونه لمحبسه، وفي رحلته اليومية الوحيدة تلك كان يملي عينيه جيدًا من مختطفيه الذين لم يحاولوا إخفاء هويتهم بأي طريقة.. هم من أهل خلف الوادي، ولكن من الأقمشة المتماثلة التي تلتف حول أجسادهم والصلوات التي لا ينفكوا عن تلاوتها قدَّر أنهم طائفة دينية مجذوبة.

في اليوم السادس أخرجوه للقاء من يبدو أنه كبيرهم. اثنان منهم عقدا يديه خلف ظهره وقاداه إليه.

طال وقوفه بين يدي كبيرهم دون أن يتحدث، ظلوا كلهم في حالة ثبات يحدجونه بالنظرات حتى كسر الطبيب الصمت قائلًا:

– ماذا الآن؟ أنتم لا تدركون حتى من أنا، وتواجدي هنا خطأ كبير.

جاء رد كبيرهم:

– نحن ندرك جيدًا من أنت. خادمٌ للشيطان، أتيت تُخمد المجد، ولكنه تأجج، وسينتصر على من طغى.

ضرب مرافقوه على صدورهم وصاحوا:

– من أجل المجد.

حائرًا قال الطبيب:

– لست خادمًا لأي شيطان، أنا طبيب أتيت من الممالك الجديدة محاولًا درء وباء يقتل أبناءكم.

يدفع كبيرهم بيده في صدر الطبيب بقوة، ولا ينقذه من السقوط إلا واحد ممن أحضراه وقد تلقفه مثبتًا إياه.

يتحرك كبيرهم بينما يدفعه من تلقفه ليتبعه حتى يصلوا لساحة لم يمر بها من قبل في المخيم.

امتلأت الساحة عن آخرها برجال ونساء عراة الصدر جالسين القرفصاء، وخلف كل واحد منهم جلس واحد من طائفة المخابيل بتلك الأقمشة الملتفة حول أجسادهم.

كان الجالسون ينقشون وشمًا على الظهور والأعناق وهم يتمتمون بكلمات لا تصل لأبعد من أذن الجالسين المستسلمين لوخزات الإبر المتتالية بين يديهم.

ينحني كبيرهم ليتناول إناء الحبر الذي يستخدمه الواشمون، ويقربه من وجه الطبيب قائلًا:

- إليك ما تبحث عنه.

ما يزال الطبيب غارقًا في عدم الفهم. يحل من يقف خلفه قيوده، ويدفع بذراع الطبيب في إشارة أن يتناول الإناء من كبيرهم.

بيد غير ثابتة جراء آلام القيد يتناول الطبيب الإناء الذي تنبعث منه رائحة حريفة لا تشبه رائحة أي أحبار أو ألوان شمها من قبل.

يقول كبيرهم بصوت أقرب للفحيح منه للحديث:

- من أنت لتقف أمام مشيئة الصمت؟ من تدعوهم شياطين هم ملائكة الخلاص، ما تلعنونه من ألم هو تطهير لأرواحنا من كل صخب دنسها، وما تقول عليه وباءً هو رسالة مقدسة يحملها رسلنا لأرضكم الملعونة...

يعلو صوته جاذبًا انتباه كل من حولهم:

- كلنا أنبياء هنا، نحمل مجد الصمت، ونذهب به حيث عرفت الآلهة القديمة الصمت. ندعوكم إليه ونذيقكم من مجده.

تتعالى الصيحات من خلفه: «من أجل المجد.. من أجل المجد».

ومع تعالي الصيحات يُبصر الطبيب الوشم عن قرب فوق ظهر واحد ممن انتهى وشمه، ذات الوشم الذي ظنه جزءًا من تقاليد

أهـل مـا خلـف الـوادي لم يكـن مجـرد وشـم؛ بـل كان علامـة الوبـاء. يصيبونهـم بالوبـاء عامديـن، ومـا يحملـه في يـده الآن هـو مصـدر الوبـاء.

يقـترب مـن وجهـه كبيرهـم حتـى تصـل لأنـف (سـيفاد) رائحـة أنفاسـه العطنـة وهـو يقـول:

- فشـلنا في الوصـول إلى شـيطانكم الأسـود، وقـد حصـن نفسـه خوفًـا مـن مجـد الصمـت في سـجن (زراد)، ولكننـا اليـوم - وكـما العهـد والوعـد - جـاء لنـا خادمـه ومنكـر رسـالتنا؛ لنصنـع منـه نبيًّـا للصمـت.

وقبـل أن يـدرك (سـيفاد) الـذي يحـدث شـعر بالوخـزات في جسـده، والصيحـات تتعـالى مـرة أخـرى: «مـن أجـل المجـد».

٣

طفق جيش (غنتاق) يدك صفوف الملاعين الأمامية بلا هوادة، كان الجناح الأيسر من جيش الملاعين قد تحرك ليحيط بقلب جيش (غنتاق) الذي يهاجمهم بضراوة، والذي انضم إليه جناحه الأيسر في مهاجمة صفوف الملاعين معتمدًا على تقدم الجناح الأيسر من جيش الملاعين في الوقت نفسه؛ صانعين حصارًا ينغلق على قوات (غنتاق).

لكن مع ضراوة الضربات وهزال قوات الوسط في جيش الملاعين؛ حرك قائد الجناح الأيمن قواته لتحل محل الوسط درءًا لثغرة من الممكن أن توصل (غنتاق) مباشرة لأبواب (زراد) معتمدًا على القوات المرتكزة فوق الأعصم أن تحل محل الجناح الأيمن، ولكن ذلك ترك جناح جيش الملاعين الأيسر في الحصار ذاته الذي كان يحاول تنفيذه مع جيش (غنتاق)؛ فقد تقدم جناح جيش المرتزقة الأيمن من فوره ليحاصر الملاعين، ومن خلفهم كانت الإمدادات الثقيلة تستعد.. فبشارات النصر قد لاحت، واليوم يصير على أسوار (زراد).

كان قائد القوات المتمركزة فوق الأعصم يمر بأحلك لحظاته؛ فمن موقعه حيث كان يراقب المعركة أمكنه رؤية الهزيمة الآتية على عجالة، ورأى أيضًا المرسال الذي بعثه قائد الجناح الأيمن - الذي صار قائدًا بديلًا بعد سقوط قائد الوسط - طالبًا للدعم من (زراد).

لن يأتي الدعم.. لن يتركوا (زراد) من دون جيش لإنقاذ ما تبقى من القوات. الدعم الوحيد الذي يمكنه الحصول عليه ستكون قواته لو نزل بها من فوق الجبل، وهو ما سيُشكل خطئًا فادحًا بترك ذلك الموقع قبل عودة من يمكنهم العودة لداخل الأسوار.

خفض منظاره وراقب الوغى بعين ثابتة إن رأت فهي لا تعي، وهو يفكر أنه حتى لو قسَّم قواته وانضم للقتال بتشكيلة ما، فسيضعف المتمركزين هنا بشكل يجعلهم بلا فائدة.

بقلب يدمي يتلو صلوات لرفاق سقطوا، ويسقطون دون أن يحرك ساكنة للدفاع عنهم، ربما تسمعه آلهة القمر أو النار، ويأتون لرفاقه بطوق نجاة من براثن الصمت.

- سيدي القائد، انظر إلى الجبهة.

يرفع منظاره سريعًا استجابة لصوت مقدمه الملتاع، لا يجد أي اختلاف؛ ما زالت مؤخرة جيش (غنتاق) تتقدم بأسلحتها الثقيلة، و(غنتاق) ورجاله يضربون الأعناق شاقين طريقهم إلى (زراد).

يشعر القائد بيد تجذبه.

- لا يا سيدي مؤخرة الجيش.

عندها يرى ما الذي يتحدث عنه المُقَدِّم. لواء يشق طريقه من

خلـف صفـوف الملاعـين.

- إذن فقد أرسلوا الدعم!

ولكـن ذلـك العـدد لـن يصنـع فارقًـا؛ خصوصًـا وهـم مـا يزالـون في المنتصـف، حيـث يكسـب (غنتـاق) أرضًـا كل لحظـة؛ إنهـم فقـط سـوف يؤخـرون المحتـوم.

ينتبـه قليـلًا إلى أن اللـواء المتقـدم يحمـل علمـين، لكنهـما ليسـا علـما (زراد).

أول الأعـلام يحتـاج بعـض الوقـت ليتذكـر أيـن رآه، فهـو بالتأكيد قـد رآه مـن قبـل... لم يـره فقـط بـل حملـه، ووضعـه عـلى صـدره منـذ سـنوات، كان وقتهـا جنديًّـا وليـس قائـدًا، لم يكـن سـاعتها ملعونًـا... علـم أهـل الـ(داز) يرفـرف عاليًـا في يـد فـارس يقـود اللواء.

لم يفهـم مـا الـذي يعنيـه ذلـك، ولكنـه شـعر بقلبـه يخفـق بقـوة وإن كان لم يسـتوعب اللـواء المرفـوع الثـاني، فقـد كان عمـودًا معدنيًّـا، «مـا الـذي يلتـف حولـه بالضبـط؟ أتلـك أغـلال؟».

انطلق (خاشيد) بفرسه حاملًا لواء الداز، لا يتوقف للحظة شاعرًا بكل جروحه قد التأمت وفي يده علم قومه.

اليوم ينطلق ليس فقط مقاتلًا ومحاربًا، بل ومحررًا لأهله من وصمة الملاعين.

رأى الاندهاش في عيون بعض الجنود الصغار. ورأى الدموع والصيحات من حناجر من وعوا على علم الداز، من عرفوا أنهم ليسوا حقًا ملاعين.

جرحى على الأرض ينتصبون عند رؤية العلم، ليكملوا القتال صارخين «نحن أبناء الداز».

وصـول لوائـه مـع مـن يقودهـم لمقدمـة الصفـوف صنـع هدنـة وقتيـة ينتظـر فيهـا المرتزقـة أوامـر قوادهـم.

هدنـة وإن اسـتمرت للحظـات قليلـة كانـت هـي كل مـا يحتاجـه ليطلـق بأوامـره.

– تنتهي معركتنا اليوم يا رجال. ابدأوا تشكيلات الانسحاب.

لم يتناقـل قـواد الفـرق الأوامـر مـن فورهـم لعلمهـم أن في ذلـك مذبحـة أكيـدة لـو أعطـوا ظهورهـم للعـدو.

صرخ صوت أنثوي قوي بجانبه: سنربض هنا موفرين لكم الحماية.

قالتهـا (مـيرا) وهـي ترفـع العلـم الثـاني المعـدني عاليًـا. كان عمـودًا معدنيًـا حولـه تلتـف أغـلال الملـك السـجين.

تخـرج كريسـتالة لهـب وتحطمهـا فـوق الأغـلال لتبـدأ الأغـلال والعمـود في الـضي بجنـون.

تصرخ (ميرا): باسم الملك.. باسم النار.. باسم (زراد).. هجوم.

ومعهـا ينشـطر مـن اللـواء خمسـون ممـن تبعـوا (خاشـيد)، يسـدلون عـن أكتافهـم الأرديـة القماشـية ليظهـر تحتهـا رداء كهنـة النـار الحـربي.

لا يمكن وصف ما حدث بعد ذلك بهجوم؛ بل كان انفجارًا.

خمسـون مـن كهنـة النـار تقودهـم (مـيرا) انطلقـوا ضاربـين في قلـب العـدو مبـاشرةً، لا تخيـب ضرباتهـم أبـدًا.

وبعـد أن صنعـوا مسـافة كافيـة بينهـم وبـين صفـوف جيـش الـداز فاضـين اشـتباك الصفـوف الأماميـة سـامحين لـ(خاشـيد) بقيـادة القـوات والعـودة بهـم إلى (زراد) ترجـل الكهنـة مـن عـلى خيلهـم ليقفـوا صفًـا

واحـدًا جاهزيـن لصنـع تشـكيلاتهم القتاليـة التـي لا تماثـل أي شيء رآه المرتزقـة مـن قبـل فـكان كل ثلاثـة كهنـة يشـكلون وحـدة قتاليـة قائمـة بذاتهـا.

بـاشر المرتزقـة في إلقـاء الأسـلحة مـن فورهـم والركـض ليتلقفهـم الجنـاح الأيـسر مـن جيـش الـداز الـذي مـا يـزال يحـاول شـق طريقـه للانسـحاب صانعـا مجـدا صغـيرا للجنـود الذيـن كادوا يبـادون عـن آخرهـم.

جـاء صـوت (مـيرا) هادئًـا واثقًـا دون أن يبـدو فيـه أي أثـر للإجهـاد للكهنـة: لا نحتـاج لأسرى اليـوم.

ثم جاء الانفجار الثاني.

في تشـكيلاتهم الثلاثيـة انطلـق الكهنـة يضربـون بسـيوفهم في نقـاط محددة في مقتل.

متقـدم التشـكيلة يسـتهدف دائـمًا بـتر القـدم، ليـأتي الثـاني شـاطرًا الجسـد لنصفـين عرضيًّـا، ومـن خلفهـم الثالـث إن خابـت أي الضربـات.

ولم يحتـج ثالـث أبـدًا في التشـكيلة لأن يراقـب الأطـراف المتطايـرة فـكل الضربـات تـأتي في مقتـل.

تتقـدم (مـيرا) بتـؤدة مـن خلفهـم لتـزرع لواءهـا الـذي لا يـزال مشـتعلًا في منتصـف الأرض وتُخـرج سـيفها وكريسـتالة لهـب وتـصرخ عاليًـا: آتوني بـ(غنتـاق)....

- شيء واحد عاهدتني عليه؛ لن يتدخل كهنة النار.. ذلك الشيء الوحيد الذي سألتك عنه مرارًا وتكرارًا.

كان (غنتاق) متمركزًا مع حرسه في منطقة وسطى خلف الصفوف الأمامية بجانب الأسلحة الثقيلة بعد أن تحركت استعدادًا للنصر الذي يبدو أنه خُطِف من أيديهم.

قالت الفيدا بغضب: لا، لا يمكن أن ينضم كهنة النار لتلك الحرب، أنا متأكدة لن ينضموا.

- هل فقدت عقلك الآن أم ماذا؟

يقولها وهو يدفع بمنظاره ليدها: ما الذي ترينه الآن؟.. لا يفصل بيننا وبينهم إلا صفوف الجنود الذين سوف يُقضى عليهم قريبًا.

يـأتي صـوت (آرويـن) مـترددًا: يمكنـك أن تـرى بوضـوح تشـكيلات الانسـحاب.

– لورد نيزاد، هل صرت خبيرًا في فنون الحرب الآن!

تتدخـل الفيـدا قائلـة: (آرويـن) معـه حـق، يمكنـك أن تـرى أنهـم ينسـحبون.

– بالطبـع ينسـحبون؛ فـلا حاجـة لهـم بالتواجـد وكهنـة النـار يبيدوننـا، ربـما ينتظـرون تراجعهـم تمامًـا ليحرقـوا الأرض مـن تحتنـا بكريسـتالاتهم اللعينـة.

– تمالـك أعصابـك يـا قائـد (غنتـاق)، أولئـك أقـل مـن مئـة كاهـن، ربـما تشـتيت الصفـوف هـو مـا يكسـبهم أرضًـا الآن وليـس عددهـم.

– وهـل تتوقعـين مـن الرجـال أن يقفـوا أمـام كهنـة النـار دون أن يبللـوا سراويلهـم؟ أنـا لم أهيـئ رجـالي لقتـال مثـل هـذا، أنـا أحتـاج وقتًـا لإعـادة ترتيـب الصفـوف.

تُنزل الفيدا المنظار وتقول له: تحتاج وقتا؟.. سأعطيك وقتًا.

ودون كلمة أخرى تنطلق الفيدا مخترقة الصفوف الأمامية.

٦

تقف (ميرا) ومن حولها دائرة قد شكلها الكهنة في صلاة للنار، انفضت الصفوف وأمن الكهنة مسارًا للجناح الأيسر ليتسنى له العودة إلى (زراد). ما أن يتأكدوا من إجلاء كل رجال جيش الداز وجرحاهم حتى يتبعونهم، فلن تستمر صدمة جيش المرتزقة سريعًا من هجوم كهنة النار، وخمسون كاهن للنار لن يكونوا بقوة لواء واحد منظم من الجيش.

ما تزال رابطة بجانب لواء الملك في انتظار (غنتاق) أن يأتي مبارزًا أو أن تُؤَمِّن عودة كل الجنود.

بعد ساعات من الانتظار تنشق صفوف المرتزقة؛ لكن القادم لم يكن (غنتاق).

تنشق الصفوف عن عربة حربية تقودها الفيدا (هينادا).

لم تعرف (ميرا) من تلك المرأة، ولكن من لون عينيها وردائها الحربي عرفت أنها واحدة من النبلاء.

لم تكن عربتها الحربية تحمل أي أسلحة سوى صندوق خشبي كبير يشبه تابوتا.

تترجل الفيدا من عربتها متقدمة حاملة علم النبلاء في يد لتقترب من (ميرا) وحين تصير على بعد خطوتين تغرس علمها أرضًا أمام لواء الملك.

- جئت ألبي دعوتك.

- دعوت (غنتاق)، وأنا شبه متأكدة أنك لست بـ(غنتاق).

تحاول الفيدا رسم بسمة صفراء على وجهها وهي تقول مصطنعة الثقة: لا، ولكني أنا من حركت (غنتاق)، أنا قائدة ذلك الجيش، جئت أسترد حق مولدي محررة أهل (زراد) من الشيطان الأسود.

- لا يوجد شياطين في (زراد)، يوجد ملك عادل، وأقف الآن باسمه، أريد (غنتاق) أو رأسه، أو نبيد جيشكم عن آخره.

تنظر الفيدا من حولها مصطنعة عدم الاهتزاز وآملة ألا تنتبه (ميرا) إلى رعشة يديها: أشك كثيرًا أن مئة أو أقل من كهنة النار سيتمكنون من إبادة جيشي، وأستغرب أنكِ أنت من هنا تتحدثين معي وليس (الآركون)، فنحن لسنا في عداء مع كهنة النار. عداؤنا مع شيطان أنتم سجَّانوه.

- أخبرتك من قبل لا شياطين في (زراد)، ولا عودة للطغاة.

- حسنًا تريدين من ذلك الجيش أن يرحل؟ اقتلي قائد الجيش وسيرحل.

- سأسعد بذلك، أين (غنتاق) إذن لننهي ذلك الأمر.

- يا فتاة يبدو أنك بطيئة الفهم، أنا وحدي أقود وأمول ذلك الجيش. (غنتاق) تابع لي، ألا تصدقينني؟

تنظر (ميرا) من حولها وترى أن جنود الداز يتلكؤون في الحركة متأملين حديثها مع النبيلة وصفوف المرتزقة قد بدأت في الالتئام مرة أخرى، وتكميل الصفوف.

تشير للكهنة بطرف خفي بالإسراع وترد على الفيدا قائلة: بالعكس كنت متأكدة من ذلك، ف(غنتاق) ليس بأحمق ليقوم بذلك، فقط الجشع والكثير منه يحركه لمثل هذا.

- والآن ما قرارك؟ بارزيني واقتليني وينسحب الجيش.

تنظر لها (ميرا) محاولة أن تفهم إن كانت مخبولة أم هناك شيء ما تخفيه.

- حسنًا، إن اشتقت للصمت أتيتك به. أين سلاحك؟

تفرد فيدا كلتا يديها قائلة: لا سلاح، ضربة في القلب ستفي بالغرض، أم لديك ميثاق شرف ألا تقتلي العُزَّل؟

ترفع (ميرا) سيفها في وضعية قتالية لا تستخف بخصمها فيها وهي تقول: أعزل بحماقته وأمواله تسبب في قتل الآلاف؟.. لا.. أعتقد أني بخير، لن أمانع في قتل أعزل مثل هذا.

نظرة غضب مشتعلة في عيني (ميرا) أرسلت بالرجفة في أوصال الفيدا.

كان جسد الفيدا كله يرتجف الآن، فلم تكن واثقة أن ذات اللعبة الخطرة سوف تنجح مرتين.

انقضت (ميرا) بسيفها، منطلقة في اتجاه قلب الفيدا.

ذلك الصوت... جاء يشق الهواء غير مدركٍ ليدها بشبر أو أقل، انخلع السيف من يد (ميرا)، لتلتفت حولها في سرعة مستعدة لمواجهة غريمها.. حينها رأته.

خارجًا من الصندوق الخشبي، في درع معدني وعرفته ما أن رأته، فلا يمكن أن يكون أي شيء آخر إلا نبيلًا حديديًّا.

انطلقت (ميرا) ملقية بجسدها بعيدًا تحسبا لأي مقذوفات أخرى تلقى باتجاهها، وقبل أن تتمالك توازنها كان النبيل الحديدي قادم من أجلها، ساحبًا من فوق الأرض سيفه الذي انغرس حين ألقاه عليها دون أن يبطئه ذلك للحظة.

من فورها انطلقت (ميرا) قاصدة الاشتباك معه من غير سلاح، وقف (جيرد) وسط الكهنة صارخًا فيهم: ذلك نبيل حديدي، أمنوا خروج الجنود، لا تشتبكوا.

ثم أخرج سيفه ولم يحتج أن يتأكد أن (داليف) قد انضم إليه مهرعين باتجاه النبيل.

جاءت ضربة النبيل الحديدي قاطعة للهواء من فوق رأس (ميرا) التي غطست أرضًا لتتفاداه ومُطلقة بقبضتها في أحشائه.

لم تتوقع (ميرا) أن يكون درع النبيل بتلك القوة التي كادت تهشم عظام يدها، وأعادت أيضًا آلام ضلوعها التي أكد الطبيب أنها مشروخة فقط وليست مكسورة من معركتها مع الـ(أغوش)، ولكن ضربتها جاءت من القوة أن أخلت بتوازنه قليلًا.

يستعيد توازنه في سرعة ويتقدم رافعًا سيفه ناويًا شج رأس (ميرا)

لـولا سـيف (جـيرد) الـذي آتـى ضاربًـا سـيفه و(داليـف) موجهًـا ضربتـه لقـدم النبيـل متوقعًـا بترهـا.

يعلـو طنـينٌ يصـم الآذان مـع التقـاء سـيوف الكهنـة بـدرع النبيـل الحديـدي بينـما تنطلـق (مـيرا) في سرعـة في اتجـاه سـيفها الملقـى عـلى الأرض وبطـرف عينيهـا تـرى الفيـدا تهـرول ناحيـة عربتهـا بينـما النبيـل يلتفـت لمواجهـة خصميـه.

في سرعـة ينقـل (داليـف) سـيفه ليـده اليـسرى مخرجًـا بيمنـاه كريسـتالة لهـب لتهشـيمها عـلى نصـل سـيفه، ولكـن قبـل أن يتمكـن مـن ذلـك يجد أن يـد النبيـل الحديـدي قـد انغلقـت عـلى يـده مهشـمة الكريسـتالة في قبضتـه ويـزداد الضغـط بقـوة غـير بشريـة محطمـة عظـام يـد (داليـف).

تـأتي ضربـات (جـيرد) سريعـة وقـد تمكـن مـن تهشـيم كريسـتالة لهـب عـلى نصـل سـيفه، في رقبـة النبيـل راجيـا أن تكـون نقطـة ضعـف لدرعه، ولكـن وحتـى مـع قـوة ضربتـه فـإن كل مـا اسـتطاع فعلـه هـو أن انغـرس سـيفه في كتـف النبيـل، لتجـيء لطمـة بظهـر يـد النبيـل الممسـكة بالسـيف لتلقـي بـه بعيـدًا.

تنقـض (مـيرا) بسـيفها الملتهـب لتسـدد ضربـة لـذات الكتـف المغـروس فيـه سـيف (جـيرد) لينفصـل جـزء مـن درع النبيـل ويقـع معـه سـيف (جـيرد).

حينها فقط يترك قبضة (داليف) التي صارت كتلة عجين دامية.

تصرخ (ميرا): (جيرد)، أما تزال هنا؟

يأتي صوت (جيرد) متحشرجًا: نعم...

-أخرج (داليف) حالًا، سأتولى أمر ذلك اللعين.

لم تكن (ميرا) تعرف من أين تأتي بتلك الثقة في كلماتها، فذلك الشيء لا يقاتل مثل أي شيء نازلته من قبل.

تتفادى (ميرا) ضربة كادت تطيح برأسها وتزرع كاحلها بقوة خلف ركبة النبيل ليركع مجبرا، ثم توجه ضربة أخرى تلك المرة برأسها ناطحة لخصمها.

ألم شديد يهاجمها وهي تدرك حماقة فعلها وقد دمعت عيناها من الألم، تدور من حولها الموجودات وتشعر بأن الوجود يغيب لتأتي طعنة من النبيل في ذراعها الأيسر تعيد لها واقعها، وإن جاء حاملا ألم لا يطاق، كان النصل انغرز حتى المقبض في كتفها الأيسر.

ترفع سيفها بيمناها لتوجيه ضربة واهنة للنبيل فيمسك بمعصمها جاذبًا لذراعها مانعًا إياها من الحركة، يشرع في نزع سيفه من ذراعها بيده الأخرى ليغرق (ميرا) في بحرا من الآلام ينسل سيفها من يمناها، تحارب كيلا يبتلعها بكل تبقى لديها من قوة تخرج بيسراها كريستالة لهب مهشمة إياها على السيف الذي لا يزال نصفه مغروزا في كتفها، سيفه، وتتمسك بنصل السيف بآخر عزمها، لينكسر النصل بفعل جذب النبيل.

يتخلى في لحظة النبيل عن نصله ليمسك برقبة (ميرا) رافعًا إياها من فوق الأرض ويبدأ في جذب أطرافها محاولًا فصل يمناها ورقبتها عن جسدها.

تبحث (ميرا) عن أي شيء.. أي شيء تستطيع استخدامه فتجد آخر كريستالة لهب في حافظتها فتجذبها بيدها الدامية وتهشمها حيث انخلع الدرع عن كتفه من ضربة (جيرد).

يتوقف النبيل عن الجذب لينظر لكتفه حيث ارتفعت رائحة تشي

بـأن هنـاك لحـم يشـوى تحـت ذلـك الـدرع ولكنـه لا يهتـم، ويعـود لمـزع أطرافهـا مـرة أخـرى ليـزداد الألم وتخفـت الأصـوات مـن حولهـا وتأنـس (مـيرا) لسـكون ابتلـع كل الألم وكأنهـا علقـت بـين خفقتـي فـؤاد.

شـياطين الصمـت في طريقهـم إليهـا، تـدرك ذلـك بعـد أن اختفـت كل آثـار الوغـى مـن حولهـا، فذلـك المـكان وتلـك اللحظـة لا يوجـد أثر لأي شيء سـواها ويـد ذلـك اللعـين سـاحبا إياهـا نحـو الصمـت.

انتهـى الوجـود، هـي والنبيـل الحديـدي وفـارس الصمـت القـادم مـن أجلهـا. بعـين غائمـة رأت شـيطان الصمـت متقدمًـا بالضبـط كـما وصفـوه، قادمًـا مـن اللامـكان مـن أجلهـا هـي.

يلقـي بـشيء في اتجاههـا، بالتأكيـد شـباك حصـاده، لم يكـن ذلـك مهـمًا، فقـد ماتـت تحـت علـم رجـل تقـدره، ومـن أجـل هـدف تفهمـه، فأهـلا بالصمـت.

تشـعر بـألم مفاجـئ فـوق وجنتهـا اليـسرى وتـرى سـلكا فضيـا يلتـف حـول كتـف النبيـل الحديـدي، ثـم تـرى الفـارس وفي يـده نهايـة ذلـك السـوط جاذبًـا إيـاه بقـوة وهـو يطلـق العنـان لخيلـه في الاتجـاه الآخـر.

وفجـأة تـأتي كل الأصـوات ضاربـة وعيهـا، ويـأتي الهـواء مخترقًـا لرئتيهـا، وذراع النبيـل قـد انفصلـت عـن جسـده.

في لحظـات تسـتوعب والفـارس يسـتدير قادمًـا مـرة أخـرى في اتجاههـا وقـد أتـى صـوت (خاشـيد) مـن تحـت خوذتـه صارخـا:

- اصعدي بسرعة.

تحـاول الوقـوف دون فائـدة أقـصى مـا اسـتطاعته أن ترفـع يمناهـا تجـاه (خاشـيد) وفرسـه القـادم

يقـترب (خاشـيد) بالفـرس مسرعـا وقـد ربـط جسـده بالحبـال بـسرج الخيـل ليتلقفهـا بكلتـا يديـه محتضنـا إياهـا دون أن يقـف ليميـل الحصـان بخطـورة مـع زيـادة الـوزن المفاجـئ، ولكـن (خاشـيد) يعتـدل سريعـا ممسـكا باللجـام ويزيـد مـن سرعتهـم بعـد أن تأكـد أنـه اسـتعاد توازنـه منطلقـين نحـو الوطـن.. إلى (زراد).

تمركزت قوات (غنتاق) أمام أسوار (زراد) الغربية، وقد أغلقت أبواب (زراد)، ووقف الرماة من جيشها أعلى أسوارها في انتظار محاولة الاقتحام الأولى.

وفي داخل خيمة الحرب كان (آروين) جالسًا بجانب النبيل الحديدي الواقف كعهده أبدًا، لم يتغير شيء سوى يمناه التي فقدها مغطاة الآن بثوب قماشي لفت حول جسده كيفما اتفق.

في منتصف الخيمة وكالعادة كان (غنتاق) و(هينادا) يتناوشان.

قالت (هينادا) في عصبية: أنت نفسك حذرتني أن أي محاولة للاقتحام لن تكون في صالحنا...

قاطعها قائلًا: ولم يتغير شيء، الاقتحام قبل وصول الإمدادات والدعم الجديد القادمان من ثيام سيكون فيه هلاك أكيد. ما أعترض عليه هو موقعنا الحالي، إذا تحركنا للخلف، وتمركزنا على بُعد بضعة أميال فسنأمن مرمى مقذوفاتهم.

- ثق بي نحتاج أن نكون هنا بالضبط.

- أريد سببًا أو أحرك القوات من فوري.

جاء صوت أحد حراس الخيمة مستأذنًا الدخول، وحين سمح له دخل قائلًا: زائر من أجلك أيتها الفيدا.

تشير الفيدا أن يُسمح له بالدخول وهي تقول: ويبدو أن السبب قد جاء.

يتأمل (غنتاق) الزائر الذي دخل الخيمة ليجده شابًا حليق الوجه يرتدي بنطالًا فضفاضًا وقميصًا قماشيًّا لبني.

يتطلع الشاب إلى الموجودين داخل الخيمة وحين تلتقي عيناه بالنبيل الحديدي تعلو نظرة من الاشمئزاز والكره وجهه قبل أن تذوب تمامًا وهو ينحني أمام الفيدا قائلًا: فيدا (هينادا)، أتممت عقدي.

- انهض يا (ساليك)، (غنتاق) أعرفك بـ(ساليك).. رجلي في (زراد)...

***

كانت نبضات قلب الصبي الصغير تعلو في كل مرة يمر بجوار واحد من حراس (زراد). كان يمسك بلفته القماشية الثقيلة محاولًا تحقيق توازن ما بين التشبث باللفة القماشية بقوة وبين عدم الضغط عليها بقوة.

لقد أكد عليه (ساليك) أن يبدو طبيعيًّا أثناء ذهابه في مهمته. لا يجب أن يوقفه واحد من الحراس أو أسوأ.. كاهن من كهنة النار.

يقترب من الجسر الحجري العريض الذي يمر فوق القناة المائية، وينزل بدرجاته السلم المجاور له على حافة القناة متجهًا إلى كوخ عتيق، يخرج مفتاحه ويدخل الكوخ.

يجيء الجزء الأصعب بعدها وقد اتجه إلى مؤخرة الكوخ. أزاح برميلا خشبيا لتظهر تحته فتحة ضيقة تساعه بالكاد وهو ما يزال محاولًا ألا يفلت اللفة القماشية أو يضغطها.

رويدًا رويدًا تختفي الأنوار وهو يزحف داخل المسار الحجري ليخرج من جيبه كريستالة لهب يتردد للحظات قبل أن يهشمها فليس بالسهولة أن يتخلى عن كنز مثل ذلك، ولكن قد وعده (ساليك) بمئة كريستالة مثلها حين ينهي مهمته.

يقسم الكريستالة داخل كرة زجاجية ويغلقها سريعًا ليشتعل اللهب داخلها مضيئًا له بقية الطريق وأخيرًا بعد أن وصل لنهاية المسار كان هناك مشاعل على الحائط داخل قلب نظام الصرف الخاص بـ(زراد)، وأمامه وكما وصف له (ساليك) بالضبط كان هناك ما يشبه برميلا عملاقا تخرج منه عشرات المواسير المتجهة لكل أنحاء (زراد).

أخذ الصبي نفسًا عميقًا فاضًا لفافته القماشية مخرجًا القربة الجلدية المقيتة المعقود طرفيها، كانت تشبه في حجمها ووزنها كثيرًا القرب الجلدية التي كان يعطيها لهم (ساليك) ليلعبوا بها في المدبغة، وقد اختاره (ساليك) لتلك المهمة لأنه كان دائمًا الفائز في تلك الألعاب.

وكـما اعتـاد أثنـاء لعبـه مـع أقرانـه فقـد رفـع القربـة الجلديـة في يـده ليلقيهـا بأقـصى قوتـه لتسـقط في وسـط اسـطوانة توزيـع الميـاه، مخرجًـا نبلتـه الصغـيرة، وبدقـة شـديدة ومـن المـرة الأولى أصـاب القربـة الجلديـة الطافيـة فـوق المـاء، لتتصاعـد منهـا الغـازات الخـضراء مغـيرة لـون المياه.

يقفـز الصبـي في فرحـة، ويعيـد نبلتـه لجيبـه، مسـتعدًا للعـودة إلى (سـاليك)، ولكـن يصـل الغـاز إلى أنفـه فيشـعر ببعـض الضيـق في التنفـس، وقبـل أن يشـعر بـشيء آخـر يسـقط عـلى وجهـه راحـلًا نحـو الصمـت، وتسـتمر الغـازات في تغيـير لـون الميـاه لتتحـول إلى نهـر أخـضر اللـون مسـموم يزحـف في أوردة (زراد).

***

بسخرية يقول (غنتاق) مشيرا لـ(ساليك):

– أهو رجلك من أكد لك أن كهنة النار لن ينضموا للقتال؟

تواجه الفيدا سخرية (غنتاق) مربتة على كتفه وهي تقول:

– بل هو من ضمن لنا النصر طالما تمركزنا هنا.

بالنبرة الساخرة ذاتها يتساءل (غنتاق):

– وكيف ذلك بالضبط؟

– في (زراد) يظنـون (سـاليك) لصـا حقـيرا، ولكنـه في الحقيقـة مـن أقـدر الخيميائيـين الذيـن قابلتهـم، الآن ونحـن نتحـدث فـإن كل الميـاه داخـل (زراد) تتحـول إلى سـم.

متفاجئًا يتساءل (غنتاق): وكيف يحدث ذلك؟

تجيء الإجابة تلك المرة من (ساليك):

- تركيبة من سم نادر يأتي من أحشاء الـ(أغوش)، مع عناصر كيميائية أخرى تزيد من فتكه، وتساعد على ارتباطه بالسوائل.

تُكمل الفيدا قائلة:

- وفي موقعنا الحالي نتحكم في كل آبار المياه خارج (زراد) غير المتصلة بالنهر، فخياراتهم قريبًا ستكون إما الاستمرار في التحصن والموت سمًا أو عطشًا أو الخروج من أبواب (زراد) لتتلقفهم.

جاء صوت (آروين) خفيضًا:

- ولكن.. ماذا عن الأطفال؟ والنساء؟ و.. وكل من ليس فردًا في جيوشهم؟

جاء رد الفيدا غير مكترثة: يمكنهم دائمًا أن يتناكحون صانعين المزيد من الأطفال.

جاءت تلك الكلمات القاسية صادمة لـ(آروين)، في تلك اللحظة لم يعد ينظر لها كنبيلته الجميلة ذات العينين المدهامتين، بل كوحش يماثل الشيء غير البشري الواقف إلى جواره، وقاتل جيش المرتزقة، والخائن الذي سلمهم مملكته، بل لعلها أسوأ منهم مجتمعين.. هي من جمعتهم، وكم من أحمق كان هو ليجد نفسه في صحبة هؤلاء.

٨

معلقًا على صليب الموت يشعر (سيفاد) بالوباء يجري في عروقه، يعيثُ فسادًا؛ وكأنه يزداد نهمًا لجسده، عارفًا أنه في يوم حَمَلَ لقب طبيب الوباء. يرى النهاية آتية، ويرى جسده بعين الخيال وقد بُلِيَ، ولحقَ بمن سبقوه في الصمت على أراضي الممالك القديمة، التي هجرتها الآلهة، ولا خلاص له حتى باللهب... في لحظاتٍ كتلك يشتاق حتى إلى صحبة الملاعين.

يتمنى لو يملك آثار لعابٍ يمكن أن يبصقه في وجه أولئك المخابيل كصيحة تمرد أخيرة، أو حتى لو يملك كلماتٍ ينقلها أحدهم كآخر سلالته، وآخر طبيب وباء.

لقد أضاع حياته دون أن ينقل ما توارثه لمن بعده.. ومن كان ليصير بعده وهو بلا سلالة! لمحة خاطفة في ذهنه لـ(عاند).. الفتى الذي وعده؛ فأضاعه.

أيمـوت أيضًـا حانثًـا بالوعـد؟ وليـس وعـدًا واحـدًا؛ كـم مـن الوعـود سـيحنث بهلاكـه!

أكان عهـده لملـك (زراد) بالقضـاء عـلى الوبـاء؟ أم كان وعـده بـأن يصـل إلى مصـدر الوبـاء؟ لأنـه نـال الوعـد الأخـير، لقـد وصـل إلى المصـدر... هـم حولـه الآن، يدقُّـون الوشـوم؛ صانعـين رسـل صمـت جُـدد راحلـين لــ(زراد)، ويتصايحـون كل حـين «مـن أجـل المجد».

– يوم سعد.

جـاء الصـوت مثلـما يجـيء دائـمًا؛ تحملـه الريـح كصـوت (الحبـارم)، يُخـرج (سـيفاد) مـن رثائـه لذاتـه.

يُكمل الصوت: يوم سعد.. وقد جاءك المجد...

يلعن (سيفاد): لقد عادت الهلاوس.

– آخر سلالة آنشتون.. يصيرُ نبيًّا، حاملًا للمجد.

لقـد ظـن الطبيـب طـوال عمـره أن الهـلاوس تـأتي كأصـوات صـادرة مـن داخـل عقلـه، ولكنـه يشـعر بتلـك الكلـمات، يشـعر بنعومتهـا وتموجاتهـا، يشـعر بالريـح التـي تحملهـا إليـه.

– مجدُ من؟ مجد أولئك المخابيل الذين يتصايحون من أجله؟

أكان حقًا يرد على هلاوسه؟!

يـأتي الصـوت مـن جديـد: لا يملـك أولئـك المخابيـل مجـدًا، كل مـا يملكونـه هـو جهـل مقـدس، ولكنـي أمـوت وأحيـا بالجهـل المتقـد في عيونهـم. هـم يعبـدون المجهـول، الـذي لا يجـيء بعـد الوجـود. لقـد وضعـوا كل مـا هـو محتـوم مـن ألمٍ وفنـاء في صـورة إلـه؛ لعلهـم يجـدون

أنفسهم بعد الصمت في صورة أعلى، يرتقوا فيها مُخلَّدين.

- إذا كان لا يوجد إله للصمت فمن أنت؟

- جئت من أحشاء الصمت، أتيت من حيث أيقظتني في أبراجه، أتيت بدماء إلهين ونبي.

يتذكر (سيفاد) وهو ما يزال مشوشًا كريستالات اللهب التي ألقاها، والكريستالة الزرقاء التي سرقها له (ساليك).

إذن فتلك الكريستالات حقًا دماء الآلهة، ولكن أي نبيّ أتيت بدمائه؟!

يحاول نزع تلك الأفكار: تلك هلاوس، تلك أساطير قديمة أعيد سردها على نفسي في لحظاتي الأخيرة. لا دماء، لا أنبياء، لا آلهة.. تلك مجرد هلاوس في عقلي.

ولكن الصوت يستمر: أنا الخوف ذاته، أنا الدافع، أنا الصانع لكل الكوابيس، أنا رب كلِّ مُخيف، رب الظلمات، رب الأعماق، رب كل ما اختبأ عند طرف البصر.. أنا خالق الحضارة. فهربًا من خلقي بُنيت الأكواخ والمنازل.. هربًا من خلقي شُيدت السقوف، واجتمعت الأمم.. هربًا من خلقي دارت الأسوار حول الممالك، ولكني أسكن القلوب لا أبارحها لا تحده أسوار ولا جيوش، مجدي وإن خبا فإنه هنا بين يديك الآن، أتُبعث حاملًا لمجدي؟

«هل المفترض عليه أن يرد على هذا السؤال؟».

فجأة ينطلق الطبيب ضاحكًا: نعم سأرد على هلاوسي، فأنا هالك لا محالة.. غريبًا وسط مخابيل.. هلاوسي تعرفني وأنا أعرفها.

«نعم».. قالها بصوتٍ عالٍ.. «نعم».. حاول أن يصرخ بها بحنجرته

المتصحرة.

«نعم».. جاذبًا انتباه اثنين من المخابيل يتأملانه في دهشة..

«نعم» مرة أخيرة ليأتي الصوت: «هو لك إذن».

ثم جاء الصراخ...

بدأت الصرخات من على مرمى بصره، وثلة من النساء والرجال قد تركوا مجلسهم، وبدا أنهم يفرون راكضين في اتجاهه.

شيء ما يطاردهم.. ينقض عليهم ناهشًا لحمهم، ملطخًا أرضهم بالدماء.

كان الظلام مخيمًا، والشعلات الهادئة مع أضواء القمرين لا تُنير الموجودات بما يكفي.

يتساقطون بالعشرات، ولا يفكرون حتى في محاولة الهجوم على قاتلهم.. يتدافعون ناحية صليب (سيفاد)، ويتساقطون قبل الوصول إليه.

يضحك (سيفاد) مرة أخرى ظانًا أن كل هذا ليس سوى المزيد من الهلاوس. يضحك وهو يرى المخابيل يتصارعون ويفشلون في الهرب، قادمون ناحيته؛ وكأنهم يسعون إلى مخلصهم.. مخلصهم المصلوب الموبوء الهالك الذي تُجلجل ضحكته كل الأرجاء.

وفي النهاية يقترب القاتل، ويتساءل (سيفاد): أهذا سقري؟.. سقري (أحاذ) ربما؟ هل جاء أحدهم بعرض أفضل فأراد (أحاذ) أن يسترد غنيمته؟

ولكن لا.. ذلك الشيء أكبر، ومغطى بفراء كثيف. أهو ذئبٌ؟..

لعمره لم يرَ ذئبًا في حجم مثل هذا.. يقف منتصبا على قدمين ومخلبين عظيمين يقطع بهما الأجساد، أهو وحشٌ أسطوري؟

لا يتبقى سوى دماء وأحشاء، ووحش ملطخ يقف أمامه. هربَ من هرب، وتحت أقدامه يأتي الذئب المهول متشممًا قدميه.

يهيئ الطبيب نفسه لآلام تلك الأسنان حين تبدأ في نهش قدميه، ولكن الألم لا يجيء.

يرفع الذئب رأسه ويطلق عواءً طويلًا.. طويلًا.. ومستمرًا.. ومع العواء يبدأ الفراء في الانكماش، والجسد يَصْغُر، وملامحه تتشكل لملامح فتى دامع العين، لا يتوقف عن العواء المختلط بالبكاء.

(عاند) جالس على أربع أمامه، وحينها يدرك الطبيب أن رهبان القمر لم يكونوا يحاولون أن يصنعوا منه شيئًا، بل كانوا قد وجدوا نبيهم. إن تابعه كان نبي القمر، وهو أخرجه من (زراد)، وبعث بدمائه إله جديد.

لا يتوقف (عاند) عن البكاء وهو يفتش في جثمان واحد ممن نهشهم

حتى يخرج خنجرًا ويبدأ في قطع الحبال التي تربط قدميه.

«كنا اثنين وستون إلها».

يجيء صوت «رب الخوف»...

– فالأقمار تخبوا، ومع كل خبو قمر يفنى إله ولا يُبعث، وكي يبقى الإله ويحيا يحتاج نبيًّا، ويُبعث الأنبياء مرة كل زمان، حين تسيل دماء نبي آخر.

كان (عانـد) قد انتهى من فك أقدامه، وتسلق برشاقة العمود المعلق به (سيفاد) ليفك يديه.

– الدماء.. وكأن فيها شيء مقدس، كان دائمًا على من أراد أن يصير نبيًّا أن يسفكها. وحدي أنا أنبيائي كانوا بشرًا، وإله النار نبيه كانا عنقاء وتنين. يقتل أحدهما عادة لبعث أنبياء آخرين دون ضغينة من إله النار، فكلما قتلوا تنينًا فهناك العنقاء تحمل مجد النار وتبعث ساعتها من الرماد لو قتلت، ولكن الآن لا يوجد سوى إلهين وقمرين ولا عنقاء ولا تنين في الجوار.

كان (عانـد) قد فك الأربطة، وحاول أن يسند الطبيب، ولكنه كان أضعف من أن يقف فسقط على وجهه وسط الدماء لينزل (عانـد) من فوق الصليب مسرعًا كي يتأكد من سلامة سيده.

– رهبان القمر لا يعلمون حتى ما الذي يعبدونه، فقد مرت السنون دون أن يأتي إليهم بنبي، لا يوجد إله القمر، ذلك إله الصيد ما يعبدونه، وذاك نبي الصيد من ستقتل...

بخرقة ما قد وجدها (عانـد) يبدأ في مسح الطبيب منظفًا إياه من الدماء وهو يسأل بصوته الباكي:

- أأنت بخير سيدي الطبيب؟

ينظـر لـه الطبيـب نظـرة أخـيرة رافعًـا الخنجـر ذاتـه الـذي فـك بـه (عانـد) أربطتـه ليغرسـه في قلبـه، وهـو يقـول: لا.

وساعتها انشق القمر.

الخاتمة

في ركن سيئ الإضاءة بإحدى حانات ميناء (ثول) كان من المستحيل أن تخطئ (أحاذ) حتى من ظهره، فلو لم تميز رجليه الواقفين خلفه عاقدا الذراعين؛ فمن سواه سيجلس تحت قدميه (سقري) مسلسل.

قباله جلس بحار يتحدث بسرعة خاطفًا أنفاسًا متلاحقة تُكتَم كلما مرت عيناه على (السقري) الرابض.

– ... ومع انشغال الجميع تسللت لقمرته وتحصلت على أربعة.

يتفحص البحار الهزيل الحانة من حوله، ويُخرج بيد مرتعشة من فرض الحماسة أربع كريستالات لهب، يضعهم أمام (أحاذ) على المائدة وهو يكمل؛

– لم يلحظ حتى اختفائهم، وفي اليوم التالي ألقو بها تبقى في جوف أحد أبراج الصمت.

محاولًا إخفاء الإثارة التي اعترته؛ يرنو (أحاذ) من كريستالات اللهب المضيئة أمامه، ولكن يفضحه اتساع حدقتا عينيه، ورعشة يده وهو يربت على سقريه الذي يمد رأسه بتكاسل متشممًا الكريستالات.

التواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/ZelBablyon

@BIGBY_

للنشر
والتوزيع

info@noonpublishing.net
02-338560372 - 01127772007